



اسلاميات



اسلامیات

تألیف: سامح کریم



مهرجان القراءة للجميع ٩٨

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك
(الأعمال الدينية)

الجهات المشاركة:

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة التنمية الريفية

المجلس الأعلى للشباب والرياضة

التنفيذ: الهيئة المصرية العامة للكتاب

اسلاميات

تأليف: سامح كريم

الغلاف

الإشراف الفني:

للغنان محمود الهندي

المشرف العام

د. سمير سرحان

على سبيل التقديم

تواصل مكتبة الأسرة ٩٨ رسالتها التنويرية وأهدافها النبيلة بربط الأجيال بتراثها الحضاري المتميز منذ فجر التاريخ وإتاحة الفرصة أمام القارئ للتواصل مع الثقافات الأخرى، لأن الكتاب مصدر الثقافة الخالد هو قلمتنا الحصينة وسلاحنا الماضي في مواكبة عصر المعلومات والمعرفة.

د. سمير سرحان

تقديم

بقلم الإمام الأكبر الدكتور محمد محمد الفحام
شيخ الجامع الأزهر سابقاً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الإسلام نعمة الله الكبرى على العباد ، به يستقيم الفكر ، ويرشد القلب ، ويمضي السلوك الى صراط الله المستقيم .
ونظرة واحدة توازن بين حالي البشر قبل الإسلام وبعده تعطي هذه النتيجة بما لا يحصى من الأدلة والبراهين والفاهمون المنصفون وحدهم هم الذين يعقلون بحق قول الله تعالى : «اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتي ، ورضيت لكم الإسلام ديناً» .
وان دعاة الإسلام بالقلم واللسان لهم أحسن الناس قولاً ، وأسلم الناس رأياً «ومن أحسن قولاً ممن دعا الى الله وعمل صالحاً وقال انني من المسلمين» .
وكل نعمة في المجتمع الاسلامي مردها الى سببها الحقيقي وهو التزام الاسلام ، وكل انحراف في المجتمع الاسلامي مرده الى سببه الحقيقي وهو تسلط الاهواء والله تعالى يقول : «ما أصابك من حسنة فمن الله ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك» .

الاسلام اذن هو الدين الحق . وللحق في كل مجتمع رجاله ، ودعائه واعلامه ، لا يتوقف ذلك على غير القلب السليم والفكر الناضج، والظروف المواتية ، فاذا تجمع لإنسان كل هذا كانت الدراسات المتخصصة عوناً له وسنداً ومدداً .

والكتاب الخمسة الدين اختارهم ابننا العزيز الاستاذ سامح كريم لتصوير خصائص أعلامهم ، والاشادة بشمار قرائحهم فسي عرض الاسلام وخدمة قضاياه . عن طريق تناول الموضوعات ، وتراجم الشخصيات . هؤلاء الخمسة نعرف لهم منازلهم ، ونعترف لهم بجمال ما قدموا ، وجميل ما صنعوا . فمن منا لا يعرف الدكتور طه حسين ، والاستاذ عباس محمود العقاد ، والدكتور محمد حسين هيكل والدكتور أحمد أمين ، والاستاذ توفيق الحكيم ؟

ان الذي لا يعرفهم هو المنعزل عن فكر امته ، وتراث سلفه ، ولا يعنيه ان يتلفت الى ثمار القرائح الفاهمة للاسلام المجاهدة في بيان جلاله وجماله ..

ولقد قرأت هذا الكتاب فسرني ما لمست من قدرة المؤلف على تحديد ملامح كل كاتب واعطاء خصائصه ، والاستشهاد لذلك بكثير من كتاباته ، فكان يعطي بذلك الى جانب صورة الكتاب صورة مؤلفه وخصائص أسلوبه . ان الجديد الذي اضافته كتابات الدكتور طه حسين والدكتور محمد حسين هيكل والاستاذ عباس محمود العقاد والدكتور أحمد أمين والاستاذ توفيق الحكيم هو انها اخرجت السيرة المحمدية في ثوب جديد وتحديث من النبي صلى الله عليه وسلم حديثاً لا يسع العقل المنصف الا ان يقربه ويجله ويحترمه ، وردت بهذا الاسلوب العلمي القوي على كتابات المفرضين من المتعصبين ضد الاسلام الذين يقدحون في حقائقه بسوء نية وينكرون وجود الشمس لانهم عمي لا يبصرون .

هذا . ولقد أعجبني من ابننا الاستاذ سامح كريم قراءاته الواسعة ووقوفه عند الخصائص التي تميز بها انتاج المؤلفين العباقرة ، والحاحه المشكور على قراء العربية ان يعطوا الكتب وقتاً أطول وعناية أكبر ، ونظراً وفكراً ، وأن كتابه هذا يثير الرغبة الجارفة في قراءة الكتب التي يقدم خصائصها ويتحدث عن مناهجها . ثم أعجبني منه قوله في نهاية هذا الكتاب :

«وهذا الجهد المتواضع الذي أسعفه توفيق من الله وعونه ليس سوى اشارة الى هذه الاسلاميات الحافلة .. بالنظريات والمناقشات

والتساؤلات والآراء والافكار» .
غير ان لي بعد ذلك وقفة مع الاستاذ سامح حول قوله عن الكتاب
الخمسة انهم يقتحمون ميدان الكتابات الاسلامية ، وهو ميدان ما كان
لامثالهم من غير المتخصصين في الكتابات الدينية .
وخلال هذه الوقفة نرى في موضوعها امرين :
(أ) ان كل فاهم للاسلام ، دارس له مستوعب لقضاياها انما هو من
المتخصصين في الكتابات الدينية وليس بلازم ان يتخرج في معهد بعينه،
المهم ان يكون دارسا بعمق ووعي وودع وفهم أصيل .
(ب) الدكتور طه حسين ازهرى النشأة ، وكذلك الدكتور أحمد
أمين ، وأما الدكتور هيكل والاستاذ العقاد والاستاذ توفيق الحكيم فقد
تخرجوا على كتب الازهر وان لم يتخرجوا فيه .
ولو ان الكتاب حفل بالعناوين الجزئية والجانبية لكان ذلك اعون على
التحديد والتحصيل .. ولو ان الكتاب عنى بالرد على شبهات المبشرين
كما عنى بتسجيلها لكان اوفق واجمل .. وخصوصا انه علل نشاط انتاج
التاريخ الاسلامي في الفترة التي ظهرت فيها هذه الكتابات بنشاط معاد
للاسلام فكانت تأليف هؤلاء الخمسة الكرام رد فعل مشكورا لهذا الهجوم
المفرض الظالم ضد الاسلام ..
ومما هو جدير بالتسجيل ان الاسلام يزداد صلابة وصمودا كلما تفنن
خصومه في الكيد له ، ومن آيات صموده في الثلاثينات هذه الاسلاميات
التي يحصرها لنا المؤلف .. وكل ما يحتاجه الاسلام .
(أ) ان يجد العقل الفاهم .
(ب) والقلم المعبر .
(ج) والمجتمع المطبق لتعاليفه .
(د) والحرية التي لا تضاد انواره .
ودين الله مع ذلك جديرة انواره ان تبدد الظلام مهما كان معتكرا كشيئا .
لاحظت كذلك القسوة - من المؤلف - على من سماهم المعارضين اذ
وصمهم بالتعصب والجمود .
كما لاحظت التاثر بعبارات علماء النفس مثل «عبادة البطل» و«عبادة
الخير والحق والجمال» وكلمة عبادة لا تجوز لغير الله وكان الاولى ان يقال
بدل عبادة .. تقدير البطل والاعجاب به، والايان بالخير والحق والجمال ..
وأخيرا نقرر في اعتزاز ان كل بطل من أبطال هذه الكتابات الاسلامية
صنعه الاسلام دون ان يكون هذا البطل قبل الاسلام شيئا مذكورا الا في

عداد اعداء الدين . . والدين الذي صنع هؤلاء لا زال بيننا بكتابه الكريم،
وسنة رسوله الامين . فمن اراد ان يبلغ ما بلغوا فليمض على نفس
الطريق . فان هذا القرآن يهدي للتي هي اقوم .
وأخيرا أشكر ابننا العزيز الاستاذ سامح كريم وأعرف له نشاطه
واستيعابه وأقدر له حسن اتجاهه الى الكتابة الاسلامية والاشادة بالاقلام
التي تركت في مجالها اثرا محمودا وأسأل الله تعالى ان ينفع به طول
حياته ، وأن يجزل له الثواب لقاء ما قدم لدينه ووطنه .

د . محمد محمد الفحام

كلمة ..

في لقاء مع الدكتور طه حسين وجهت اليه السؤال الذي يعيش في وجدان وعقل كل من قرأ عمله العظيم «الفتنة الكبرى» وهو: هل سيتيح للقارئ العربي أن يقرأ «الفتنة الكبرى» في جزئها الثالث ذلك الذي وعد به؟
أجاب سيادته بأنه يرجو ذلك ويتمناه.

وتطرق الحديث فشمّل الاسلاميات وكتابها. وهنا طرح الدكتور طه حسين سؤالاً أراه جديراً بالاهتمام والبحث وهو: ما الذي فعله الجيل التالي لكتاب الاسلاميات حيال هذه الكتابات؟ هل قام أحدهم بعملية الرصد الواجبة لما جاء فيها من أساليب وأفكار؟ وأين مكانها من فكرنا العربي - الحديث بوجه عام؟
ثم يتساءل عميد أدبنا العربي قائلاً: هل كتبت لتبقى هكذا فوق أرفف المكتبة.. حتى يأتيها مستشرق يخصص الكثير من عنايته لدراستها.. والله وحده هو الذي يعلم كنه هذه الدراسة؟

والحق أنني لم أجد ما أرد به على عميد أدبنا العربي غير القول بأن بعض الأعلام العربية لم تنزل تناقش هذه الاسلاميات بين حين وآخر.
وهنا يرد سيادته بأن ما يفعلونه لا يتعدى عرض واحد من الكتب أو نقده أو دراسته. ولكن ما يعنيه هو أن تكون هناك دراسة شاملة لهذه الاسلاميات.
ويمضى على حديث عميد أدبنا العربي - الذي نشرت مجلة الاذاعة جزءاً منه - ثلاث سنوات تابعت خلالها المكتبة العربية علني أظفر بإجابة لسؤال الدكتور العميد يكون في صورة كتاب عن الاسلاميات ولكن دون جدوى.

والآن وقد كان لي شرف المبادرة، برغم تواضع ما أقدمه من عمل الى جانب هذه الأعمال الشامخة تلك التي قدمها أصحابها لا أزعج لنفسي بأنني قد أوفيت بالغرض المنشود، أو الهدف الذي كان يرمى اليه عميد أدبنا العربي. ولعل عذري في ذلك أن دراسة الكتاب الواحد من الإسلاميات تكفي أو تزيد على صفحات مثل هذا الكتاب الذي تقدمه اليوم. ولا عجب ففي بعض كتبها من الخصب والنماء ما غطت به حاجة رسالة جامعية كما حدث في كتاب (حياة محمد) للدكتور محمد حسين هيكل حين اتخذ منه واحد من المستشرقين مادة لرسالة الدكتور في التاريخ الاسلامي الحديث للسيرة النبوية الشريفة.

اقول ان كنت لم أصل بعد الى ما ينبغي أن تكون عليه دراسة مثل هذه الكتابات العظيمة فيكفيني أنني قدمت خطوة على الطريق لا أشك في أن هناك خطوات تعقبها قد تكون أشمل وأفضل.

وبعد هذه الإشارة السريعة، ان كان هناك مجال لتقديم هذه الصفحات، يمكن القول في كلمات بأنني سأصحب القارئ التي تروق له قراءة الاسلام مبسطاً مقنعا شامخا في رحلة داخل فكر كل واحد من هؤلاء الأربعة الذين يمثلون علامات مميزة لفكرنا العربي الحديث وهم: «الدكتور طه حسين» و«الاستاذ عباس محمود العقاد» و«الدكتور محمد حسين هيكل» و«الدكتور أحمد أمين».

وفي هذه الرحلة نتوقف معا لننظر من بعيد نظرة شاملة إلى تلك الدوافع والأسباب التي جعلت هؤلاء الأربعة يقتحمون ميدان الكتابة الإسلامية.. وهو ميدان ما كان لأمثالهم من غير المتخصصين في الكتابات الدينية أن يقتحموه، وعند هذا الحد نكون قد قطعنا معا الفصل الأول من الكتاب. ونسرع الخطى فنحن على موعد مع أول من دعا إلى كتابة الإسلاميات وهو الدكتور طه حسين وعنده تبهرنا دعواه المبكرة في اتباع المنهج العلمي الحديث في تقييم هذا التاريخ الاسلامي، كما تبهرنا كلماته وأسلوبه المنفرد حين يحدثنا عن الحياة الأدبية في الاسلام.

ويسلمنا هذا الفصل إلى الفصل الثالث.. إلى اسلاميات الدكتور أحمد أمين:
وعندها نقف مشدوهين أمام هذا العمل العظيم من الفكر. حيث ينظر العقل في
العقلية الاسلامية.. وعلى الرغم من أن نظرة العقل في العقل تعتبر فلسفة الا أن
أسلوب الدكتور أحمد أمين كان مترقفا وفكرته واضحة مما أتاح للعقل أن ينظر إلى
العقل في غير تفلسف.

بعد هذا نجد أنفسنا وجها لوجه أمام الدكتور محمد حسين هيكل وأسلوبه
المميز الذي يعتبر خير سفير للاسلام حين تخطت كتبه الاسلامية الحدود لتدرس
في جامعات الأجنب. ويمضي بنا الوقت سريعا في الاستمتاع بقراءة أسلوب
الدكتور هيكل الذي يختلف ولا شك عن أسلوب كل من زميله السابقين. وهو
ما يشغل الفصل الرابع.

من بعده يفتح الطريق الى الفصل الخامس.. حيث هذه الموسوعة الاسلامية
الضخمة لعملاق فكرنا العربي عباس محمود العقاد. وفيها تدور أعيننا على
صفحات ما يقرب من الثلاثين كتابا، متنقلين بين ثلاثة أساليب للتناول. فكتبه
التي نتحدثنا عن العبقريات ليست مثل التي نتحدثنا عن الشخصيات والائنتين
تختلفان ولا شك عن الدراسات والأبحاث. ونودع العقاد قائلين في إعجاب: كم
كنت عظيماً عندما دافعت عن الإسلام ونبي الإسلام صلى الله عليه وسلم.

وهنا نتوقف لنسأل أنفسنا سؤالا وهل أضاف الأربعة بما كتبوا عن الإسلام –
نبيه ورجاله ونظامه وعقيدته – جديدا الى التفكير الاسلامي نفسه أم أن كتاباتهم
كانت تحصيل حاصل، وصورة طبق الاصل لكتابات قديمة؟

والسؤال وإجابته تستوعبهما السطور الأخيرة لهذا البحث.. والله أسأل أن يوفقنا
إلى ما فيه الخير.

«سامح كريم»

الوقت - وإلا فما معنى تشديدها في طلب الموضوعات الاخرى المعدّته للنشر ، والاكثر من ذلك الامر بوقف هذه السلسلة فسورا . واذكر أن رئيس التحرير طلب من وكيل وزارة الاعلان لشؤون الرقابة ، الرفق بهذا الجهود الذي قامت به المجلة في شخص محررها . وطلب اللقاء بيني وبينه للتفاهم .. وتم هذا اللقاء ولم يحدث فيه الا تأكيدا لوقف المقالات ، وقد صحبت معي إحداها وكانت حول كتاب كتاب الدكتور منصور فهمي، عن مكانة المرأة في الاسلام وهي رسالة الدكتوراه التي كان قد ناقشها بفرنسا في بدايات هذا القرن فقراها وبعد ان فرغ منها علّق قائلا : «ان وقف نشرها كان لا يكفي !» .

في ظل هذا المناخ صدر لي كتاب «إسلاميات طه حسين والعقائد وأحمد أمين وهيكل» وتوقعت الدار التي أصدرته وهي نفسها الدار التي كنت أكتب منها الدراسات موضع الخلاف بأن الكتاب لن ينجح ، وأعدت موضعا فسيحا في مخازنها ، يليق بعودة هذه الأعداد الهائلة التي لن يمسه بشر .

الا ان الامر جاء على غير ما كنا نتوقع .. لقد حدث أن سجل توزيع هذا الكتاب رقما مدهشا ، فقد نفذ في عامه الاول ، والاكثر من ذلك او على الاقل الاله بالنسبة لي ، جاءني مجموعة من أولئك الذين قد كتبوا للمجلة يهدونها بالمقاطعة لانها تسمح لي بالكتابة . جاءت هذه المرة مشكورة ايضا لتقول كلمات هي بحق أجمل أوسمة نلتها في حياتي ، وتحول اللقاء معهم الى ما يشبه الندوة الصغيرة .. والحق أشهد انسي استفدت الكثير من مجرد حديثي معهم ، وفي مقدمة ما استفدته هو ذلك التعديل الذي أرجو ان ينال رضا القارئ واقتناعه .. والذي تتضمنه هذه الطبعة .

لقد قالوا لي لماذا تجاهلت في مدخلك للاسلاميات دور الجمعيات الاسلامية ، في ثلاثينات هذا القرن حين تصدت لهذه الهجمة الضارية من المبشرين والمستشرقين ، ووجدت ما يؤكد ذلك ، حين رجعت الى بعض المصادر وفي مقدمتها كتاب «تطور مصر» للعالم الفرنسي مارسيل كولومب ، وقد فعلت قدر استطاعتي ما نبهوني اليه .

وقالوا ايضا : لماذا لم تعمق دور الذين دافعوا عن الاسلام ، قبل طه حسين والعقاد وأحمد أمين والدكتور هيكل ، وفي مقدمتهم الاستاذ الإمام محمد عبده ، وأستاذه الشيخ جمال الدين الافغاني ، وتلميذه الشيخ محمد رشيد رضا ، ولماذا مررت مرورا عابرا على صاحب أم القرى

المجاهد العربي الكبير عبد الرحمن الكواكبي . وقد فعلت ما يمكن ان
تسمح به ظروف هذه الطبعة .
كذلك استفسروا عن كتابات الاستاذ توفيق الحكيم فسي الاسلام ،
وواجهني اُحدهم بكتابه «محمد» وقال لي. الا يرقى هذا الى مستوى مسا
عرضته من كتابات في الإسلام ، وأعترف ان نفس هذا المطلب قرانه لمن
تفضل من النقاد بعرض ونقد الكتاب ، وسمعتة ايضا من اصدقاء تحدثوا
معي فيه ، امرا ضخّم الاحساس عندي بهذا التقصير ، غير المقصود ،
والذي حاولت قدر استطاعتي ان اتلافاه في هذه الطبعة ، فأضيف الى
إسلاميات الاربعة الذين ضمتهم الطبعة الاولى إسلاميات الحكيم .
وفي الخلاصة اقول ان الإقبال على اقتناء الكتاب ان دل على شيء
فإنما يدل على عناية القراء ، بالبحث الذي يحتويه . لذلك لم يكن بد من
التفكير في اعادة النظر فيه مرة ثانية .
ولا شك ان موضوع الكتاب ، هو السبب الاول في الإقبال عليه بلا
ريب ، واذا توضح للقراء بعد هذا العمل ان الصورة المقدمة مقنعة حقا .
فإنما الإقناع بها منبعث من ذات واقعها . . من الموضوع نفسه . . من
الاسلام وليس من دفاع كاتب متحمس والله ولي التوفيق .

سامح كريم

٢-١٩٧٧



الفصل الأول

الإسلاميات .. معناها وأسبابها

من الامور الشاقة التي كانت تواجهه الباحث في تاريخ العرب ، اسلوبهم في كتابة هذا التاريخ .. فقد درج العرب على كتابة حوادثهم من حوليات .. فيذكرون الاحداث في شتى نواحيها .. يختلط فيها الدين بالعلم ، والادب بالسياسة والشعر .. ولعلمهم اعتبروا الإحاطة بكل هذه الجوانب ، دليل مقدر . لذلك تصوروا الادب مثلا هو الاخذ من كل شيء بطرف ، فنرى الجاحظ يكتب في «البيان والتبيين» تفسير آية الى جانب حكاية الى جانب قصيدة الى جانب رأي لصاحب المنطق .. وهكذا إستطرادات لا يجمعها خط واحد او تصنيف واحد .

لهذا كانت مهمة الباحث الحديث شاقة عسيرة ، تحتاج الى احاطة شاملة بكثير من العلوم ، من تفسير وحديث وتاريخ وفقه وأدب وفلسفة وعلم كلام وتصوف .

وأصعب من هذه المهمة .. مهمة القارئ لهذه المادة .. فقراءتها عسيرة وفهمها أعسر ، وتذوقها أشد عسرا .. فأين هذا القارئ الذي يطمئن الى قراءة الأسانيد المطولة ، والأخبار التي يلتوي بها الاستطراد ، وتجدد بها لغتها على الفهم السهل ، والذوق الهين .. الذي لا يكلف الناس مشقة ولا عناء!؟

ثم اين هذا القارئ - وبخاصة في زماننا هذا الذي يحيط بكثير من العلوم من تفسير وحديث وتاريخ وتصوف الخ - لكي يقرأ خبرا من أخبار العرب الاقدمين ، او يقف على واقعة حدثت في الماضي البعيد ؟

وإين هذا القارئ النهم ، الذي يملك من الوقت ، ما يسمح له بالبحث في المتون والأسانيد والحوليات ، عن قصة من القصص ، جاء ذكرها في العصر القديم ، ويريد الاستمتاع بقراءتها أو الرجوع إليها ؟ وإين هذا القارئ ، الذي يفضل قراءة التاريخ العربي ، بهذه الصورة ، التي بلغ فيها التعقيد شأنًا عظيمًا ، على تواريخ الأمم الأخرى ، بصورة مبسطة غير مستغلة على فهمه ، أو حتى تاريخنا العربي نفسه بأقلام مستشرقين ومبشرين استطاعوا أن ينفذوا إلى هذه المادة التاريخية ليأخذوا منها ما يريدون ، ثم يدسوا فيها ما يريدون ، بأسلوب مبسط بالنسبة للقارئ ؟

ومن هنا برزت الحاجة إلى إعادة كتابة تاريخنا العربي . . ودور الفكر العربي في تكوين الفكر الأوربي ، لأن هذا الدور واسع المدى عميق الأثر ، شمل العلوم كما شمل الصناعات ، ولم يقتصر على الفلسفة والعلوم الطبيعية والفيزيائية والرياضيات بل امتد كذلك إلى الأدب : الشعر منه والقصص وإلى الفن المعماري والموسيقى منه بخاصة . وهكذا خرجت علينا أبحاث في تاريخ الأدب والفكر العربي ، تجلو صفحات مجهولة من آدابنا وأفكارنا العربية ، ووقعت بين يدي القارئ مجلدات هي رسالات جامعية عن هذا التاريخ والفكر تقدمه من زوايا مختلفة ، وبأساليب واضحة ، لا تجنح إلى الغموض ، بل وأكثر من هذا عبر الفنان سواء الشاعر أو الروائي ، عن أحداث هذا التاريخ بأعمال فنية تشوق القارئ وتخطف انتباهه .

وهكذا استطاع القارئ إلى حد كبير ، التعرف على شخصيته العربية ، من خلال هذه الكتابات ، ذات الألوان المتعددة ، واستطاع أيضا أن يجد بين الكتابات العربية ، ما يشبهه ويسد ما يوجد لديه من نقص ، بل وأكثر من ذلك ، استطاعت هذه الجهود المشكورة ، أن تعصم العقل العربي وتحميه ، من هذا الدس الذي يضعه المستشرقون بين كتاباتهم ، بقصد أو عن غير قصد .

وبرزت الحاجة أيضا - وهذا هو الأهم - إلى إعادة كتابة تاريخنا الإسلامي من جديد ، ورسم صور أعلامه كالنبي صلى الله عليه وسلم ، ورجال الصدر الأول من الإسلام ، من خلفاء وقادة وفلاسفة ، وكذلك كتابة دراسات وأبحاث عن الدولة الإسلامية : نشأتها وتطورها ، ماضيها وحاضرها . . كل هذا على النحو الحديث ، في طريقة العرض والتحليل ، ووضع الأفكار غير ملفوفة برداء من الغموض ، يحجبها عن الباحث أو

الدارس او حتى القارئ العادي . . فلا ينصرف احدهم عن هذه المادة الى غيرها ، مما يكتبه غير المسلمين من مبشرين ومستشرقين ، بل وتزيد هذه الكتابات بأسلوبها الجديد ، في التناول والعرض من تمسك المسلم بعقيدته ، الدينية ، تمسكا يحميه من مغريات العصر ومزالقه .

ولعل هذا ما تنبه اليه الاستاذ الإمام محمد عبده ، حين اخذ على عاتقه ، مهمة البعث الجديد لتاريخ الاسلام ، وجلاء صورته . فكانت كتاباته بمثابة الصورة المثلى لما يكون عليه الاسلوب ، من الدقة والوضوح ، كما كانت في نفس الوقت الرد المفحم على خصوم الاسلام ، هؤلاء الذين تفننوا في الهجوم على الاسلام ونبيه الكريم .

وكان أكبر ما استفاده العقل العربي المستنير ، من فكرة الامام في الاصلاح والحرية الانسانية انه اعاد اليه الثقة بعقيدته ، في هذا العصر الحديث ، ورفع من طريقه الى العمل ، عقبات الجمود والخرافة والتقليد ، لانه زوده على قواعد دينه بفلسفة الحياة ، التي يقابل بها فلسفات الغرب المتسلطة عليه ، من جهة السطوة او من جهة الايمان بالعقائد والآراء ، ولهذا كانت ردوده على فلاسفة الغرب ومفكره أهم وأجدى على المسلم العصري ، من ردود المدافعين عن الاسلام على جماعات المبشرين المحترفين ، اذ كانت شبهات المبشرين المحترفين لا تعدو ان تدور حول الشقائق اللفظية التي تمس الاديان الاخرى اشد مساسها بالاسلام في العصر الحاضر او العصور الماضية ولكن شبهات المفكرين على غرار الفيلسوف «ارنست رينان» و«جبرائيل هانوتو» وغيرهما ، كانت بحاجة الى الفكر العصري ، المؤمن بالدين لمواجهة الافكار العصرية التي لا تؤمن بالاسلام ولا بغير الاسلام ، ولكنها تخامر فكرة المسلم ، كما تخامر ضميره بالاسئلة المعلقة في انتظار الجواب بين ذي ثقة باعتقاده ، وذي ثقة بتفكيره ، وذي طوية لا ترتقي اليها الظنون ، وكان الاستاذ الإمام عبده - كما يقول الاستاذ العقاد في كتابة عبقرية الاصلاح والتعليم الامام مجمد عبده - مليئا بكل ما يتطلبه المسلم المستنير في عصره من آيات الثقة وحجج الاقناع .

كانت ردود الاستاذ الامام على «رينان» و«هانوتو» ردود ما قد علموه ، عن تواريخ الحضارات وخصائص الشعوب ، وطبائع الاجناس والسلالات ، ويزيد هو عليهم بالايمن الثابت والاريجية الانسانية والهمة التي ترفعه الى مقام الرسالة الروحية ، اذ لا رسالة لامثال «رينان» و«هانوتو» في عالم العقيدة ولا في عالم الاصلاح . وقد كان اعلى طبقة من مناظريه ، في

مضمار المناظرة بين المعسكرين المتقاتلين فكان «رينان» و«هانوتو» يقابلان بين الاسلام والمسيحية ، ليقابلا بعد ذلك بين دعوى الغالب ودعوى المغلوب ، ولم ينزل خاصة ، ويقابلا بعد ذلك بين دعوى الغالب ودعوى المغلوب ، ولم ينزل الاستاذ الإمام الى مضمارهم ، الا ليدفع عن الاسلام في وجه الاوربيين المصطبغين بالصبغة المسيحية، وهم ابعداً ما يكونون عن المسيحية السمحة، كما يعرفها الاستاذ الامام . . ولم يخرج من ردوده بتنزيه الاسلام وتشويه المسيحية ، بل خرج منها جميعاً بتنزيه الديانتين وإثبات الحقيقة التي يدين بها من يدين بكتاب الاسلام : وهي أن المسيحية ديانة محبوبة لا عداوة بين من يدين بها على اصولها ، ومن يدين بالاسلام على اصوله ، ولا يحرم على المسلم يوماً ان يصاحب اهل الكتاب على سنة اهل الكتاب . ولأن الاستاذ الإمام محمد عبده كان غير متعصب اولاً ، وعالم ثانياً . . فقد كان خير منافع ومدافع عن الاسلام ونبيّه الكريم ، ليس هذا فقط وانما ايضا خير داعية للاسلام ، بأنه دين الله الذي لا يرفض الايديان الاخرى . ولم يكن غريباً والامام بهذا الفكر المستنير ، أن يلهم غمير المسلمين ، من وحي فكره ووحى اعتقاده ووحى كلامه في تفسير القرآن وشرحه للدين في كل موطن اقام به او رحل اليه . فكان آداب المسيحيين يتسابقون الى دروسه بمساجد بيروت ايام منفاه ، وكان القس الانجليزي تايلور يرى ان شرح المسيحية كما يبسطه الاستاذ الامام ، يوشك أن يعينه على اقناع الاوربيين ، بالتوحيد بين الديانتين على الجادة الوسطى ، التي يلتقي لديها المؤمن بالقرآن والمؤمن بالانجيل ، وعبث العلامة يعقنبوب صروف تعبيره الصادق ، عن شعور فضلاء المسيحيين يوم قال - ساعة ذفن الاستاذ الامام لمن حوله من تلاميذه - : «اني اسمعكم تقولون فقيده الاسلام والمسلمين ، ولا تزيدون انه فقيده الفكر والعلم حيث كان ، انه فقيدهنا اجمعين . . »

على ان الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده لم يكن هو اول من كتب في الاسلام وتناوله بأسلوب يقبله العصر ، وانما كان هناك استاذه الشيخ جمال الدين الافغاني الذي قال عنه الامام نفسه : «سليم القلب جديد المزاج شديد العزم شجاع مقدم كثير البذل ، قوي الاعتماد على الله لا يبالي بصروف الزمان قليل الحرص على الدنيا ، بعيد عن الغرور بمتاعها وزخرفها ، مؤثر لمتع الروح كلف بمباهج المعرفة . . » .

والذي قال عنه رينان : «كنت اتحدث الى الافغاني وكان يخيل الي من حرية فكره ، ونبالة طبعه وإخلاص قلبه ، انني أرى وجهها لوجهه

معارفي القدماء ، واني أشهد ابن سينا او ابن رشد ، او احد من اولئك الاحرار العظام الذين مثلوا خلال خمسة قرون تقاليد الفكر الانساني» .
كان الشيخ جمال الدين الافغاني ، رائدا لحركة اصلاح ديني . . فكان يرى أن أساس حركة الاصلاح الديني ، هو الاهتمام بقلع ما رسخ في عقول العوام والخواص من فهم بعض العقائد الدينية والنصوص الشرعية على غير وجهها الحقيقي مثل حملهم القضاء والقدر على معنى يوجب ، الا يتحركوا لطلب مجد ولا للتخلص من ذل ، ومثل فهمهم لبعض الاحاديث الشريفة ، الدالة على فساد آخر الزمان ، فهماً حملهم على عدم السعي وراء الاصلاح والنجاح ، فلا بد من بث العقائد الدينية الحققة ، بين افراد الجمهور وشرحها لهم على وجهها الصحيح نفوذهم الى ما فيه خيرهم في الدنيا والآخرة .

ولهذا دعا جمال الدين الافغاني في كتاباته المستنيرين من المسلمين ، الى النظر في حالهم لتحقيق نهضة دينية تجديدية ، تلائم مقتضيات العصر الحديث ، وتبين لهم ان الاسلام اذا فهم على وجهه الصحيح ، يستطيع ان ينمو نموا طبيعيا ، وان يتقدم تقدما يجمع بين المصالح المتجددة للحياة العملية ، وبين المطالب العالية للنفس الانسانية .

على ان الشيخ جمال الدين الافغاني ، قد عرف بالدعوة الى الجامعة الاسلامية ، التي ترمي الى اتحاد جميع الشعوب ، تلك التي تعيش في كنف الاسلام ، لكي يتيسر لها التخلص من سيطرة الاجنبي ، وقد كان الشيخ جمال يقول بهذا الصدد ، ان الدول الغربية تنتحل الأعداء في هجومها وعدوانها على البلاد الاسلامية وإذلالها وإكراهها لهذه الدول .

وكذلك كان عبد الرحمن الكواكبي ، الذي ولد في حلب وأنشأ فيها جريدة «الشهباء» ثم «الاعتدال» وقد عطلت الحكومة وقتئذ الواحدة بعد الاخرى ، فهاجر الى مصر ، واتصل بالشيخ جمال الدين الافغاني ، والاستاذ الامام محمد عبده . . ولم يكن غريبا أن يكون أسلوبه مكملا ومتمما لأسلوب الشيخ الافغاني وتلميذه الامام ، وقد اخذ الثلاثة على عاتقهم الدفاع عن الاسلام ثم اجلاء صوره .

وقد كتب الكواكبي في ذلك كتابين ، احدهما هو كتاب «ام القرى» نقد فيه احوال العالم الاسلامي في الفترة التي صدر فيها الكتاب . . في قالب خيالي يصور مؤتمرا عقد في مكة ، وتكلم فيه ممثلون بشتى الاقطار الاسلامية ، كل يطرح المشكلة من وجهة نظره ، ويقدم لها على لسان الكواكبي حلولا .

والكتاب الآخر هو «طبائع الاستبداد» وعلى الرغم من انه سياسي ، الا انه لم يتغافل عن عرض ما في الاسلام من مبادئ وقيم . . في فصل بحث فيه عن علاقة الاستبداد بالدين . فدل على ان الاسلام قد فرق بين شيئين جوهريين ، النظرة الى الله ، والنظرة الى الحاكم . . ان الحاكم فرد يخطيء ويصيب ، يظلم ويعدل . . انه في جميع الاحوال يلتزم - بحكم الدين - الا يستبد بالرأي ان الله تعالى يقول : «وشاورهم في الامر» اي في الشأن . ويقول عز وجل : «وامرهم شورى بينهم» اي شأنهم . ويقول سبحانه وتعالى : «يا ايها الذين آمنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول وأولي الامر منكم» اي اصحاب الشأن منكم وهم العلماء والرؤساء على ما اتفق عليه اكثر المفسرين . وهنا نجد فارقا كبيرا بين الاسلام كنظام اجتماعي وغيره من الانظمة الاوربية . . تلك التي ترى ان الاستبداد متولد من الاستبداد في الدين نفسه ، او مسائرا له ، انهم يقولون ان الاديان تعلم الناس الخوف من قوة عظيمة لا تدرك العقول كنهها ، وتهدهم بالعذاب ان لم يطيعوها والمستبدون السياسيون يتبعون الاسلوب نفسه . . فيرهبون الناس ويدلوهم - بالقوة وسلب الاموال والارهاب . حتى لا يجدوا مفرًا من التزلف اليهم وتملقهم .

الكواكبي يؤكد شارحا ذلك بالحجة والدليل والمنطق ، ان الاسلام يختلف شديد الاختلاف عن هذا الاسلوب . ويضرب مثلا بالصحابسي الجليل عمر بن الخطاب رضي الله عنه واحد العشرة المبشرين بالجنة ، يعلن اخطاء عمر واصابت امرأة فهل هناك عدالة بعد هذا ؟

ومن بعد هؤلاء جميعا جاء محمد رشيد رضا ، ومحمد فريد وجدي وغيرهما فأعطوا المادة الاسلامية شطرا من اهتماماتهم وتحدثوا عن الاسلام ديننا ونظامنا ورجالا على النحو الحديث .

أراد محمد رشيد رضا - حتى يتمكن من إلزام المسلمين بتجديد تعاليم القرآن والسنة بإفادة تأملها والتفكير فيها وحتى يزيد من حثهم على ان يظلوا مرتبطين بشريعة آبائهم - اراد ان يثبت بطريقة قاطعة ان دينهم لا يمكن ان يكون بأية حال من الاحوال ، مسؤولا عن ذلك التفكك البطيء الذي أصاب مجتمعهم ، وذلك بقيامه بدراسة سريعة - وجدانية اكثر منها نقدية لاسباب تدهور العالم الاسلامي ، ولتنفيذ كل الاتهامات الموجهة الى الاسلام وأخذ ، يطري بلا كلل الفضائل الاجتماعية والسياسية للشريعة الاسلامية وعبر مرات عديدة ، عن رأيه في أن هذه الشريعة «تستطيع وحدها أن تؤذن بالعثور على دواء لكل الامراض الاجتماعية ،

التي تلازم الانظمة والحكومات المادية والمحددة ، والتي اخذت بخائق كثير من المجتمعات حتى الجأتها الى البلشفية والفوضوية ، وعلى غرار ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة حين راوده الامل في كسب الجماعات اليهودية الى دينه ، فان محمد رشيد رضا لم يفقد الامل مطلقا ، في أن يرى العرب ذات يوم ، وقد عدل عن ضلالاته ، وجاء لينضم الى الصف ، تحت راية الاسلام . من هنا كانت انتقاداته الحادة للمستشرقين الغربيين ، الذين اتهمهم بأنهم شوهوا في كتاباتهم المعنى الحقيقي لرسالة الله .

وسرعان ما تحتم أن يؤدي هذا الحماس ، في اثبات أن الاسلام هو آخر وأفضل وأكمل الأديان المعروفة ، الى ايقاظ أصداء عميقة في الراي العام الاسلامي بل لقد كان من اللازم أن يكون ثمة صدى مماثل لنداءات يوجهها الشيخ محمد رشيد رضا ، لنشر العربية لغة القرآن - على نطاق واسع ، وأن تقدم استجابات عنيفة ضد «الاستعمار» وضد التعليم ، الذي تشرف عليه المدارس الاجنبية ، والبعثات التبشيرية المسيحية .

وكانت مقالاته العديدة التي نشرها «المنار» تقرا عن آخرها في كافة انحاء العالم الاسلامي من الهند حتى مراكش ، بل لزم الامر أن تطبع بعض كتبه عدة مرات . واذا كان كتابه عن «الخلافة» لم يحظ بنجاح نسبي ، فان كتابه «الثورة المحمدية» قد نفذ خلال أسابيع ، كما ترجم الى اللغتين الاوردية والصينية ، كما اعيد طبعه عدة مرات متتالية .

تشربت القومية المصرية - كما يقول مارسيل كولومب في كتابه «تطور مصر» الذي ترجمه الاستاذ زهير الشايب ، عند قراءتها لهذه المؤلفات المكتوبة بأسلوب فخم جذاب ، جرعة جديدة من الحماسة والقوة ، وتكاتف المسلمون من كافة المذاهب للدفاع عن الاسلام ، وهو بما كانت تنصح به هذه المؤلفات .

وهكذا أدت هذه الافكار الى أن تضفي على الدين صبغة قومية ، كان لاندفاعها ولبلالغاتها أحيانا أثر على الحياة السياسية في مصر . كما أثر بالمثل في التكوين العقلي والنفسي والخلقي للشباب ، وجاءت أولى نتائجه في بدايات عام ١٩٢٧ متمثلة في نشأة العديد ، من الجمعيات الدينية بصورة غير طبيعية وكانت أهم هذه الجمعيات تلعب في اوساط الطبقات المتوسطة في المدن دورا يتزايد مع الايام وهو دور شبيه بالدور الذي تلعبه الطرق الصوفية ، وقد جاءت نهاية بعض هذه الجمعيات وهو البعض الذي نشأ لهدف محدد ، سرية فلم يقدر لها أن تبقى بعد انتهاء

الظروف التي أدت الى وجودها ، أما بعضها الآخر ، فقد ظل ينمو خلال سنوات طويلة ، ليحرز فجأة صيتا ذائعا ثم لتتوارى بعد ذلك في ظلام النسيان . وسوف نقتصر هنا على ذكر أهم هذه الجمعيات وهي «جمعية الثبان المسلمين» و«جمعية مكارم الاخلاق الاسلامية» و«جمعية الهداية الاسلامية» و«جمعية الوعظ والدعوة الاسلامية» و«جمعية نشر الفضائل الاسلامية» و«جمعية إحياء السنّة» و«الجمعية السلفية» .

كانت كل هذه الجمعيات تنفي عن نفسها بقوة انها تتدخل في الحياة السياسية للبلاد ، ولكنها مع ذلك سرعان ما تحولت الى جمعيات يتعاش فيها كل من الدين والوطنية جنبا الى جنب ، ولم تلبث ان نشأت جمعيات اخرى لها طابع مزدوج : ديني وسياسي في الوقت نفسه ، وثمة اثنتان من هذه الجمعيات جديرتان بالذكر هما حسب تاريخ تأسيسهما : «جماعة الاخوان المسلمين» وجمعية «مصر الفتاة» وقد حازت اولاهما وهي التي تأسست عام ١٩٢٧ - ١٩٢٨ على يد مدرس خط بالمدارس الثانوية الحكومية ، شعبية مذهلة غداة الحرب العالمية الثانية ، أما الاخرى «مصر الفتاة» فقد أنشأها في عام ١٩٣٣ المحامي أحمد حسين وكان جمهورها بالغ الضالّة يتكون من صغار تلاميذ المدارس الابتدائية والثانوية فسي القاهرة والاسكندرية ، ويتميز اعضاؤها الذين يتجمعون في شراذم «القمصان الخضراء» ، بتلك المظاهرات الصاحبة غير المنظمة ، والتي تعبر عن وطنية متطرفة كما كانوا لا يخفون مطلقا اعجابهم بالنظامين الاستبداديين ، الهتلري والفاشستي. كما قاموا بحملات صاخبة تطالب بإغلاق حانات الشرب ، وبمنع البغاء وتحريم الاختلاط في الاماكن العامة، وظلت هذه الجماعة «مصر الفتاة» تواصل نشاطها الديني بعد ان اتخذت لنفسها عام ١٩٤٠ اسم «الحزب الوطني الاسلامي» ، وفي هذا الحين قدمت برنامجها الذي أفسحت فيه مكانا كبيرا لضرورة تجديد وتنقيح الشريعة الاسلامية ، وضرورة تطبيقها فنادت بإعادة نظام الزكاة ، وإلغاء الاقتراض بالربح والربا ، وسن القوانين عن طريق مجلس من العلماء والفقهاء وتنقيح الدستور بما يطابق مبادئ الشريعة .

وفي مواجهة الغرب والمعجيين به ، تصدت جمعيتنا «مصر الفتاة» و«الاخوان المسلمين» للدفاع بحمية وجرأة عن الاسلام والحضارة الاسلامية ، واشتدت كلتاهما في التنديد بالسياسة التي كانت تتبعها الدول الكبرى في البلدان الاسلامية الخاضعة لسلطانها ، كما تصدت بالمثل لفوضى العادات الشرقية الناتجة في معظم الاحيان عن «تأودب

متسرع» ، لكن شيئاً لم يكن يشير سخطهم وسخط الرأي العام في مجموعة مثلما كانت تثير الاحكام التي كان يطلقها على الاسلام المستشرقون الغربيون ، وكذا التصريحات الرعناء والمحرقة الصادرة أحيانا عن المبشرين المسيحيين ، كانت الثورة ضد بعثات التبشير بالغة الحدة خصوصا في شهري مارس وأبريل عام ١٩٢٨ ، وهي الفترة التي عقد فيها المؤتمر العالمي للاعمال التبشيرية غير الكاثوليكية جلساته في القدس ، ثم عادت الثورة مرة اخرى في صيف ١٩٣٣ عندما اتهمت مديرة معهد بور سعيد، بأنها ارادت ان ترغم بالقوة طفلة مسلمة على الارتداد عن دينها ، واهاج الحادث الشعور العام ، واتهمت البعثات التبشيرية بأنها تلجأ الى اساليب تبعث على الحيرة ، بل والى ممارسة التنويم المغناطيسي ، كما أحاطت الريبة بكل المدارس الاجنبية العلمانية منها والتبشيرية . واتهمت بأنها تنشر تعليما معاديا ومضادا للاسلام ، وانها تجعل الشبان المصريين يحدون عن طريقهم . وتعالى النداءات تطالب بتطوير سريع للتعليم المصري ، وعلى الفور افتتحت الاككتابات التي خصصت لبناء الملاجئ ، وافتتح مدارس جديدة يمكن ان يكون فيها المسلمون بمنأى عن الدعايات الخبيثة ، التي يبثها المدرسون الاجانب وقد أدت حملة الاثارة هذه في يولية ١٩٣٣ ، الى أحداث كفر السدوار ، حيث اضطرت الاخوات الفرنسيسان ، بعد حصار الجمهور وتهديده لهن - أن يسلمن الاطفال الذين كانوا في رعايتهن .

وعلى امتداد السنوات كانت بعض الصحف المستريبة على الدوام والتي تثور لابس الامور لا تفتأ توجه الاتهامات لمستشركي اوربا وكانت أسماء مثل «مارجوليوت» و«برونو» و«سنوك» تذكر باعتبارها أسماء مخربين خطرين على الاسلام ، يتهمون تحت ستار من ادعاء العالمية على القرآن ، وعلى حياة محمد صلى الله عليه وسلم ، بههدف أن يهثوا للمبشرين والاستعماريين حججا منطقية في مظهرها كي تززع ايمان المسلمين ولكي تجعلهم يحدون عن ارتباطهم بدينهم . ومن بين هؤلاء المستشرقين جميعا ، إستاثر العالم الهولندي ولنسك بأشد الانتقاد والهجوم ، لانه كان قد كتب في دائرة المعارف الاسلامية مقالين. عند احدهما قذفا في حق النبي ابراهيم عليه السلام ، كما عد الآخر قذفا في حق الكعبة .

وسرعان ما تولت الجامعة الازهرية ادارة دفة حركة الرأي العام هذه، واستطاع شيوخها بكل ما يمنحهم منصبهم من نفوذ ، أن يجعلوا من

انفسهم المعبرين عن هذا السخط العام ، وكثرت تدخلاتهم لدى السلطات العامة وحرصا من الجامعة الكبرى على الا تخيب الآمال التي عقدت عليها، فقد فكرت في القيام بدور تبشيري كان دعاة التجديد يراودهم الامل في ان تقوم به فأرسلت بعثات من العلماء الى السودان واليابان والهند ، مع اصرار من جانبهم على الا يثبط همتهم ما سوف يواجهونه من نوبات فشل متوالية ، ولاشهر طويلة كانت صحافة القاهرة لا تكف عن الحديث عن احتمال «المنبوذين» في الهند مع جزء كبير من الشعب الياباني السى الاسلام مما أحيى الآمال في رؤية العالم الاسلامي ، وقد ازدادت أعداده عدة ملايين من الانفس دفعة واحدة .

وقد وُلدت هذه الدعاية النشطة لدى أبسط طبقات الشعب ، وكذلك وسط طلاب المدارس والجامعات بالمدن الكبرى تيارا قويا معاديا للاجانب، ظل يتزايد من عام لعام حتى وصل مداه غداة الحرب العالمية الثانية . وهكذا عمل الكثيرون على ان يتبوا الدين في حياة البلاد السياسية مكانة بارزة .

وفي عام ١٩٢٥ مكنت ادانة الشيخ علي عبد الرازق الملك فؤاد ، من اقالة وزير الحقانية لانه لم يبد حماسة كافية للتصديق على قرارات الازهر ، وبهذه الطريقة تخلص الملك من حكومة كان يعتبرها مصدر ضيق له ، ولكن ازمة ١٩٣٧ كانت حافلة بدروس اكبر ، فقد بدأت تعود للوجود بين الاقباط والمسلمين مشاحنات الامس . وبعد بضعة اشهر كانت تهمة «القبضية» كفيلا بتحطيم مكانة حزب الوفد ، وبدأ النحاس باشا - كما اشار اليه كل خصومه - باعتباره الكافر ، في الوقت الذي كان يطلق فيه على الملك فاروق اسم «الملك الصالح» .

ومع ذلك فلم يكن القصر ولا الحاشية ، هما وحدهما اللذان يستندان الى هذه المحافظة الاسلامية ، فقد كان التيار المناهض باستنهاض الدين من القوة بين الطبقات ، وصناع المدن الكبرى بحيث لم يفكر رجال السياسة في الصمود في طريقه ، ولما كانوا يفوقون غيرهم في ادراك قوة هذا التيار وقدراته المفاجئة ، فقد بدلوا كل ما في وسعهم وفق ما تقضي به الظروف ، للمداهنة وللتوافق . وكان على الحكومات التي تتولى السلطة ايا كان الحزب الذي تنتمي اليه ، ان تعمل حسابا لتلك التيارات الاسلامية التي لن يتوانى خصومها في المعارضة عن استغلالها . وقد ظهر هذا الميل الى وضع الدين في خدمة السياسة بوضوح اثناء الحملات الانتخابية واثناء فترات الازمات التي تبلغ فيها المعارك الحزبية حدا بالغ العنف، ومنذ ذلك

الحين كانت تتوارى في الظل مشروعات الاصلاح الديني ، ولن يكون في الدولة كلها شخص واحد يجرؤ على المضي في هذه المشروعات حتى آخر الشوط . ومع ذلك فان الحدث البالغ الدلالة هو ان المسيحيين الداعين في الماضي الى علمانية الدولة ، قد قاموا بترضية ادبية وساهموا في الدفاع عن الاسلام ، ولهذا فقد رأينا سلامة موسى عام ١٩٣٥ يصرح بأن الاسلام هو دين بلادي ومن واجبي ان اذافع عنه ، وبالمثل سمعنا عام ١٩٣٦ وزير المالية الطريقي مكرم عبيد باشا ، يؤكد لبعض المشايخ الذين جاءوا ليشكروه على رصده مبالغ ضخمة لبناء مساجد جديدة قائلا «صحيح اني مسيحي دينا لكني مسلم وطنا» .

وشعر دعاة التجديد بأن عليهم ان يقدموا براهين أكيدة على اخلاصهم لعقيدتهم ، لذا فسوف نلمس منذ عام ١٩٣٠ ظهور ادب يتخذ من الدين ملهما له ، فيخصص الدكتور طه حسين ابتداء من ١٩٣٣ ثلاثة مجلدات من الحكايات والاقاصيص عن حياة النبي تحت عنوان «على هامش السيرة» ، وساهم في هذا اللون الادبي الجديد كبار كتاب مصر الحديثة وفي مقدمتهم محمد حسين هيكل وعباس محمود العقاد واحمد أمين وتوفيق الحكيم كل حسب مواهبه وثقافته الخاصة . ففي عام ١٩٣٥ نشر محمد حسين هيكل رئيس تحرير الصحيفة الليبرالية السياسية على الجمهور كتابه «حياة محمد» ثم اتبع هذا الكتاب بمؤلفات اخرى مثل الصديق أبو بكر الفاروق عمر وعثمان بن عفان بين الخلافة والملك . وابتداء من عام ١٩٤٠ بدأ عباس محمود العقاد بدوره يقدم كتابه «عبقرية محمد» وهو اول كتاب من سلسلة طويلة نشرت خلال السنوات التالية عبقرية الصديق عبقرية عمر وعبقرية خالد ثم قدم بعد ذلك سيرة : داعي السماء بلال بن رباح مؤذن الرسول الصديقة بنت الصديق عائشة بنت ابي بكر واحب زوجات النبي اليه ، أبو الشهداء الحسين بن علي وعمرو بن العاص . اما توفيق الحكيم فقد قدم أحداثا من حياة النبي على شكل حوار .

وقد استقبلت الجماهير هذه الكتب بترحيب خاص ونفذ كتاب هيكل «حياة محمد» في نفس عام صدوره ونال شهرة لا مثيل لها في كل أنحاء العالم العربي سواء في اوساط المثقفين او في اوساط الجماهير العادية ، كما لم يكن أقل من ذلك نجاح عبقريات العقاد والمجلدات الثلاث التي ألفها طه حسين عن سيرة النبي ، فقد أعيد طبع هذه الكتب مرات عديدة ، وأمام هذا الاقبال الشديد على التاريخ الاسلامي ، اخذت وزارة المعارف

العمومية على عاتقها عام ١٩٤٠ ، أن تنشر تحت إشرافها سلسلة «أعلام الإسلام» للناشئة في البلدان العربية ، وتناولت الكتب الأولى من هذه السلسلة التي عهد بتأليفها إلى كبار الكتاب - حياة البارزين من رجال القرن الأول الهجري ، وإلى جانب الخلفاء الأربعة كان صحابة الرسول يحتلون مكانة بارزة في قائمة الأسماء موضع الدراسة : سعد بن أبي وقاص أبو عبيدة عامر بن الجراح بالإضافة إلى الخلفاء الأمويين : معاوية وعبد الملك بن مروان وعمر بن عبد العزيز وكذلك القادة وحكام المقاطعات البارزون : خالد بن الوليد (سيف الله المسلول) وعمرو بن العاص (محرر مصر) موسى بن نصير (فاتح المغرب الأقصى) مسلمة بن عبد الملك (الذي لمع في معارك آسيا الصغرى) فتية بن مسلم (حاكم وفتح إقليم خراسان) وأخيراً الحجاج بن يوسف الثقفي . ثم يأتي بعد ذلك في هذه السلسلة أسماء القدامى من خيرة الشعراء والناشرين جرير الفسردق ، قيس الرقيات الكميث عمر بن أبي ربيعة كثير الخطيب وبنار بن برد .

ان هذا الفكر الجديد الذي كان يركز على أحداث منتقاة من سيرة حياة النبي والخلفاء الراشدين لم يكن ليتمر بينما هو مكتوب بأقلام كتاب يدين كبارهم بشهرتهم لمناهجهم وبنفس القدر لعقليتهم الليبرالية الناقدة بل والثورية في بعض الأحيان دون ان يثير الكثير من الدهشة . حتى لقد وصف البعض ذلك بأنه «ردة رجعية إلى التقاليد» وبأنه دعوة إلى التفكير المحافظ الذي ينتمي إلى الزمن الغابر وقد انبرى طه حسين بحدة لهذه الاتهامات .

والاهتمام بكتابة التاريخ الإسلامي قد توقف فترة إلى ان بدأ واضحاً قويا في ثلاثينات هذا القرن ، فصدر في أقل من عام أكثر من عشرين كتاباً في الإسلام وبالتحديد عام ١٩٣٥ . وهذه الكتب سلكت المنهج الحديث في كتابة التاريخ . وفي مقدمتها : «الإسلام والحضارة» للاستاذ محمد كرد علي ، «ضحى الإسلام» للدكتور أحمد أمين ، «على هامش السيرة» للدكتور طه حسين ، «حياة محمد» للدكتور محمد حسين هيكل ، وترجمة كتاب «الإسلام والتجديد» للاستاذ عباس محمود ، وهو بالطبع غير عملاق الفكر العربي عباس محمود العقاد الذي بدأ كتابته موسوعته الإسلامية الضخمة في أربعينات هذا القرن . وغير هؤلاء ممن قدموا كتابات وفضل تعدادها - كما قلنا - إلى أكثر من عشرين كتاباً .

وصدور هذا العدد من الكتب التي تعالج الإسلام نظاماً ورجالاً وديناً في أقل من عام . . . يعتبر في حد ذاته ظاهرة اجتماعية تستحق البحث

والدراسة ، خاصة وأنه لم يكن هناك قبلها اهتمام يذكر اللهم هذا النذر القليل الذي يخرج في صورة كلمة أو مقالة أو على أكثر تقدير بحث الى جانب ما يخرج بالطبع من كتب بالطريقة القديمة .

وما يزيد هذه الظاهرة استحقاقا للبحث والدراسة ان معظم مؤلفي هذه الكتب الحديثة لم يكونوا من رجال الدين المتفرغين للكتابة فسي المسائل الدينية ، والدين لا يستغرب منهم الكتابة في هذا الميدان . ولكن الغريب ان من اقبل على طرق هذه الموضوعات الدينية . . لم يكونوا من المتخصصين . وفي مقدمتهم الدكتور طه حسين ، والدكتور محمد حسنين هيكل ، والدكتور أحمد أمين ، والاستاذ عباس محمود العقاد ، والاستاذ توفيق الحكيم ، وهم الخمسة الذين نعرض لكتابتهم هنا في الاسلام ، والتي عرفت فيما بعد بالإسلاميات .

وهذه الاسلاميات التي برزت في ثلاثينات هذا القرن نوع من الكتابات الاسلامية تجمعت لمفكر واحد كتبها وفق منهج علمي فسي البحث . . . وذلك من حيث العرض والتحليل والاستقصاء . وفيها جلاء لصورة الاسلام نظاما ودينا ورجالا . وهي الى جانب هذا كله تقديم لحقائق الاسلام . . تلك التي تبطل افتراءات خصومه .

وانصرف هؤلاء الكتاب الخمسة غير المتخصصين في الكتابات الدينية الى هذا النوع من الكتابات لا بد ان يكون له اكثر من دلالة .
والحق انه كان هناك بالفعل اكثر من سبب واكثر من عامل دفع هؤلاء الكتاب الخمسة للكتابة في الاسلام ومن هذه العوامل والاسباب :

أولا - ازدياد نشاط الحركة التبشيرية التي تناقلت الصحف يومئذ اخبارها في ثلاثينات هذا القرن ، وكانت الجامعة الامريكية بالقاهرة هي مصدر هذه الدعاية التبشيرية ، وكان غريبا حقا هذا النشاط الذي أبداه المبشرون والذي لم يسمع بمثله من عشرات السنين فقد امتد من القاهرة الى بور سعيد والى غيرها من المدن ، وقد أسهمت صحف ذلك الوقت في وصف وذكر الاغراءات المادية التي لجأ اليها المبشرون لحمل السدج على اعتناق غير الاسلام . ولقد كان الأربعة «طه حسين ، ومحمد حسين هيكل ، وعباس محمود العقاد ، وأحمد أمين» من أشد الناس تحمسا لمقاومة هذا التبشير اقتناعا منهم بأن هذه الحركة يقصد بها إضعاف ما في النفوس من ثقة بدين الدولة الرسمي ، ولما تنطوي عليه من قصد سياسي هو إضعاف معنويات الشعب بإضعاف عقيدته بالإضافة الى انهم رأوا في هذه الحركة التبشيرية نفسها مقاومة لما يؤمنون به من «حرية

الراي» فإغراء السذج والاطفال من المسلمين بهذه الوسائل المادية لحملهم على تغيير دينهم او حتى حملهم على تغيير رأيهم في الحياة هو محاربة دنيئة لهذه الحرية ، وهو من ناحية اخرى استغلال للضعف الانساني كاستغلال المرابي حاجة مدينه ليقرضه . بالربا الفاحش . والتبشير فضلا عن كل ذلك مناف لقواعد الاخلاق ما دام يتم في الظلام ولا يصارح القائم به الناس ليناقشوه فيما يقول ويدعو ، وليبينوا ما فيه من زيف وفساد . وكان من اثر هذه الحركة التبشيرية ، وموقف هؤلاء الاربعة ومن يشايعهم ان اندفعوا في مقاومتها بالطريقة العلمية المثلى ، وفكروا وتدبروا فلم يجدوا خيرا من اعادة كتابة التاريخ الاسلامي بطريقة يقتنع بها المسلم وغير المسلم .

ولا شك ان الخمسة فكروا في مقاومة هذه الحركة بطريقة علمية واضحة فحكّموا العقل قبل العاطفة- ولا ادل على ذلك مما نقرأه في كتاب احدهم «الاستاذ عباس محمود العقاد» الذي ننقل منه هذه العبارة للتدليل على هذا التفكير . يقول العقاد في كتابه «ما يقال عن الاسلام» في صدد الحديث عن المبشرين ما يلي .

(ولا يقل عن هؤلاء الكفرة في عداوتهم للاسلام - يقصد الماديين - جماعة المؤمنين المحترفين سماسرة التبشير الذين يتخذون تشويه الاسلام صناعة يستندون بها الرزق ويتوسلون بها جاه الرئاسة وسمعة الصلاح والتقوى بين المتعصبين والجهلاء في البلاد الاوربية والامريكية . هؤلاء اصحاب مصلحة في تشويه الدين الاسلامي وتمثيل المسلمين على الصورة التي تذكى عند القوم جذوة التعصب وغلي لهم في الجهالة والفضلة ، فلا يسرهم ان تظهر الخيانة لهم لمن يستاجرونهم ويوسلونهم للتبشير ولا يندر ان يكون المبشر ملحدا بالدين كله . ولكنه يعلم انه يقطع موارد رزقه اذا كشف عن إحداه ، او قال عن الاسلام قولة حق وإنصاف بمحو عداوة الاعداء وتضعف غيرتهم وحمايتهم للحملات التبشيرية في بلاد المسلمين فهو كاذب متعمد منتفع بالكذب لا يزحزحه عنه علمه بالحقيقة ولا هو يسعى الى علمها برضاه) .

ويفرق الاستاذ العقاد بين هؤلاء المؤمنين المحترفين وبين المصدقين برسالتهم عند النظر الى اقوال المبشرين فيقول في نفس المصدر :

(فالمبشر المؤمن بدينه ربما انحرفت المخالفة الدينية بعاطفته فنظر الى الاشياء على غير وجهتها واخطا احدكم عليها ، غير متعمد ان يخطئ او يصر على خطئه . وربما لاحت له فضيلة من فضائل الدين او ممن

فضائل أهله فلم ينكرها ولم يحاول أن يطمسها ويخفيها ولكنه يفسرها على سنة الاقدمين من المبشرين تفسيرا يوافق رأيه في عقيدته وعقائده المخالفين له من المستحقين لغضب الله في زعمه» .
بهذا النمط من التفكير سلك الخمسة الكبار في مقاومتهم للتبشير ورجاله .

ثانيا - دخول بعض الكتابات الاجنبية عن الاسلام الى البلاد . ونعني بهذه الكتابات تلك التي صاحبت حركة الاستشراق العالمية ، والتي بدأت في اوربا في اوائل القرن الثامن عشر او قبل ذلك ، يوم بدأت اوربا تراجع معتقداتها وتتنصل بالعالم الخارجي . . اتصال كشف وتقيس كل ما كانت تعرفه على الواقع والحقيقة . . وكان التراث الاسلامي هدفا من اهداف بحث المستشرقين . وهنا ظهرت بعض الكتابات التي تسيء الى الاسلام ونبي الاسلام صلى الله عليه وسلم . وهذه الكتابات ان سلمت . من غرض تشويه الاسلام كهدف فلا بد ان تقع فريسة اخطاء اخرى ليكون من نتيجتها تشويه الاسلام ايضا مثل عدم توافر الامانة العلمية الواجبة ، او عدم الاحاطة بالاسلام ديننا ونظاما وعقيدة ، او عدم التمكن من اللغسة العربية فضلا عن بعض التعصب الديني وكثير من التعصب القومي .

وعلى الرغم من ان هذه الكتابات مضى عليها زمن طويل الا انها وقعت في ايدي جيل الثلاثينات ، ذلك الذي أصبح يقرأ باللغات الاجنبية ولا يجد في نفس الوقت من المؤلفات العربية ما يستطيع الوقوف به امام هذه الكتابات المبنية في كثير من جوانبها على الحجة والمنطق . حقيقة كان هناك من الكتابات العربية ما يقدم نبي الاسلام صلى الله عليه وسلم ، ولكن بصورة تسيء الى الحقيقة ، بما تنسبه اليه من معجزات وخوارق لا يصدقها عقل ولا هي تفيد في تأكيد رسالته النبوية . . فكان هذا الجيل من المثقفين اميل الى تصديق كتب المستشرقين الذين يخاطبونه بما يتفق مع عقلية الجديدة واختلاف النتائج التي كان يصل اليها . هؤلاء المستشرقون ما بين مقر بعظمة الاسلام ونبي الاسلام ، ومنكر لها . . مع زعم الفريقيين بأن ما انتهى اليه بحثهما هو نتيجة للنظر العلمي المجرد . . هذا الاختلاف جعل الشك يتسرب في صحة هذه النتائج من ناحية ، ومن ناحية اخرى بدأ كتاب وادباء هذا الجيل يتعلمون منهجهم في الكتابة وفي نفس الوقت يتصدون للكتابة في الاسلام بهذا المنهج . وبذلك قضا على زعم هؤلاء المستشرقين بأنهم هم وحدهم الذين يستخدمون المنهج العلمي في كتابة التاريخ الاسلامي .

ثالثا - كتابات المتعصبين للغرب ووطنيا وجنسيا التي يظهر التعصب فيها حين يكتبون عن المسلمين العرب لانهم اذا كتبوا عن المسلمين الهنود او الفرس استطاعوا ان يقولوا انهم من السلالة الآرية التي ينتمي اليها الاوربيون ، واستطاعوا ان يزعموا - مثلا - ان الاسلام قد اخذ التصوف عن الفرس ، واخذ الحكمة عن الهند ، والفلسفة عن اليونان ، وأن المسلمين العرب كانوا يعولون في خدمة دينهم - بل في خدمة لغتهم - على المجتهدين من سلالة الآريين ، وقد يزيد الغلو بهذه الفئة حتى تنكر دينها لانه تبشير رسول «يهودي سامي» كما يقولون عن السيد المسيح عليه السلام ، وبعضهم ينشئ لنفسه مراسم وشعائر كالمراسم والشعائر التي يتبعها اصحاب العبادات ويتدرعون بما يدعون من المزايا الجنسية لتسويغ سيادتهم على الغربيين انفسهم ، لانهم لم يحرروا عقولهم عن العبادات الشرقية او لانهم خالطوا الشعوب من غير السلالة الآرية الخالصة فلحقت بهم الهجنة في الانساب وفي الاخلاق .

هذه طائفة من ذوي النيات السيئة بين كتاب القرب . يؤلفون عن المسلمين العرب على التخصيص ومعظمهم ممن يدينون بالمذاهب الفاشية او النازية في السياسة والاجتماع .

رابعا - كتابات طائفة يشوب كتابتها الغرض كلما تحدثت عن البلاد الاسلامية بالضبط كما يشوبها نفس الغرض كلما تحدثت عن بلد غريب يتطلع القراء الغربيون الى سماع اخباره ، ويحبون ان توافق هذه الاخبار والاحاديث ما تخيلوه من اطواره واعاجيبه ، وهؤلاء الكتاب يسوقون كتاباتهم الى قراء ألف ليلة وليلة ورباعيات عمر الخيام ، ورحلات الرواد عبر القرون الوسطى وهؤلاء يحبون ان يسمعا خبرا غير الذي بالفونسه ويشبه ما تعودوه ، وهواهم كله الى الاحاديث الشرقية التي تعرض لهم شرقا في الواقع كالشرق الذي سبق ان قرأوا عنه في اساطير الخيال . وقد رأينا بعض كتاب الغرائب في القرن العشرين يجول بين ربوع البادية العربية فيزعم انه نزل بضيافة شيخ في الستين له في مضارب الخيام حوله ثلاثون زوجة ، وله من الابناء والبنات ما ليس يحصيه ، ورأينا غيره يزعم انه زار في العواصم الاسلامية بيوتا لا تفتح نوافلها وابوابها بالنهار ولا بالليل وبين جدرانها خليط من الزوجات والسراري لا يهتدين في الطريق بغير دليل من الخصيان . ولكن هؤلاء الغربيين المتخيلين بدأوا يشوبون شيئا فشيئا الى الاعتدال في رواية اخبارهم واعاجيبهم هذه عن الاسلام ورجاله بعد شيوع الصور المتحركة وانتشار المناظر الشرقية على

حقيقتها فيما تعرضه الشاشة البيضاء او تعرضه الصحف السيارة . ولم
تبق للمغربيين المتخيلين غير زاوية واحدة يملأونها بالاعاجيب والمدهشات
عن المسلمين الشرقيين وهي زاوية التاريخ والعصور التاريخية التسبي
يعمرونها بأبطال العصور الغابرة فيما يؤلفونه عن المسلمين ، من قصص
البيوت والحدود .

خامسا - خلو الميدان من الكتابات الاسلامية المقنعة لسببين :

الاول : عدم وجود مفكرين افذاذ مثل جمال الدين الافغاني باعث
النهضة الفكرية في الشرق او محمد عبده المجدد الاسلامي او غيرهما . ممن
يستطيعون الصمود امام هذه الهجمة الضارية والدفاع عن الاسلام بالحجة
والمنطق خاصة وان القائمين على امر الكتابات المفرضة كانوا في الاصل مفكرين
يخدمون السياسة الغالبة على دولهم فيصطفون لغة الدعاية تارة ، ولغة
الدبلوماسية تارة اخرى .

والسبب الثاني : هو في انصراف الادباء والمفكرين في ذلك الوقت
الى الكتابات السياسية والادبية . فمن الناحية السياسية نجد ان هذه
الفترة - عشرينات وثلاثينات هذا القرن - اجتاحتها ازمة سياسية
شاملة اطاحت بالدستور وفرضت على الناس دكتاتورية الاقليات
السياسية ، وعطلت الصحف ، وضيقت على الحريات . فضلا عما كانت
تعانيه البلاد آثما من ازمة اقتصادية . فانصرف كتاب هذه الفترة الى
السياسة . وها هو الاستاذ العقاد يصل به الامر الى ان يقف في مجلس
النواب عام ١٩٢٨ ليهدد رأس الملك بالسحق فيسجن تسعة اشهر ، مما
يؤكد ان كتاب هذه الفترة وادبائها شغلتهم السياسة واحداثها .

اما من الناحية الادبية فقد انصرف اغلب المفكرين والادباء الى النقد
والادب وما يدور حولهما من معارك كثيرة . . فقد كانت هذه الفترة احياء
للادب العربية اسوة بما حدث للادب الاوربية وهو ما عبر عنه الدكتور
طه حسين في تقديمه لكتاب «فجر الاسلام» وهو يبرر انصراف اغلب
الادباء والكتّاب والمفكرين عن الكتابة في الاسلام .

سادسا - اللياذ بالعبيدة الدينية خوفا من المذاهب التي تعتبر في
ذلك الوقت خطرة . وها هو الاستاذ العقاد يعبر عن ذلك في مقالة له
في روز اليوسف عام ١٩٣٥ يقول فيها :

(ان السبب العالمي الاكبر لهذه الظاهرة - اللياذ بالعبيدة الدينية -
هو فشل الفلسفة المادية في اقناع العقول وارضاء النفوس وطمأنة الضمائر
بعد احتياجها العالم زهاء قرن كامل ، واعتزاز الناس بها في غير طائل

وانتظارهم منها التعليقات والتفسيرات التي تصبوا في البحث عنها والرجوع بها الى الجاهدين المتقين وهم لا يفقهون بم يجيبون ولا يبيحون للناس أن يفقهوا ما يجهلون) .

(واما السبب الشرقي فهو اليقظة العربية واللياذ بالعبقيدة التي تعيد ذكرى المجد القديم ، وتحمي اصحابها من غارات أعدائهم في العصر الحديث ، ففي الحجاز وفي اليمن والعراق وسوريا وغيرها من البلدان الاسلامية كالهند والجزائر الآسيوية حديث عن الاسلام والعرب ، ورغبة دائمة في القراءة عن تاريخ المسلمين وزعماء الاسلام ومن كان قد اطلع على طرف من العلوم العصرية في ابناء هذه الاقطار المترامية فهو يشفق ان يرى الاسلام على هدي هذه العلوم ، وان يحكم الصلة بين زمانه وبين ما سلف من الازمنة) .

ويستمر الاستاذ العقاد في مقاله هذا الى أن يصل الى قوله: «يحيط بهذه الاسباب جميعا سبب شامل ذلك هو الفرع من الشيوعية والاعتصام منها بالمعائد الروحية التي لا تسيغ المذاهب المادية» .

سابعا - اجتذاب فريق من المسلمين المتعلمين السسى قراءة الكتب العربية بعد انصرفهم الى الكتب الاوربية حيث يلتصقون فيها حقيقة الاسلام اقتناعا منهم بأنهم لن يجدوها في كتب المسلمين بالعربية ، بعد ان تبينوا ان الزندقة - في نظر جماعة من العلماء المسلمين - تقابل حكم العقل ونظام المنطق وان الالحاد عندهم قرين الاجتهاد ، كما ان الايمان قرين الجمود . فاتجهوا الى الفلسفة واهملوا التفكير في الاديان كلها وفي الرسالة الاسلامية وصاحبها حرصا منهم على الاثور بينهم وبين دعاة الجمود حرب لا ثقة لهم بالانتصار فيها . هذا من ناحية ، ومن ناحية ثانية لم يدرك بعض المتعلمين من المسلمين في ذلك الوقت ضرورة الاتصال الروحي بين الانسان وعوالم الكون اتصالا يرتفع بالانسان الى ارقى مراتب الكمال ، وتتضاعف به قوته المعنوية . فاقترح ميدان الكتابة في الاسلام هؤلاء الخمسة مدركين أن عملهم هذا يفسد ما يبغيه الاستعمار من تأييد للطاعنين في الاسلام تحت اسم حرية الرأي ، وقصده في ذلك القضاء على الروح المعنوية بإضعاف الثقة في دين الامة مما يضر بها . . واي ضرر يصيب الامة بعد انصراف متعلميها الى كتابات عن الاسلام بأقلام غير المسلمين ؟

ثامنا - تحدي الحركة المحافظة . تلك التي عادت كل ما هو جديد في الفكر في النصف الاخير من القرن التاسع عشر والسنوات الاولى من

القرن العشرين .. حين كانت مصر تتجتاز مرحلة المخاض العسير لولادة فكر مصري متميز .. وهنا تمثلت قلة من ابناء مصر الموجة الغربية وبدات تعمل على تطوير الحياة المصرية يدفعها الى ذلك .. التحدي للاقاة هذه الحركة المحافظة التي اسفرت عن وجهها وهي تتجتاز صحوة الموت عن جمود اتسم بالعنف في مواجهة كتابات وافكار الشيخ محمد عبده في دفاغه عن الاسلام ، ودعوة قاسم امين لتحرير المرأة ، وفي موقفها المتعصب في كتابي «الشعر الجاهلي» للدكتور طه حسين و«الاسلام واصول الحكم» للشيخ علي عبد الرازق .

تاسعا - الاستقلال عن تركيا وبريطانيا كان تدعيما لاصحاب الآراء المتحررة المعتدلة ، مثل طه حسين والعقاد وهيكل واحمد امين وغيرهم ممن بدأوا يعملون على ايجاد فكر يحافظ على الاصيل من القديم الموروث؛ ويصل في نفس الوقت الى الجديد الاجنبي . وبمعنى آخر تناول تراثنا بأسلوب عصري جديد ولم يكن هناك أفضل من الاسلام من ناحية الاصاله لتناوله بأسلوب عصري جديد خاصة وان الدين اول ما يقصد بالحماية حين يخشى الناس عاقبة هذه الافكار الاوربية الوافدة التي ترى ان كل ما سبق من مسلمات وعقائد وافكار يجب ان يعاد بحثه وتمحيصه على الطريقة العلمية . وتطبيق الطريقة العلمية على الدين - وهو امر له جلاله وقداسته - كان بعد مغامرة خطيرة ؛ الا انها مغامرة كانت ضرورية وحتمية برغم خطورتها .. وما دامت هي ضرورية فالأفضل ان يقوم بهذه المغامرة من يعينهم امر هذا الدين وهم مفكرون وكتابنا من المسلمين قبل ان يقوم بها غيرهم ممن لا يمثل الدين عندهم أهمية في قليل او كثير .

عاشرا - رغبة الكتاب والادباء في ايجاد وسيلة لربط حاضر الاممة بماضيها .. وفكروا في ذلك كثيرا .. فاتجهوا الى الفرعونية يلتمسون فيها الامتداد الى الحاضر .. فلما لم يجدوا ذلك ممكنا .. اقتنعوا بان الاسلام هو الافضل من ناحية الامتداد الى الحاضر ومما يؤكد هذا الرأي قول الدكتور هيكل في مقدمة كتاب «حياة محمد» : «خيل الي كما خيل الى اصحابي ان نقل حياة الغرب العقلية والروحية سبيلنا الى هداية النهوض ، ولكن ما في الغرب غير صالح لان ننقله فتاريخنا الروحي غير تاريخ الغرب ، وثقافتنا الروحية غير ثقافة الغرب» .

ويمضي الدكتور هيكل في سرد ما بين الحياتين المصرية والاوربية من فروق ثم يقول : «وانقلبت الشمس في تاريخنا البعيد في عهد الفراعنة موثلا لوحى هذا العصر . ينشئ فيه نشأ جديدة فاذا الزمن ، واذا الركود

العقلي قد قطعاً ، ما بيننا وبين ذلك العهد من سبب قد لا يصلح بذرا
لنهضة جديدة فرايت أن تاريخنا الاسلامي هو وحده البذر الذي ينبت
ويثمر ففيه حياة تحرك النفوس وتجعلها تهتز وتربو . . .» .
ولهذا كانت محاولات هيكل وأصحابه في اعادة كتابة التاريخ الاسلامي
حتى يتم ربط حاضر الامة بماضيها .

حادي عشر - يحيط بهذه الاسباب والعوامل . . عامل شخصي
يتصل بالوراثة وظروف النشأة في اوساط اجتماعية تحترم الدين . .
فالخمسة يهتمون عند كتابة مذكراتهم الخاصة بأن يشيروا في شيء من
الاعتزاز بانهم حفظوا القرآن في طفولتهم . . كما حدثنا الدكتور طه في
«الايام» والدكتور هيكل في كتابه «مذكرات في السياسة» والدكتور أحمد
أمين في «حياتي» والاستاذ العقاد في كتابه «أنا» والاستاذ توفيق الحكيم
في كتابه «زهرة العمر» .

وهذا يعني ان للوراثة وظروف النشأة دخلا كبيرا في هذه الاهتمامات
بعد ذلك . وهذا ما يجلوه ويعبر عنه صراحة الاستاذ العقاد في مقدمته
لكتاب «فاطمة الزهراء» حيث يقول :

«ترد الاشارة الى الوراثة في مواضع شتى من هذه الصفحات التالية،
ونعول عليها في مناقشات شتى لتفسير بعض الاطوار ومنها اطوار
الجماعات او اطوار الحركات التاريخية .»

وأراني اهم بان اضرب المثل فابدا بنفسي وبائر الوراثة في كتابة هذه
الصفحات وكتابة كثير من الصفحات في الموضوعات الاسلامية . . .»

ويمضي الاستاذ العقاد في مقدمته هذه موضحا ومؤكدا في نفس
الوقت ان للوراثة وظروف النشأة اثرا فيما قدم بعد ذلك من الكتابة
في الاسلام .

ثاني عشر - تصادف وجود هذا الجيل . . الذي يمثل بعض افراد
معالم فكرنا العربي . . فقد وجد في وقت واحد الدكتور طه حسين
والاستاذ عباس محمود العقاد والدكتور محمد حسين هيكل والدكتور
أحمد أمين والاستاذ توفيق الحكيم وغيرهم ممن تشبعوا بالحضارة الغربية
سواء في مهدها كما حدث للدكتور طه حسين والدكتور محمد حسين
هيكل والاستاذ توفيق الحكيم حين سافروا الى باريس ، الاول لدراسة
الفلسفة والثاني لدراسة الحقوق والثالث لدراسة الادب ، او بالاطلاع على
هذه الحضارة من خلال الكتب الوافدة كالاستاذ العقاد والدكتور
أحمد أمين .

وجود الخمسة جنباً الى جنب في عصر واحد ضمن للتجزية اكبر قدر من النجاح . . نعتني بالتجربة اعادة كتابة التاريخ الاسلامي وفقاً للمناهج العلمية الحديثة . فالخمسـة كان يجمعهم – على الرغم من الخصومات التي كانت بينهم – أسلوب عمل واحد هو التجديد المبني على الأسلوب العلمي . وهذا في حد ذاته كان يعصمهم من هجمات دعاية الجمود وأنصاره .



لهذه الاسباب وغيرها فكر الخمسة تفكيراً جدياً في اعادة كتابة التاريخ الاسلامي مستخدمين الادوات الغربية في البحث .

وكانت الخطوة الاولى تقريباً في هذا المشروع عندما اتفق الدكتور طه حسين مع الدكتور أحمد أمين والأستاذ عبد الحميد العبادي على كتابة التاريخ الاسلامي من فجر الاسلام حتى آخر عصر الدولة الاموية . بحيث يختص كل منهم بجانب من هذا البحث فاخص الدكتور طه حسين بالحياة الادبية في الاسلام والدكتور أحمد أمين بالحياة العقلية والأستاذ عبد الحميد العبادي بالحياة السياسية .

وفي نفس الفترة تقريباً بدأ تفكير الدكتور محمد حسين هيكل يتجه للكتابة في الاسلام وها هو يشير الى ذلك في كتابه «حياة محمد» فيقول: «كان من أثر هذه الحركة التبشيرية وموقفي منها أن دفعني للتفكير في مقاومتها بالطريقة المثلى التي توجب علي أن أبحث حياة صاحب الرسالة الاسلامية ومبادئه بحثاً علمياً ، وأن أعرضه على الناس عرضاً يشترك في تقديره الجميع . .» .

ثم يقول انه سأل عن كتب اوروبية كتبت عن حياة صاحب الرسالة فذكر أحدهم كتاب المفكر الفرنسي «أميل درمنجم» عن «حياة محمد» ولم البث أن اقتنيته وعكفت على مطالعته حتى فرغت منه ثم بدأت أنشر عنه بحثاً في السياسة الاسبوعية . فلما ظهر العدد الاول عام ١٩٣٢ تخاطفه الناس تخاطفاً حتى لقد طلب الباعة ضعف العدد الذي طبعناه فشجعني ذلك على المضي في بحثي وعلى الاستزادة منها . .

ويظل الدكتور هيكل في متابعته للبحث عن صاحب الرسالة ثلاث سنوات بعدها يصدر كتابه «حياة محمد» وتتوالى مؤلفاته الاسلامية .
والاستاذ الحكيم الذي بدأت اهتماماته بهذا الجانب حين كان بباريس

واطلع على العديد من كتب الاسلام بأقلام غير المسلمين . وكانت هذه الكتب كلها هجوم وافتراء على الاسلام ونبيه الكريم . وهنا فكر في الرد على هذه الكتابات وفي مقدمتها «محمد» لفولتير فكتب بحثا كبيرا في شكل تمثيلي في الرسالة بمناسبة ذكرى الهجرة . سرعان ما تحول الى كتاب «محمد الرسول البشر» .

وها هو عملاق الفكر العربي ، وصاحب العدد الاكبر من الكتب الاسلامية الاستاذ عباس محمود العقاد يحدثنا عن اللحظة التي بدأ فيها في التفكير للاسلام . . فيذكر انه بعد وقعة حدثت اثناء مناقشة قامت بينه وبين عدد من اصدقائه لما كتبه «توماس كارليل» عن النبي في كتابه «الابطال» وكيف ان احدهم تطاول بالحديث على شخص النبي الكريم فأساء الى مشاعر الحاضرين الامر الذي جعلهم يجبرونه على الخروج من مجلسهم . أعقب ذلك حديث بين الاصدقاء نقله من كتاب «عبقريّة محمد» والحديث هو :

«ما بالنّا نقتع بتمجيد كارليل للنبي وهو كاتب غربي لا يفهمه كما نفهمه ، ولا يعرف الاسلام كما نعرفه . ثم سألني - الحديث للعقاد - بعض الاخوان : ما بالك انت يا فلان لا تضع لقراء العربية كتابا عن محمد على النمط الحديث ؟» قلت أفعل وأرجو أن يتم ذلك في وقت قريب» .
وبالفعل بر الاستاذ العقاد بوعده . . فكانت بداية الاربعينات بداية لهذا السيل - الذي لم ينقطع حتى وفاته - من الكتابات الاسلامية العجادة .



وهكذا نرى انه كانت هناك دوافع واسباب لاتجاه كتابنا الخمسة (طه حسين ، ومحمد حسين هيكل ، وأحمد امين ، والاستاذ العقاد ، والاستاذ توفيق الحكيم) الى الكتابة عن الاسلام .



الفصل الثاني

الإسلاميات طه حسين

بإسلامياته استطاع الدكتور طه حسين أن يقدم نفسه على أنه هذا المزيج القوي بين حضارتين مختلفتين : « حضارة الشرق » و « حضارة الغرب » ، وأنه العصاراة الطيبة بين مهديين مختلفين أيضاً : «الأزهر الشريف» و «جامعة باريس» . واستطاع أن يؤكد للناس أن أصوله ما برحت راسخة في حضارة الإسلام تستخلص منها عناصر غذاء لا غنى للناس عنه .

لم يكن الدكتور طه حسين اول من قدم للمكتبة العربية كتابا فسي
الاسلام فقد سبقه الى ذلك الدكتور احمد امين حين قدم كتابه الاول
«فجر الاسلام» عام ١٩٢٨ بينما هو قدم كتابه الاول «على هامش السيرة»
عام ١٩٢٣ ، ولم يكن الدكتور طه حسين صاحب العدد الضخم مسن
المؤلفات الاسلامية بين اصحاب الاسلاميات فقد فاقه في ذلك الاستاذ
عباس محمود العقاد الذي اقتربت مؤلفاته الاسلامية من الثلاثين مؤلفا
بينما نجد عدد كتب الدكتور طه حسين في الفكر الاسلامي لا تزيد عن
الثمانية ، كذلك لم يكن الدكتور طه حسين متميزا باستخدامه الادب في
تناول التاريخ الاسلامي فالخمس في الاصل كانوا ادباء وكان لذلك اثر
في كتاباتهم للتاريخ .

وعلى الرغم من هذا كله .. الا انه حين يذكر من كتبوا في الاسلام
ويؤرخ لهم نجد اسم الدكتور طه حسين في المقدمة . ولا عجب في ذلك
فللدكتور طه حسين فضل كبير في مشروع اعادة كتابة التاريخ الاسلامي
شبهه بفضل في بقية جوانب حياتنا الثقافية والاجتماعية .

وفضل الدكتور طه حسين في كتابة تاريخ الاسلام يرجع الى ذلك
اليوم الذي دعا فيه صديقيه الدكتور احمد امين ، والاستاذ عبد الحميد
العبادي الى ان يقوم الثلاثة بكتابة الحياة الاسلامية ، كل يتناول منها
جانبا على ما رأينا فيما سبق من حديثا .

ومن هنا .. من مبادرته هذه ، ومواصلته في الكتابة الاسلامية ذات

الطابع المميز . . كان اسم الدكتور طه حسين يقفز في المقدمة عند الحديث عن أصحاب الإسلاميات .

والدكتور طه حسين حين اراد الاسهام مع صاحبه الدكتور أحمد أمين وعبد الحميد العبادي في كتابة التاريخ الاسلامي اختار لنفسه جانباً يجيده ويتقنه وهو جانب الحياة الادبية في الاسلام .

وإذا كان الدكتور طه حسين لم يحدد المنهج في تناوله للمادة التاريخية على عادة ما يفعل المؤرخون في كتاباتهم فلا بد من القيام بعملية استنباط لهذا المنهج من كتاباته ومما كتب عنه من دراسات .

كلنا نعرف ان شخصية الدكتور طه حسين تميزت منذ البدايات بسمتين واضحتين ، فهو أديب فنان الى جانب انه ناقد حساس . ومعنى هذا ان شخصيته تجمع فنية الادب ، وحساسية النقد .

ولما كان التاريخ حسب التعريف القديم الصحيح هو في مجموعه علم من العلوم او بالاحرى نوع من النقد والفن . فمن الواضح ان جانباً كبيراً لا يستهان به من انتاج الدكتور طه حسين الادبي العظيم يدخل في نطاق التاريخ .

والحق ان ما كتبه الدكتور طه حسين ايام شبابه عن الشعر العربي الجاهلي او الاسلامي ، وعن بلاد اليونان القديمة في مظاهرها الاجتماعية والادبية والدينية ، او ما كتبه بعد ان بلغ سن النضوج وخصه لاصول الادب العربي القديم وتطوره وما كتبه عن مشاكل التعليم والثقافة في العالم العربي المعاصر يعتبر في جوهره نوعاً من التاريخ .

حتى ما جادت به قريحته من ابداع في ذكرياته الحميمة والتي تضمنتها اجزاء كتاب «الايام» تعتبر نوعاً من التاريخ برغم ان ابداعه الفني في كتابتها يجعل القارئ ينسى انه يقرأ صفحات من التاريخ .

والدكتور طه حسين اختار جانب الحياة الادبية في الاسلام . . وهو الجانب الذي يجيده ويتقنه ، ولكنه برغم هذا كان مؤرخاً حين تناول بالدراسة السيرة النبوية في كتاب «على هامش السيرة» وكان مؤرخاً في ترجمته للخلفاء الراشدين الاربعة «ابو بكر وعمر وعثمان وعلي» ، وكان مؤرخاً ايضا حين تناول بالدراسة المجتمع الاسلامي بعد الرسول في كل من «مرآة الاسلام» و«الوعد الحق» .

وإذا توصلنا الى ان الدكتور طه حسين مؤرخ فلا يبقى امامنا الا البحث في تفاصيل أسلوبه ومنهجه كمؤرخ . فهو حين اختار الحياة الادبية في الاسلام فمعنى هذا انه يريد ان ينظر الى التاريخ الاسلامي

نظرة الاديب الفنان الذي تجذبه وتؤثر فيه الصورة الجميلة . ولعل هذا ما اراد قوله صراحة حين قدم الجزء الاول من هذه الاسلاميات وهو كتاب «على هامش السيرة» حيث يقول :

«الى هذا النحو من إحياء الادب القديم ، ومن إحياء ذكر العرب الاولين ، قصدت حين املت فصول هذا الكتاب ولست أريد ان اخذع القراء عن نفسي ولاعن هذا الكتاب ! فاني لم أفكر فيه تفكيراً ، ولا قدرته تقديراً ، ولا تعمدت تأليفه وتصنيفه كما يعتمد المؤلفون ، انما دفعت الى ذلك دفعا ، اكرهت عليه اكراما ، ورايتني اقرا السيرة فتمتلئ بها نفسي ويفيض بها قلبي ، وينطلق بها لساني ، واذا انا املئ هذه الفصول وفصولا أخرى أرجو ان تنشر بعد حين .

فليس في هذا الكتاب اذا تكلف ولا تصنع ، ولا محاولة للاجادة ولا اجتناب التعقيد ، وانما هو صورة لسيرة طبيعية صادقة لبعض ما اجد من الشعور حين اقرا هذه الكتب التي لا اعدل بها كتبا أخرى مهما تكن، والتي لا امل قراءتها والانس اليها ، والتي لا ينقصني حبي لها واعجابي بها ، وحرصني على ان يقرأها الناس .» .

بهذه العبارة يحدد الدكتور طه حسين - ضمينا منهجه في البحث التاريخي . فمن يقرأه يدرك على الفور انه امام اديب مؤرخ . . يحس فيتصور مما يحس صورة ، هي من جوهر التاريخ لا من تفصيله ، وهي لب ما في التاريخ الذي نحب ان نتمثله جميعا ليكون لنا فيه جميعاً الصورة المشتركة ، اما ما بعد ذلك مما تزخر به كتب التاريخ العامة فهو للخاصة ولمن اراد مزيدا من علم ومزيدا من رأي .

والدكتور طه حسين كفنان مؤرخ لديه مقياس يقف بتاريخ الادب ودراساته بين العلم والفن ، بحيث لا يفرق مؤرخ الادب في العلم اغراقا من شأنه ان يصيب بحوثه التاريخية الادبية بالجفاف .

وبحيث لا يفرق في الفن اغراقا من شأنه ان يفني الشخصيات في ذاته وشخصيته . بل هو يتخذ في تناوله المادة الاسلامية طريقا وسطا بين العلم والفن ، بين التاريخ والادب . . طريقا تتفق فيه علوم اللغة والصرف والنحو والبيان والتاريخ . ومناهج البحث الادبي في استكشاف الظواهر وحقائق النصوص الادبية . مع ما ينبغي له من الحس الدقيق المرهف ، والدوق المهذب المصفى ، بحيث تتجلى شخصيته فيما ينشر من أحكام وآراء ، وفيما يصور من مواطن الجمال الفني في الآثار الادبية والتاريخية المختلفة .

وعلى هذا الأساس وضع د. طه حسين لنفسه ، ولمدرسته التي اخذ طلابها ينشئون على مثاله ، الاصول التي ينبغي ان تبدو عليها دراساتهم وهي اصول ترد الى جانبين :

١ - جانب علمي يتصل بفحص المادة التاريخية وتحقيقها واستنباط دلالتها مع دقة التفسير والتعليل والتحليل ، ومعرفة الظروف التي احاطت بها والمؤثرات المختلفة التي اثرت في منشئها وبيان الصلات بينهم وبين محيطهم وبيئاتهم وعصورهم .

٢ - جانب فني يتصل بنقد هذه المادة التاريخية وتصوير شخصيات اصحابها ، وما تحدث في نفس قارئها من لذة . وهو الجانب الذي يحيل التاريخ الى عمل أدبي ممتع يلد العقل والشعور اذ نرى من خلاله خصائص المؤرخ التسجيلي فشخصيته كأديب تبدو من خلال كتاباته للتاريخ حين ينفث فيه من روحه ونظرتة وفكرته ، ويجمله بأسلوبه ، ويلتقط جوانب يطويها سرد المؤرخ التسجيلي .

والى جانب فحص المادة التاريخية ثم نقدها تبدأ عملية صياغتها من جديد وهو حين يقوم بصياغة مادته يستخدم المنهج الاجتماعي ، وخاصة اذا كانت هذه المادة التاريخية حول اشخاص .

ونستطيع ان نستدل على منهج الدكتور طه حسين من عبارته هذه التي كانت ضمن ما كتبه لتقديم «قادة الفكر» فهو يقول : «الفرد ظاهرة اجتماعية ، وليس من البحث القيم العلمي في شيء ان تجعل الفرد كل شيء وتمحو الجماعة التي انشأته وكونته محوا ، انما السبيل ان تقدر الجماعة ، وان تقدر الفرد ، وان تجتهد ما استطعت في تحديد الصلة بينهما وفي تعيين ما تطلبهما من اثر في الآداب والآراء الفلسفية والنظم الاجتماعية والسياسية المختلفة . . .» .

بهذا المنهج الذي بشر به الدكتور طه حسين عام ١٩٢٥ درس الادب العربي وأعاد تقييمه من جديد ، ثم درس المجتمع الاسلامي ورجاله . فقدم لنا «على هامش السيرة» في ثلاثة أجزاء ، «الفتنة الكبرى» في جزئين ، «الشيخان» و «الوعد الحق» و «مرآة الاسلام» .

على هامش السيرة

حين شرع الدكتور طه حسين في التاريخ لحياة الاسلام الادبية كان

هدفه الاول هو تنقية المادة الاسلامية مما يتداخل معها من المواد الاخرى من العلوم والفنون ، وتبسيط هذه المادة بالقدر الذي لا يفقدها معناها ، واخيرا تسهيل وصولها الى متناول الايدي بدلا من خزنها في المكتبات ، لذلك نراه يقدم كتابه الاول «على هامش السيرة» بقوله : «هذه صحف لم تكتب للعلماء ولا للمؤرخين . لاني لم ارد بها الى العلم ، ولم اقصد بها الى التاريخ . وانما هي صورة عرضت لي اثناء قراءتي للسيرة فائيتها مسرعا ، ثم لم ار بنشرها باسا . ولعلي رايت في نشرها شيئا من الخير، فهي ترد على الناس اطرافا من الادب القديم قد افلنت منهم وامتنعت عليهم ، فليس يقرأها منهم الا اولئك الذين اتبحت لهم ثقافة عميقة في الادب العربي القديم وانك لتلتمس الذين يقرأون ما كتب القدماء في السيرة وحديث العرب قبل الاسلام فلا تكاد تظفر بهم» .

فالغرض اذن من كتابة الدكتور طه حسين للسيرة هو ان يقرب هذه السيرة من خلال الاسلوب المبسط من الناس بعد ان باعدت الاساليب المعقدة بين السيرة والناس . والدكتور طه حسين لا يشك لحظة فني قيمة ما سيقدمه من عمل بعد ان اكتشف ان الذين يقرأون السيرة من القلة بحيث يعد الانسان نفسه ظافرا لو وجدهم في هذا الزمان الذي يقرأ فيه الناس لمعاصرين تشيع البساطة والسهولة في كتاباتهم . يقول الدكتور في نفس المصدر : «انما يقرأ الناس اليوم ما يكتب لهم المعاصرون في الادب الحديث بلقمتهم او بلغة اجنبية من هذه اللغات المنتشرة في الشرق، يجدون في قراءة هذا الادب من اليسر والسهولة ، ومن اللذة والمتاع ، ما يفرحون به ويرغبون فيه» .

وتلك رسالة الدكتور طه حسين وزملائه عندما شرعوا يكتبون الحياة الاسلامية في جوانبها الثلاثة . ان يقدموا هذه الحياة الاسلامية بأسلوب جديد ، ونظرة عصرية تتفق مع سمات هذا النصر ، حتى يستطيعوا جذب اكبر عدد من المثقفين الى القراءة . . وخاصة تلك القراءة التي تهتم بالاسلام دينا ودولة ورجالا . كانت مهمته ان يغربل هذه المادة الموجودة في بطون الكتب والمتون والاسانيد وتقديمها بعد ذلك في أسلوب جديد يقرأه الجميع من الشباب وغير الشباب . وان كان الدكتور طه حسين قد خص بالاهتمام الشباب على اعتبار انهم الامل المرتقب للبلاد حيث قال في معرض الحديث عن كتاب «على هامش السيرة» : «فاذا استطاع هذا الكتاب أن يحيي إلى الشباب قراءة كتب السيرة خاصة ، وكتب الادب العربي عامة ، والتماس المتاع الفني في صحفها الخصبة فانا سعيد حقا،

موفق حقا لأحب الأشياء اليّ ، وأثرها عندي ..» .
وإذا استطاع هذا الكتاب ان يلقي في نفوس الشباب حب الحياة العربية الاولى ويلفتهم الى ان في سداجتها ويسرها جمالا ليس اقل روعة ولا نفاذا الى القلوب من هذا الجمال الذي يجدونه في الحياة الحديثة فالدكتور طه حسين سعيد موفق لبعض ما اراد .
وإذا استطاع هذا الكتاب ان يدفع الشباب الى استغلال الحياة العربية الاولى واتخاذها موضوعا قيما خصبا لا للفتاح العلمي في التاريخ والادب الوصفي وحدهما بل كذلك للنتاج في الادب الانشائي الخالص فهو سعيد موفق لبعض ما اراد .
وإذا استطاع كتاب «على هامش السيرة» ان يلقي في نفوس الشباب ان القديم لا ينبغي ان يهجر لانه قديم ، وان الجديد لا ينبغي ان يطلب لانه جديد ، وانما يهجر القديم اذا برىء من النفع وخلا من الفائدة ، فان كان نافعا مفيدا فليس الناس اقل حاجة اليه منهم الى الجديد فالدكتور طه حسين سعيد ايضا وموفق ايضا لما اراد .
وفي اعتقاد الدكتور طه حسين انه لو قرب الى الناس فهم تاريخهم الاسلامي يكون قد افاد واثمر ويكون بالفعل قد احيا الادب القديم .
وينوء الدكتور طه الى ان ادبنا القديم يكفل للناس قدرة على الوحي، وقدرة على الالهام . ونفس الشيء في السيرة فقد الهمت الكتاب والشعراء في اكثر العصور الاسلامية ، فصوروها صوراً مختلفة متفاوتة . وهو لذلك يمهّد لاستخدام الخيال في سرد بعض الاحداث راجيا الا يتضايق دعاة العقل .
ونمضي مع الاحداث على لسان الدكتور طه حسين التي يستند بعض احاديثه عنها على التاريخ وينسج الخيال اكثر ما فيها . فهي كما يقول الدكتور طه حسين ليست كتابا في السيرة وانما هي اثر من آثار قراءة السيرة كما تلقته روح طه حسين المبدعة وتصورت في خياله الخصب المثقف .
وتدور أحداث «على هامش السيرة» ما بين اليونان والشام والعراق وفارس واليمن والجزيرة العربية ومصر والحبيشة ومعها يمضي ميلاد عظيم يتأهب له العالم وينسعى لرؤيته واستقباله ونيل الخلاص عسى يديه . وسوف نرى شبانا يونانيين وثنيين ما زالوا يلفظون سرا بوثنيتهم الأفلة بعد ان انتشرت المسيحية في بلادهم واصبحت دين القيصر والدولة وعمامة الناس ، وسوف نرى شبانا مسيحيين يخرجون من بلادهم بحثا عن

الدين الجديد يلتمسونه فيما حولهم من بلاد وثقافات ومنها هذه البلاد الصحراوية البعيدة التي لا يعرف سلطان القيصر طريقه اليها ، فيصل بعضهم ويموت آخرون دون الغاية ، وسوف نجد مثلهم شبانا عربا وثنيين يخرجون من بلادهم الى الشام وبيزنطة من اجل هذه الغاية نفسها فيصبح بعضهم نصارى بيزنطيين ويعود بعضهم الى الوطن يبشرون بشيء من المسيحية حتى يقدر لهم ان يشهدوا الحق في ميلاده العظيم .

ربما التقينا مرة اخرى دون أن ندري ونحن نتجول في ربوع الشام والعراق بذلك الفتى الفارسي عبدا كهلا في يثرب ، وكان قبل استرقاقه شابا تقيا عرف النصرانية فتنصر وخرج من أصفهان الى العراق . والشام طلبا لليقين فاذا هو يتنقل بين الكنائس والاديرة والصوامع فيتتلمذ على ايدي قسس ورهبان يدلونه على مطلع النور في جزيرة العرب فيشدد رحاله اليها مع تجار يغدرون به في الطريق ويبيعونه ليهودي من بنسي قريظة في يثرب فيستعبد بها ويظل حتى يأتي محمد مهاجرا فيصبح من اقرب صحابته . وسوف نرى تاجرا اسكندرانيا ينتهز فرصة غضب القيصر لما لقيه مسيحيو نجران في اليمن في اضطهاد الملك اليهودي «ذي نواس» فيجهز أسطولا ليبحر به جنود النجاشي المسيحي حليف القيصر البيزنطي الى اليمن حتى يثاروا لآخوانهم في الدين ويفتحوا الطريق لتجارة الروم الى قلب الجزيرة العربية ، ويصل الى اليمن ويصحب جيش أبرهة الى مكة ليهدم الكعبة وهناك يرى ما لم يكن يتصور ، يرى الطير الأبايل وهي تمطر الجيش بحجارة من سجيل فتجعله كعصف مأكول ، عندئذ يعلم ان لهذا البيت شأنًا ويترك تجارته ويتخلى عن ثروته ويدخل ديرا في اطراف الشام على طريق مكة منتظرا ما سوف يكون من الامر العظيم في بلاد العرب ولم يكن يعلم بالطبع ان حدثا خطيرا قد وقع وهو في مكة يشهد اندحار جيش أبرهة وان صاحب الرسالة التي ينتظرها العالم قد ولد في نفس العام ، عام الفيل ، وسوف نستمع الى حديث «البناء» القبطي الذي شارك في بناء الكعبة حين أعيد بناؤها على عهد محمد كما شارك فسي البناء محمد نفسه حين وضع بيده الحجر الاسود فسي مكانه بالكعبة كما سنرى ونسمع كثيرين ممن عاصروا ميلاد الحق العظيم او جاءوا قبله بقليل او بعده بقليل ، وسنرى النبي الكريم منذ ان كان يتيما تعطف عليه اكرم الحواضن الى ان كان راعيا للغنم ، الى ان صدع بأمر الدعوة الاسلامية فلقى فيها عداوة المعادين وحسد الحاسدين ، وسنرى كيف ان النبي لا يلقي المعادين بما يكرهون ، ويدعوهم الى كلمة

الحق ويامرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، وحين يقدم المجتمع العربي القديم في الحجاز قبيل الدعوة المحمدية وفي اثنائها ، والصراع بين الحق والباطل ، والحرب بين الصلاح والفساد حتى يتم على يدي صاحب السيرة النصر ودخول الناس في دين الله أفواجا .

والدكتور طه حسين يروي لنا كل ذلك في احاديث منفصلة بتباعد المدن والسنوات حتى تتجمع في النهاية خيوط احاديثه وشخصياته في مكة او في يثرب او في غيرها من المدن والبلاد التي شهدت ظهور الرسالة الجديدة او كان لها شأن في تاريخها .

الفتنة الكبرى

حين تصدى الدكتور طه حسين للكتابة عن الفتنة الكبرى . . اول فتنة في الاسلام تلك التي انقسمت الدولة الاسلامية بعدها وظلت منقسمة حتى الان . . عندما تصدى للكتابة عنها كان يعلم جيدا ان ادق فترة في التاريخ الاسلامي هي تلك الفترة التي تلت مقتل عثمان ابن عفان . ففيها انتهكت الحرمات ، وقضي فيها على سنتة الخلافة الراشدة . والباحث في قصة الفتنة الكبرى يقابل الكثير من الصعوبات والعراقيل لاختلاف وجهات النظر التي تناولت هذا الموضوع بالذات .

فلمؤرخين القدامى والمعاصرين آراء متباينة في هذه الفتنة الكبرى . منهم مثلا من يستبد به الهوى لال البيت وللإمام علي فيناصره ويتعاطف معه ويكون ذلك على حساب المنهج العلمي الذي يتطلب من البحث دقة وموضوعية .

ومنهم من ينحاز الى معاوية فينحي باللائمة على الامام علي لتخليه عن سياسة الفتح وانشغاله بحروب داخلية في عضد المسلمين وفتح الباب لكي تدخل الضغائن والاحقاد والثورات في قلب الدولة الاسلامية الفتية .

وولج الدكتور طه حسين هذا الميدان فكان المؤرخ المنصف السدي يعرض الاحداث مجردة عن كل عصبية او هوى فقدم للقارئ مادة وافية دقيقة موضوعية عن تاريخ هذه الفترة بشتى ملابساتها . . فهو حين يحدثنا عن شخصية عثمان رضي الله عنه او علي كرم الله وجهه لا يكتفي بان يقدمهما كخليفتين للمسلمين دون دراسة الوسط الاجتماعي الذي ادى

الى ما حدث في عهد كل منهما ، والذي انتهى بمقتلها في النهاية .
ومنذ البداية نلاحظ ان الدكتور طه حسين لا يتقيد بالترتيب الزمني
في تاريخه للاسلام ولهذا نجده يعقب السيرة بكتابه «الفتنة الكبرى» في
عهد عثمان وعلي رضي الله عنهما . مع انه كان ينبغي ان يعقبها بأبي بكر
وعمر رضي الله عنهما .

ويحدثنا الدكتور طه حسين عن الخليفين اللذين حدث في عهدهما
انقسام الامبراطورية الاسلامية انقساماً ما زال ماثلاً حتى اليوم ، واللذين
ورثا عن سلفيهما ابي بكر وعمر اكبر امبراطورية في التاريخ ويحدثنا عن
اكبر موقف محرج واجهه خليفة لرسول الله وذلك حين قتل ابن عمر
ثلاثة انتقاماً لمقتل ابيه عمر بن الخطاب . والموقف المحرج هو هل يقبر
الخليفة عثمان بن عفان هذا التصرف فيبيح دم المسلم ام لا يقره فيقتض
من ابن امير المؤمنين المقتول ؟ ولا يجد عثمان خيراً من دفع دية من ماله
الخاص حقناً للدماء :

ثم يحدثنا حديثاً مستفيضاً عن نظام الحكم في الدولة الاسلامية
والذي أسماه «بالنظام العربي المبتكر» وهو لم يكن بحال من الاحوال
«تيوقراطيا» ولا «ديمقراطيا» ولا «فرديا» ولا «ملكيا» او قيصريا . .

كذلك يحدثنا عن اول فتنة في الاسلام وأول معارضة ، وعن مقتل
عثمان رضي الله عنه ، ويقرر ان مقتل عثمان كان جريمة ، وكان فتنة
كبرى بين المسلمين اختصم لها فريق وانتصر لها فريق ونتج عن هذه
الخصومة ما لا يزال يفرق شمل المسلمين الى يومنا هذا .

وكانت هذه الفتنة الكبرى في رأي الدكتور طه حسين امراً لا مفر
منه سواء اكان الخليفة عثمان او غير عثمان . لانها لم تكن مسألة عثمان
رضي الله عنه ، وانما كانت مسألة العدل الاجتماعي بين الرعية التي
يتولى الرعاية امرها .

**ان الجزء الاول من الفتنة الكبرى وهو الخاص بعثمان بن عفان ليس
تاريخاً لولاية عثمان او مقتله بقدر ما هو دراسة لنظام الحكم الاسلامي
وعناصره وبيان لاستغلال النفوذ الذي حازبه الخليفة عمر ابن الخطاب .
فهي اذن ليست صورة لفرد وانما هي صورة متكاملة للعوامل والتيارات
التي كان يهوج بها عصر الخليفة الشهيد . وهذا هو ما يعنيه الدكتور
طه حسين من تطبيقه منهجه الاجتماعي في الكتابة الاسلامية .**

ويعقب مقتل عثمان والمصحف بين يديه والثوار في داخل السدار
وخارجها صورة رائعة . . والصورة لا تحفل كثيراً بعلي كرم الله وجهه .

لا تحفل به كرجل الساعة . . وانما تهتم هذه الصورة بأمر المسلمين بعد هذه الحنة .

وكيف ان هؤلاء المسلمين يواجهون مشكلة الخلافة من ناحية، ومشكلة استقرار نظام الحكم من ناحية اخرى وهو حين يحدثنسا عن هاتين المشكلتين يقول : «واجه المسلمون إثر قتل عثمان رحمه الله مشكلتين من اخطر ما عرض لهم من المشكلات منذ خلافة ابي بكر ، احدهما تتصل بالخلافة نفسها والثانية تتصل بإقرار نظام الحكم فقد أمسى المسلمون يوم قتل عثمان وليس لهم إمام يدبر لهم أمورهم ويحفظ عليهم نظامهم وينفذ فيهم سلطانهم ويقيم فيهم حدود الله ويرعى بعد هذا كله أمور هذه الدولة الضخمة التي أقامها ابو بكر وعمر ، وزادها عثمان سعة في الشرق والغرب . فهذه البلاد التي فتحت عليهم ولم يستقر فيها سلطانهم بعد ان كانت في حاجة الى من يضبط أمرها ويحكم نظامها ويبعد حدودها التي لم تكن تثبت الا لتتغير لاتصال الفتح منذ نهض ابو بكر بالامر الى ان كانت الفتنة وشغل المسلمون بها او شغل فريق من المسلمين بها عن الفتوح» .

ولا شك ان مقتل عثمان بن عفان قد اعتبر صدمة في جسم الأمة الاسلامية والمشكلة هي كيف يراب هذا الصدم بما يحقق للمسلمين وحدتهم واتفاق كلمتهم ؟ هذه هي المشكلة الحقة . وهي اول ما يقابل علي بن ابي طيب كرم الله وجهه بعد توليه الخلافة حتى ان المسلمين لسم استقبلوا خلافة علي بمثل ما استقبلوا به خلافة عثمان من رضى النفوس وابتهاج القلوب واطمئنان الضمائر واتساع الامل وانبساط الرجاء وانما استقبلوا خلافته في كثير من الوجوم والقلق والاشفاق واضطراب النفوس واختلاط الامور ، لا لان عليا كرم الله وجهه كان خليقا ان يثير فسي نفوسهم وقلوبهم شيئا من هذا بل لان ظروف حياتهم قد اضطرتهم الى هذا كله اضطارا .

وعنيد الادب العربي يصور لنا موقف المسلمين غداة تولية علي بن ابي طالب الخلافة تصويرا جميلا مدعما بالاسباب المقنعة فيقول :
«ليس قريبا اذن ان يستقبل المسلمون خلافة علي ووجوههم عابسة وقلوبهم خائفة ونفوسهم قلقة ، ويزيد في هذا الصبوس والخوف والقلق ان الثائرين الذين قتلوا عثمان كانوا ما يزالون مقيمين بالمدينة متسلطين عليها ، حتى كان الخليفة الجديد ومن بايعه من المهاجرين والانصار لم يكونوا في ايديهم الا اسارى وآية ذلك ان الخليفة لم يستطع ان يمضي في

تحقيق ما أصاب عثمان وما أصاب المسلمين من كارثة الفتنة لانه لم يجد القدرة على هذا التحقيق وكان المسلمون من اهل المدينة يعرفون مكان العمال الذين أمرهم عثمان على الامصار ، ويقدرّون انهم جميعا او ان بعضهم على الاقل سينكرون الخلافة الجديدة ويجادلون الخليفة فسي سلطانه . . غضبا لعثمان الذي ولاهم ، وكانوا يخافون من هؤلاء العمال بنوع خاص معاوية بن ابي سفيان عامل عثمان على الشام» .

وتمر الاحداث حادة مثيرة ، فالخلافات مستمرة بين علي وخصومه واولهم معاوية بن ابي سفيان ذلك الذي قدر الناس انه لن تستقيم بينهما الامور في يسر ولين وتكون النهاية الحزينة بمقتل رابع الخلفاء الراشدين كما قتل ثالثهم من قبل وتنتهي الخلافة الراشدة وتنتهي هذه الفتنة التي شبت نارها في المدينة سنة خمس وثلاثين بقتل عثمان بن عفان الى هذه المرحلة من مراحلها بعد ان اتصلت ثلاثين عاما وبعد ان اثارّت من الخطوب الجسام وبعد ان سفك فيها ما سفك من الدماء وازهق فيها ما ازهق من النفوس وانتهك فيها ما انتهك من الحرمات وقضي فيها على سنّة الخلافة الراشدة ، وتفرق فيها المسلمون شيعة واحزابا، وأسس فيها ملك عنيف لا يقوم على الدين وانما يقوم على السياسة والمنفعة ، وكان يظن حين استقام امر هذا الملك لمؤسسه عشرين عاما انه سيمضي في طريقه وادعا مطمئنا مستقرا في بني سفيان دهرا على اقل تقدير ولكنه لم يستقر فيه الا ريثما تحول عنه .

ثم لم يتحول عنهم في يسر ولين لان الفتنة لم تنقض بموت يزيد وانما قطعت مرحلة من مراحلها ثم استأنفت عنفها وشدتها بعد موت يزيد ، فعرضت المسلمين ودولتهم لخطوب ليست اقل جساما من الخطوب التي حدثت قبل ذلك .

وقد أصبح للمسلمين مثل بعينه من هذه المثل العليا الكثيرة التي دعا اليها الاسلام وجعلت الفتنة تدور حول هذا المثل الاعلى لتبلغه فلا تظفر بشيء مما تريد . وانما تسفك الدماء وتزهق النفوس وتنتهك المحارم وتفسد على الناس امور دينهم ودنياهم وهذا المثل الاعلى هو العدل الذي يملأ الارض وينشر فيها السلام والعافية ، والذي تقطعه من اجله اعناق المسلمين قرونا متصلة دون ان يبلغوا منه شيئا حتى استيأس من قرينه بعض الشيعة ولم يستيأسوا من وقوعه فاعتقدوا ان اماما من ائمتهم سيأتي في يوم من الايام يملأ الارض عدلا كما ملئت جورا .

الشيخان

منذ البداية وضح للدكتور طه حسين ان في الحديث عن الشيخين «ابو بكر» و «عمر» رضي الله عنهما لن يكون فيه جديد يسبق اليه ، فما اكثر ما كتب القدماء والمحدثون عنهما ، وما اكثر ما كتب المستشرقون عنهما ايضا .

كذلك الدكتور طه حسين ، كتب عن الشيخين جريا وراء تفصيل تاريخ الفتوح في عصرهما ، ولا عن معجزة انتصار المسلمين على الروم وقضائهم على الفرس واقامة اكبر امبراطورية . . لم يقصد الى هذا ايضا . ان الذي يقصده الدكتور طه حسين في تقديمه للشيخين هو ان يعرف شخصية كل منهما كما تصورها الاحداث التي كانت في عصرهما . وكما يصورها هذا الطابع الذي طبعت به حياة المسلمين من بعدهما ، والذي كان له اعظم الاثر فيما خضعت له الامة العربية من اطوار وما نجم فيها من فتن .

والدكتور طه حسين يصور لنا شخصية ابي بكر كما تصورها الاحداث ويقدمه امام اعظم محنة تقابل انسان . وهل هناك محنة اكبر من ان يموت محمد صلى الله عليه وسلم ، ويكون ابو بكر هو المسؤول بعده صلى الله عليه وسلم عن امر المسلمين . لقد خرج ابو بكر من هذه المحنة دون ان تضطرب لها نفسه ودون ان يجد الضعف او الريب الى نفسه سبيلا ، وعرف كيف يرد الصادقين من المؤمنين الى انفسهم او يرد انفسهم اليهم . حين تلا عليهم هاتين الايتين الكريمتين وهما قول الله عز وجل في سورة آل عمران :

«وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل ، افان مات او قتل انقلبتم على اعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين» .

وقوله سبحانه وتعالى في سورة الزمر :
«انك ميت وانهم ميتون» .

فأي كارثة ومحنة يصادفها انسان بعد موت رسول الله واضطراب الاحوال بعده ؟ ولا أدل على ذلك من ان عمر رضي الله عنه شك في ذلك . . ولم يصدق بان محمدا صلى الله عليه وسلم مات ، وان بقية الصادقين شكوا ايضا ، وان من كان يعبد الله كفر . وارتد عن دين الله . كل هذا وأبو بكر ثابت الجنان قوي الارادة فكيف استطاعت طبيعته

ان تثبت امام هذه الكارثة ؟

ويجبنا الدكتور طه حسين في كتابه «الشيخان» ، بقوله : « لا جواب على هذه الاسئلة الا ما ذكرته آنفا من انه كان الصديق ، فهو اول من أسلم من الرجال ، وكان اسلامه صفوا خالصا قوامه التصديق العميق والايان الخالص من كل شائبة والاطمئنان الصادق السمع الى كل ما يحدث به النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم اثاره النبي على نفسه في كل موطن ثم البلاء الحسن كلما جد الجد واحتاج النبي او المسلمون الى هذا البلاء .. » .

ويحدثنا الدكتور طه حسين عن عمر بن الخطاب رضي الله عنسه فيقدمة لنا في اسلامه وكيف ان هذا الاسلام كان كسب للمسلمين ، ويقدمه لنا في جاهليته وكم كان النبي صلى الله عليه وسلم يتمنى ان يدخل الى حظيرة الاسلام احد العمرين: عمر بن الخطاب او عمر بن هشام، ويقدمه لنا في جهاده مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وكيف أبلى بلاء حسنا ، ثم يقدمه لنا يوم مات ابو بكر وتولى الخلافة من بعده ومواجهته لاولى المشكلات وهي مشكلة الفتوحات . ويقدمه لنا في عدله وفي ايمانه ثم مقتله على يد هذا الاعجمي .

ويرسم لنا الدكتور طه حسين صورة للخليفة عمر بن الخطاب فيقول: «لم يعرف المسلمون خليفة او ملكا بعد عمر جعل بيت المال ملكا للمسلمين ينفق منه على الجيوش المحاربة ، ويعين منه من احتاج الى المعونة ويوفر ما يبقى منه ليشيعة بين المسلمين ، رجالهم ونساءهم وأطفالهم ، يأخذون منه اعطياتهم في كل عام ، تسعى اليهم هذه الاعطيات دون ان يتكلفوا مشقة في طلبها سواء في ذلك منهم القريب او البعيد . وقد رأيت انه كان يحمل بنفسه المال الى البادية الغربية من المدينة فيعطيه للناس في أيديهم وقد رأيت كذلك انه في عام الرمادة كان يحمل الطعام على ظهره ويسعى به الى الاعراب النازلين حول المدينة وربما طبخه لهم بنفسه ، ولم يعرف المسلمون ملكا او خليفة بعده .. عني بحماية الدميمين والرفق بهم في امرهم كله كما عني بهم عمر .

ثم لم يعرف المسلمون خليفة او ملكا بعده .. عني بأمر الدين واقامة الحدود وتأديب الناس في الصغير والكبير من أعمالهم وعلنهم المسلمين دينهم رقيقا بهم حريصا على ان تستقيم لهم امور دنياهم وعلى ان يجنبهم ما يؤخذون به في آخرتهم ما استطاع الى ذلك سبيلا فعل هذا كله حتى بلغ منه ما لم يبلغ الخلفاء والملوك في الاسلام وفي الارض التي

لم تسلّم فلسنا نعرف اليوم بلدا يوفر فيه الرزق على الناس من بيت المال او من خزائن الدولة دون ان يمنهم ذلك من العمل لانفسهم وللناس ، ومن التزيد في الكسب والتوسع في الغنى ..» .

والدكتور طه حسين في تقديمه للشيخين شاء ان يقدم للقراء شيئا جديدا لم يسبقه اليه احد وهو بيان الجوانب والميزات لهاتين الشخصيتين كما تصور سيرتهما والاحداث التي وقعت في ايامهما ويجلو لنا ايضا الاسلوب الذي اتبعه كل من الخليفين في سياسة الحكم وتدير شؤون الدولة واقامة العدل والمساواة والحرية الامر الذي يجعل هناك صعوبة لمن يجيء بعدهما في الخلافة ، ثم يستخلص من هذا الاسلوب معالم شخصيته كل منهما على ما رأينا واضحة قوية تدعو الى الاعجاب .

مرآة الاسلام

وفي كتابه «مرآة الاسلام» يقدم لنا صورة اخرى مؤداها ان الاسلام كان ولا يزال دين الحنيفة السمحة والفترة السليمة ، اتى به الرسول الكريم من عند الله عز وجل ليخرج الناس من الظلمات الى النور باذن ربهم الى صراط العزيز الحكيم . ولقد بهر العربي ما يشيع في هذا الدين من روح العدالة والتسامح وما يمتاز به من بساطة المنطق السليم وروعة الحق الواضح ، وما يفسر به الحوادث والامور الكونية من صدق ووضوح ثم ما يرشد به الناس فيما يتعلق بحياتهم وطرق معيشتهم من هدي وعلم وما يصنع بهذه الامور من ملسوك تبعت في النفس الرضى وتدفعها الى العمل المنتج . هذا هو مصدر عظمة الاسلام وسر ما يكمن فيه من قوة .

ولهذا الدين اصول . واولى هذه الاصول القرآن والثاني الحديث . وهناك علاقة بين الاصلين يمكن ان تحدد في هذه العبارة التي يقولهــا الدكتور طه حسين في كتابه «مرآة الاسلام» وهي ان القرآن يذكر الركوع والسجود ولكنه لا يحدد الركوع والسجود في القرآن تحديدا دقيقا فليس بد للنبي من بيان ذلك كله بالعمل والقول جميعا ، فهو يقيم الصلاة للمسلمين ويأمرهم ان يصنعوا صنيعه وان يقوموا حين يقومون ويركعوا ويسجدوا ويجلسوا حين يركع ويسجد ويجلس . وهو علمهم ما يقرأون في صلاتهم وما يقولون في السجود والركوع والجلوس وقل مثل

ذلك في مجملات القرآن كلها ، وهي كثيرة. وكان النبي اذن مفسرا للقرآن بقوله وعمله وكان منبئا للناس بما يلقي الله في قلبه من العلم بما ينبغي لهم وما يجب عليهم وما يجب ان ينتهوا عنه» .

وعلى هذا الاساس الذي وضعه الدكتور طه حسين وجبت دراسة القرآن والسنة على اعتبار انهما مصدران من مصادر الدين الاسلامي . والكتاب يحدثنا عن القرآن وإعجازه وعن ان القرآن كلام لم تسمع العرب مثله قبل ان يتلوه النبي فهو في صورته ليس شعرا لانه لم يجر في الاوزان والقوافي والخيال على ما جرى عليه الشعر ، انه يتحدث الى الناس عن اشياء لم يتحدث اليهم بها احد من قبله . يتحدث عن التوحيد فيحمده ، وعن الشكر فيقدسه ، ويتحدث عن الله فيعظمه ويصف قدرته التي لا حد لها وعلمه الذي لا غاية له وإرادته التي لا ترد وخلق له السموات والارض وما فيهن من يسير الاشياء وخطرها ، ويدعو الناس الى عبادة الله الواحد القهار .

والاصل الثاني هو السنة وهي كل ما ثبت من سنة محمد صلى الله عليه وسلم قولا وعملا يعتبر خلاصة تبشيره وإنذاره وشهادته ودعوته الى الله .

والدكتور طه حسين يوضح الفرق بين احكام القرآن واحكام السنة فلكل قواعد وتشريعاته . على ان القرآن في نصه باق على الدهر لا يضره ان يختلف المسلمون في فهم نصوصه او في تأويلها ، وأما الحديث فكان اصحاب النبي يتشددون في رواية الحديث عن النبي بل كانوا لا يقبلون حديثا عن النبي الا بعد ان يشهد اثنان من المسلمين بانهما سمعا او شاهداه .

الوعد الحق

ها

ويحدثنا الدكتور طه حسين عن بعض المتقدمين في الاسلام . . من هذه الصفوة الممتازة التي قامت على اكتافها الدعوة الاسلامية ، وهؤلاء المستضعفون في الارض الذين جاء الاسلام فنفض فيهم من روحه وأشعرهم بكيانهم الانساني الكريم الذي لا يتأثر ببياض وجهه او سواده ، ولا يخضع لنظام جائر . . الاسلام الذي وعد بان يقيم السود بين الاحرار والعبيد . . نعم العبيد الذين علمهم الاسلام معنى الحرية ومعنى الكرامة الانسانية فلم يفرق بين الناس لشرف مولد ولا جاه منبت وانما ميز بين النفوس بما

قدمت من خير او عملت من شر ، ومن هؤلاء الرجال الذين وعدهم الله ذلك الوعد الحق (عمار بن ياسر) و(بلال بن رباح) و(صهيب بن سنان) . وفي هذا الكتاب يقدم الدكتور طه حسين تحليلا لهذه الشخصيات ، وجهادهم في سبيل اقامة دعائم الحق ، واعمالهم من اجل نشر الدعوة . . واتصالهم بالرسول وبالخلفاء الراشدين من بعده ، وعدايتهم للاسلام في اعوامه الاولى . فضلا عن جوانب كثيرة من اخلاقهم وعلاقاتهم بالآخرين ومواقع كل واحد منهم وهل هو حقا في مكانه السليم ام لا . والكتاب يمرض لنا بشيء من الاعتزاز كيف ان الاسلام يقدر رجاله . . يتساوى في هذا التقدير العربي وغير العربي . . لا فرق بين هذا وذاك الا بالتقوى .
فها هو صهيب الرومي يصبح اماما للمسلمين يصلّي وراءه الجميع ممن كانوا ارقاء وسادة قدماء بعد ان سوتى الاسلام بين الجميع .
ويصبح عبد الله بن مسعود اميرا لبيت مال المسلمين في الكوفة .
ويخرج بلال الى الجهاد في عهد ابي بكر ويقيم في دمشق حتى يلتقى ربه .
ويصبح عمار بن ياسر اميرا للكوفة ، ثم يعود الى المدينة حتى تقتله الفئة الباغية .



الفصل الثالث

اسلاميات .. احمد امين

حين اختار احمد امين
لإسلامياته.. دراسة الحياة العقلية
في الاسلام .. كان يعلم مقدما انه
سوف يكتب للناس فلسفة ،
فالنظرة بالعقل الى العقل هي
الفلسفة بعينها .
لكن اسلامياته حين انتشرت
اثبتت ان الفكرة العميقة لا يتعين
ان تكون ملفوفة في رداء من
الغموض، وان دقة التفكير تتعارض
مع رفاة النفس وعمق الشعور .

اسلاميات احمد امين

في تقديمه للجزء الاول من كتاب «ضحى الاسلام» قال الدكتور احمد امين (لعل أصعب ما يواجهه الباحث في تاريخ امة هو تاريخ غفلها فسي نشوئه وارتقائه ، وتاريخ عينها وما دخله من آراء ومذاهب ، ذلك ان مدار البحث في المسائل المادية وما يشبهها واضح محدود وما يطرأ عليها من تغيير ظاهر جلي . اما الفكرة اذا حاولت ان تعرف كيف نبتت ، وكيف نمت وما العوامل في ايجادها ، وما العناصر التي غذتها ومسا الطوارئ التي طرات عليها فعدلتها او صقلتها اعيال ذلك ، وبلغ منك في استخراجها الجهد . . .)

بهذه الكلمات السريعة يحدد لنا احمد امين منهجه في دراسة الحياة العقلية عند المسلمين منذ نشأتها حتى القرن الرابع الهجري وهو الجانب الذي اختاره للدراسة .

وعلى هذا فالدكتور احمد امين يحلل بعقله العقلية الاسلامية فسي نشوئها وتطورها .

وهذا التحليل اقتضى منه الرجوع الى العوامل الدينية المستمدة من الاسلام ، والعناصر الدخيلة على المسلمين من الحضارة الفارسية والهندية ، ومن الفلسفة اليونانية وكيف تفاعلت هذه العوامل كلها فسي بوتقة واحدة . . هي الحضارة الاسلامية .

أساس الفكرة اذن عند احمد امين هي ان الشرق يمتاز بظاهرة قوية اثرت تأثيرا قويا في حياته ، وصبغت تفكيره بصبغة غلبت على جميع

أنظمته .. ذلك هو الاسلام الذي انتشر من أقصى الشرق في الهند الى أقصى الغرب في الاندلس ، فاذا شئنا أن نعرف ما كان لنا ، وما ينبغي لنا أن يكون .. فعلينا أن نرجع الى تلك الاصول الاسلامية لنتبين الاسس التي قامت عليها والعوامل التي أدت الى قيامها .

ولما تيسرت للدكتور أحمد أمين هذه المادة الاسلامية التزم في بحثها بثلاثة أبواب كان يفصلها عندما يتناول هذه المادة وما وراءها من عقلية ، وهذه الابواب الثلاثة هي : الناحية الاجتماعية ، ثم العلمية ، ثم الدينية . والقارئ لكتب أحمد أمين في الاسلام لا يجد عناء في البحث عن هذه الابواب الثلاثة ممتازة في كل جزء من أجزاء إسلامياته .

فاذا شئنا أن نعرف العقلية - على طريقة أحمد أمين - فلا بد أن نعرف تاج هذه العقلية وهو الدين وأدواتها التي تبرز بها وتحقق وهي العلوم المختلفة ، وحياتها وروحها وهي المراكز الاجتماعية التي نمت فيها وترعرعت .

وبمعنى آخر فان العقلية الاسلامية في نظر أحمد أمين اشبه ما تكون بالنهر الجاري المتدفق .. الحياة الاجتماعية روافده ، والحركة العلمية مجراه ، والدين مصبه وغايته . وتجد تطبيق هذه الفكرة بوضوح في «فجر الاسلام» ، ومفصلة في «ضحى الاسلام» ، واشد تفصيلا فسي «ظهر الاسلام» .

وعلى هذا النحو يكشف لنا أحمد أمين الحياة العقلية في الاسلام من جميع أنحاءها ، ويفتح للباحث ابوابها على مصاريعها كي يغدو ويروح الى كنوزها التي كانت تتوارى عن الأنظار بل التي كانت تمتنع عليه اقتناعا . وكل ذلك بفضل ملكاته العقلية التي ائتمنت منها شخصيته العلمية بخصالها الفذة . وأولى هذه الخصال تعمقه للثقافة القديمة والحديثة تعمقا أتاح له كلما درس فكرة اتقنها فهما وفقها ونقدا دقيقا ، وكأنه لا يريد أن يترك فيها بقية .

وخصلة ثانية هي خصلة التعميم والتنظيم فقد كانت لديه قدرة غريبة على استخلاص الافكار الكلية التي تجمع الجزء الى الجزء وتضم العنصر الى العنصر فاذا الكل يستوي قائما ، واذا الفكرة تتمثل واضحة . وهو لذلك دائم التحول من الجزئيات الى الكليات . ولا يزال يلائم بين ما يصل اليه من الكليات في الموضوع الواحد حتى يتكون له فصل ، وما يزال يلائم بين الفصول حتى يتكون له باب ، وما يزال يلائم بين الابواب حتى يتكون له كتاب . ومن ثم يبدو التناسق واضحا فيما يؤلفه . اذ

يحسن تصنيف الافكار كما يحسن ترتيب الفصول والموضوعات ترتيبنا دقيقا بحيث يعمها الاستواء . والتناسق فلا نشاز ولا اضطراب ولا طغيان لفصل على فصل او لفكرة على فكرة مع الوضوح التام ، ومع ضرب من المنطق الحاد الذي يشفع بالقدرة على التعليل ، وهي قدرة بدأها في الازهر والقضاء الشرعي ونماها في الجامعة وعلى ضوء ثقافته الحديثة .

وخصلة ثالثة هي خصلة الحرية العقلية فهو يجهر بالحق في صراحة وبدون موارد وبدون اي تكلف ، يجهر به في كل ما يمس الحياة دنيانا وديننا . ومن خير ما يصور ذلك عنده موقفه من المعتزلة . فقد كان ينصرهم دائما ويشيد بهم دائما ، ولكن ذلك لم يستتر عنه معايبهم ، فمضى يشرحها شرحا واسعا ، شرح العالم المستبصر ، بل شرح العالم الحر الفكر الذي لا يخفل الا بالحق وحده فهو يعيئ له ويعيش به ويعلنه اعلانا صريحا لا غموض فيه ولا خفاء . وكذلك كان شأنه مع الشيعة . فقد اجهد نفسه في تصوير عقيدتهم بكتابه «فجر الاسلام» وراحوا يعلنون عليه حربا شعواء ولكن هذه الحرب لم تصرفه في كتابه الجديد «ضحى الاسلام» عن آرائه القديمة ، بل لقد مضى يثبتها ويثبت معها نقدا جريئا اذ إعتقد انه حينما يقول الحق ، لا يخشى فيه لومة لائم .

وثمة خصلة اخرى تتصل بهذه الخصلة ، هي عدالته في الحكم على الاشخاص والآراء عدالة ملؤها النزاهة ، وهي عدالة اكتسبها نظريا في مدرسة القضاء الشرعي وفي اثناء درسه للإخلاق ، وعمليا حين اشتغل قاضيا ، وتولى الحكم في القضايا الشخصية ، ونحن لا نقرؤه في «ضحى الاسلام» وفي غيره من مصنفاته حتى نحس كأنما نصب بين يديه موازين عادلة لا تحيد يمينا ولا شمالا بتأثير هوى او عصبية ، وهي موازين شديدة الحساسية ، تزن كل رأي مهما دق وكل فكرة مهما صغرت ، وهي لذلك تتيح له سلامة الحكم وصواب النقد ، فأحكامه ونقده جميعا لا تشوبهما شائبة من ضعف او عوج او نقص بل هو دائما رائده التجري والدقة والاحتياط والإنصاف والاعتدال الى اقصى حدود الاعتدال .

وخصلة خامسة في أحمد أمين تضم الى الخصال السابقة ، هي الطموح الى تحقيق المثل الاعلى في البحث والدراسة ، وهي خصلة دفعته دفعا الى كفاح علمي عنيف استهله بثقيف نفسه ثقافة عميقة بالمعرفة القديمة والحديثة والفقہ بمناهج القدماء والمحدثين جميعا . ثم مضى ينفق ايامه في دراسة الحياة العقلية الاسلامية باذلا كل ما يملك من قوة وجهد متذمرا بكل ما يستطيع من صبر وجلد ، محتملا من ضروب

المشقات ما تنوء به العصبية او اولو القوة . اذ كان الطريق العلمي الى تلك الحياة مليئا بالعقبات والصعاب ، فما زال يقهر كل عقبة ويدلل كل صعوبة ، حتى استقام له الطريق ممهدا واضحا المعالم .
وبهذه الخصال جميعا استطاع احمد امين ان يقدم كتبه في الاسلام على كل من يعنون بدراسة الفكر العربي الاسلامي في قرونه الاربعة الاولى سواء في بيئات العرب او بيئات المستشرقين وان يملأ قلوبهم اعجابا به اذ جلا ذخائر هذا الفكر وكنوزه تجلية دقيقة ، تجلية تشهد له بالبصيرة النافذة والاداة العلمية الكاملة في جمع المواد واستقصائها واستخلاص معانيها ، مع طول النظر ودوام التنقيب ، فضلا عن التحليل الدقيق والنقد النزيه .



بهذه الروح العلمية كتب احمد امين كتبه في الاسلام وهي : «فجر الاسلام» و «ضحى الاسلام» في ثلاثة اجزاء و «ظهر الاسلام» في اربعة اجزاء و «يوم الاسلام» و «الفتوة والصعلكة في الاسلام» و «هارون الرشيد» واصبحت من المصادر الاساسية التي لا يستطيع اي باحث الاستغناء عنها وخاصة فيما يختص بالحياة العقلية او الفكرية في الاسلام. والآن وبعد ان تعرضنا لمنهج احمد امين في البحث الاسلامي يحسن بنا المرور ولو سريعا على ما كتبه .

فجر الاسلام

يحدثنا الدكتور احمد امين في كتابه «حياتي» عن تجربته في اول كتاب في اسلامياته وهو في نفس الوقت اول كتاب صدر بعد الاتفاق على اعادة كتابة التاريخ الاسلامي وبعد ان يذكر اتفاقه مع الدكتور طه حسين والاستاذ عبد الحميد العبادي على دراسة الحياة الاسلامية من نواحيها الثلاث يقول : «فاخذت احضر الجزء الاول الذي سمي بعد ذلك - فجر الاسلام - وصفت فيه ما يقرب من سنتين فرسمت منهجه ورتبت موضوعاته ، وكنت اذا وصلت الى موضوع اجمع مظانه في الكتب ، واقرأ فيها ما كتب عن الموضوع وامعن النظر ، ثم اكتبه مستدلا

بالنصوص التي عثرت عليها حتى أفرغ منه وانتقل الى الموضوع الذي بعده وهكذا . وكانت اكثر الاوقات فائدة الاجازة الطويلة التي تبلغ اكثر من خمسة اشهر ، اذ كنت أجمع الكتب التي يظن انها تبحث في الموضوع وأحملها على دفتين او ثلاث الى مائدة وضعتها في حديقتي خلف بيتي في مصر الجديدة وأبدا العمل في الساعة الثامنة صباحا وأجلس على كرسي امام الكتب اقلبها واستخرج نصوصها واستخلص من كل ذلك ما اكتبه الى ما بعد الساعة الواحدة في جلسة واحدة انسى فيها نفسي وانسى كل شيء حولي ، وهكذا افعل في ايام العمل التي لا يكون فيها دروسي في الجامعة حتى ينتهي الجزء ، وقد تم هذا الجزء الاول من «فجر الاسلام» في آخر عام ١٩٢٨ ، ولقد لقيت من حسن استقبال الناس لهذا الجزء ، وتقديرهم له واهتمامهم به نقداً وتقريظاً ما شجعني على المضي في هذه السلسلة» .

بهذا الاسلوب من العمل الجاد المضني كتب أحمد أمين كتابه «فجر الاسلام» الذي يعتبر نقطة البداية في مشروع كتابة الحياة الاسلامية وقد قصدت ان انقل تجربة المؤلف بلسانه حين كان يقوم بكتابة هذا العمل العظيم . وقد حدثنا الدكتور طه حسين عن هذا العمل بالذات وعن صاحبه وعن الجهود الشاق الذي بذل في تأليفه فقال وكأنه يعترف بما لهذا المفكر العظيم من دور في بناء هذا المشروع :

«أشهد بأن زميلي - أحمد أمين - قد ينهض بهذا العبء في درس الحياة العقلية العربية كأحسن ما ينهض الرجل ذو الضمير العلمي الحي بعبء من الاعباء...» .

وكتاب «فجر الاسلام» يتناول مرحلة العصر الاسلامي الاول وفيه تدليل لكل ما يعترض الباحث في التاريخ الاسلامي من صعاب تصور الجوانب المختلفة للحياة العقلية في عصر صدر الاسلام والعصر الاموي سواء الدينية او العلمية او الاجتماعية وهو نفس الاسلوب الذي اخذ احمد أمين نفسه به في دراسة الاسلاميات .

والحق ان الدكتور طه حسين قد لخص أسلوب الدكتور أحمد أمين في تقديمه لكتاب «فجر الاسلام» بقوله :

«أخذ أحمد أمين نفسه بمناهج البحث في درس الحياة العقلية للأمة العربية ابان القرن الاول للهجرة فانتهى الى نتيجتين كلتاهما قيمة حقا : الاولى انه أظهر هذه الحياة كما كانت معقدة ملتوية ولكنها قوية أشد قوة ممكنة ، خصبة أشد خصب ممكن ، بعيدة كل البعد عما يظن الناس من

هذه السداجة الفليظة الجافة ، والثانية انه وصل بين الثقافة الادبسية والفلسفة وصلان يتعرض منذ الان لضعف او وهن . . فقد استطاع احمد امين ان يضع ايدنا على هذه الآثار القوية الخالدة التي يتركها الدين والفلسفة في الادب ، وأصبح كتابه وسيلة قيمة الى أن تصل الحياة الدينية الاسلامية في وضوح وجلاء الى نفوس الذين يدرسون الادب العربي في الجامعة او في غيرها من معاهد العلم العالي» .

١ وبعد ان تعرفنا على الظروف التي كتب فيها الكتاب ومنهجه يجدر بنا الان ان نتعرف على الجوانب التي اهتم بها الكتاب وهي ثلاثة :

١ اثر الفرس في العرب فقد أوضحه احمد امين توضيحا كبيرا . فيعد ان يقدم هذه الامبراطورية ذات الحضارة التي استطاعت ان تقف امام الاسكندر الاكبر وكان لها ديانتها الخاصة وتعرف قبل ان يدخلها الاسلام بالديانة الزرادشتية» . . بعد كل هذا يبين لنا احمد امين التأثير الديني في حياة العرب الجديدة وكيف بدأ منعكسا فاذا الفارسيون انفسهم قد اندمجوا في صميم الحياة العربية ولكنه انعكاس ظاهري ظل مقصورا على السياسة والحالة الاجتماعية . واما اعتقادهم الديني فقد بقي كامنا في نفوسهم وقد حملوه الى دنيا الاسلام في ضمائرهم ولم يتنازلوا عنه في سرهم ، ويذكر احمد امين ان هذا الشعور ظهر بصورة مقنعة في نزعاتهم الشعبوية اذ كانوا يجدون المسلمين قد اخذوا بلادهم عنوة واصبح عامل من عمال المسلمين يدير هذه البلاد على انهم - الفرس - حين ذابوا في المجتمع العربي استطاعوا ان يلونوه ويؤثروا فيه .

كذلك يذكر احمد امين ان الفرق الشيعية التي لها تاريخها فسي الاسلام كانت معتقداتها في الاصل فارسية . وللفرس غير هذا الاثر العقائدي على العرب اثر في الادب العربي . وساق امثلة من الشعراء والادباء من ذوي الاصول الفارسية وقد قالوا الشعر وشاركوا في الادب بعقول فارسية والسنة عربية .

الاثر الثاني بعد الفرس الذي يذكره احمد امين في كتابه هو اثر الخوارج . فهم اصحاب الفكرة الاولى في نقد الخلافة والجدارة به . وقد كان الخوارج من اجل آرائهم السياسية الحرة اشد المخاطر ، حتى سالت على آرائهم دماؤهم وقد ميزهم الاعتقاد الجازم والعبادة الخالصة وتقديس النبي الكريم ، ولكنهم لم يتورعوا عن ان يسفكوا دماء بعض الصحابة اذا وجدوهم مخالفين لآرائهم ، وكان الحجاج العقائدي ديدنهم قبل ان يرفعوا السيوف .

والحق ان احمد امين كان موضوعيا حين عرض لهؤلاء الخوارج في كتابه . فلم يكل لهم المديح والاعجاب ، كما انه لم ينقص من قدرهم شأن غيره من الكتاب الذين كانوا دائما يلعنونهم .

وائر الخوارج في العقلية الاسلامية وجده احمد امين نسي الجدل السياسي بتقديم خليفة علي آخر ، وراى ان مرد ذلك هو يوم التحكيم حين رفضوا الحكومة وقالوا لا حكم الا لله ، بعد ان راوا فريقا مخالفا لهم - وهم اصحاب معاوية وعمرو بن العاص - قد رفعوا المصاحف على رؤوس الرماح رمزا لتحكيم كتاب الله في القتال ، وقد وقعت اذ ذاك الخديعة الكبرى حين اقترح عمرو بن العاص تنحية علي ، وسعى لتنصيب معاوية بن ابي سفيان خليفة واميرا للمؤمنين ، فنشب قتال من اجل ذلك بين العرب في مستهل عهدهم بالاسلام ، وكانت تلك هي الحرب الاهلية الاولى ، وعاش بعدها الخوارج مطاردين حتى ضاعت فلولهم في العصور العباسية .

.. الاثر الثالث كما يرى احمد امين في كتابه هذا كان للمعتزلة .. وهو حين يتكلم عنهم لا يبين الاسباب الاولى التي نشأ عليها تفكيرهم واثارهم للعقل المحض . وفي راي احمد امين انه لولا الخوارج لما كانت المعتزلة . فالخوارج كما عرفنا كان اسلوبهم الصراحة . وهم الذين قالوا لعلي بن ابي طالب : «اخطات ، ومن اخطأ من ائمة المسلمين .وجب رجوعه الى الصواب ، واذا لم يرجع وجب حربه وزجره ولو آل الامر الى قتله» وكل هذا يوضح عقليتهم حتى يمكن فهم المعتزلة بعد ذلك .

واحمد امين حين عرض لنمط تفكير المعتزلة في كتابه هذا وخاصة في الجدل حول القضاء والقدر انما اراد الكلام عن طبائع الفكر والاعتقاد عندهم ومن حلقات المعتزلة خرجت افكار الجبر والاختيار ودارت عليها عقول اهل الكلام سنين طويلا ولم يستطع فريق ان يقنع الفريق الآخر او ينتهي الى نتيجة حاسمة حتى يثست منهم الهيئة الاجتماعية العربية والاسلامية .

ويرى احمد امين ان هذه الحلقات الخاصة والعامية التي كان يدور فيها الجدل الديني والسياسي هي التي رمت على العصور العباسية كلها قوة الفكر والحجج وطبائع الجدل والكلام ، وهذه هي الظواهر الفكرية التي جعلت للامة العربية وجودا فكريا ، فحزبت المبادئ الاولى عن امكنتها التي كانت لا تريم عنها الى مجال واسع وآفاق بعيدة ، انبسط فيهما الفكر العربي ، والراي الاسلامي واتخذ له حياة جديدة

ذات صيغة خاصة دون ان يكون فارسيا او غير ذلك .
هذه تقريبا هي الجوانب الاساسية التي يقوم عليها الكتاب الاول في
الاسلاميات ويعني به كتاب «فجر الاسلام» الذي جعلنا قراءته نزداد
يقينا بما قاله الدكتور طه حسين في تقديمه ، وبأن صاحبه يتصرف في
المسائل الادبية والفلسفية واللغوية بعقل يعرف كيف ينتقل من قضية الى
قضية ، ومن مقدمة الى نتيجة ، وكيف يضع الاشياء بعد ذلك كله في
لصاها معتدلا احسن الاعتدال لا يعرف التهويل او التهويل اليه سبيلا .

ضحى الاسلام

هذا الكتاب يتناول بالبحث العصر العباسي الاول وهو عصر اتسم
بالتقدم والحضارة . لذلك وضع احمد امين عنوانا له هو «ضحى الاسلام»
ولهذا العنوان دلالة بالطبع فقد كان العصر الاموي وما قبله من عهد
الخلفاء الراشدين يعتبر «فجرا» لانبثاق نور الظلام ، ثم اشرقت بعد ذلك
شمس النهار الاسلامي في «الضحى» متمثلة فيما احرزه العرب من تقدم
وحضارة .

واحمد امين يحدتنا في كتابه «حياتي» عن تجربته مع هذا الكتاب
الذي نال اعجاب واستحسان الكثيرين فيقول : «استمرت في اخراج
«ضحى الاسلام» في ثلاثة اجزاء وترقيت في منهج التأليف في «ضحى
الاسلام» فقد رتبته موضوعاته التي تستغرق ثلاثة اجزاء واحضرت ملفات
كتبت على كل ملف اسم الموضوع . ملف عليه اسم المعتزلة وآخر هو
الخوارج ، وثالث اثر الجوارى في الادب ، ورابع الثقافة الهندية .. ثم
احضرت امهات الكتب التي تبحث في هذه الموضوعات كالافغانى والحيوان
للجاحظ وكتب ابن قتيبة ورسائل الجاحظ وكتب ابن المقفع ونحو ذلك
أقروها كلها ..» .

ويستمر احمد امين ثماني سنوات في تأليف هذا الكتاب الذي خرج
في ثلاثة اجزاء ..

يبحث الجزء الاول منها الحياتين الاجتماعيه والثقافية ، ولم يكد
يترك ظاهرة من وظاهر الحياة الاولى الاجلاها كأروع ما تكون التجلية .
وقد بدأ بسكان الدولة الاسلامية فتحدث عن اجناسهم واختلافهم فسي
الخصال والاهواء ، وانصهارهم بعضهم في بعض مما اتاح توليد عقل

واسع . ومن ثمة تحدث عن الامتزاج بين العرب والموالي دما وعقيدة وفكرا ، وما نشب بينهما من صراع أدى في بعض الجوانب الى ظهور نزعة الشعوبية وما خلفته من آثار مختلفة في الحياتين العقلية والادبية ، ودعاه ذلك الى ان يتحدث عن الرقيق واثره في الثقافة وفي الشعر وفي الفناء . وما كان للجواري في هذا العصر العباسي الاول من عمل واسع ، وأخذ ينظر في حياة الخلفاء العباسيين وحياة الناس وماذا كانوا يلبسون ويطعمون وما توزع حياتهم من ترف مادي ومن فقر وبؤس او بعبارة اخرى من لهو وبؤس حتى اذا فرغ من تصوير الحياة الاجتماعية وظواهرها المختلفة المادية والمعنوية انتقل يصور الحياة الثقافية بكل جداولها الاجنبية والعربية كاشفا عما اخذه العرب من الفرس والهند واليونان وكيف اخذوه ترجمة او شفاها ، وكيف ساغوه وتمثلوه وأذاعوه في حياتهم العلمية والادبية واللغوية ، وأهم من نهضوا بهذا الصنيع وهو في كل ذلك يستنطق الكتب والنصوص ويقف طويلا عند الثقافة الدينية وما سقط الى المسلمين من اهل الكتب السماوية كما يقف عند الاسلام وانتشاره ونشوء فرقة المتكلمين فيه ، ومدى تأثير الفلسفة في نظرهم وجدالهم الديني بخاصة ، وفي تنظيم العالم العربي بعامة ، وكيف يسيطر الاسلام على حياة المسلمين الاجتماعية .

ويمضي الى الجزء الثاني فيصف الحركة العلمية في العصر العباسي الاول مستهلا حديثه بقوانين الرقي للعقل البشري نافذا الى تطبيقها على العقل العربي ، ويتحول الى قوانين العلم وتطوره متجليا لها في العالم العربي الذي انقسمت شجرته الى فروع عقلية واخرى عقلية لكل منهما منهجه الخاص في البحث والتأليف . فبينما تعتمد الاولى على الرواية وصحة السند تعتمد الثانية على معقولية الحقائق وامتحانها . ويقف عند اتساع صناعة الورق واثرها في تدوين العلم واثر الخلفاء العباسيين واثريهم في العلوم المتصلة بالسياسة وشؤون الدولة ، وينتقل الى معاهد العلم ومجالسه ودور الكتب ومناهج التعليم ويصور كل ذلك تصويرا دقيقا كما يصور مراكز الحياة العقلية في الحجاز والعراق ومصر .

وينتقل الى الجزء الثالث الخاص بالفرق الدينية وهو يستهله بالحديث عن نشأة علم الكلام وأسبابها ، ويقف عند منهج القرآن ومنهج المتكلمين ومنهج الفلاسفة في الالهيات وتقرير الحقائق وما بين المنهجين من خلافات ويتحدث عن المعتزلة وتعاليمهم التي اقاموها على خمسة أسس وأصول هي :

«القول بالوعد والوعيد ، والامر بالمعروف والنهي عن المنكر ووضع الفاسق في منزلة وسطي بين منزلتي المؤمن والكافر ، والقول بالتوحيد وما يتصل بذلك من تنزيه الذات العلية عن التجسيم والايمان بان القرآن مخلوق ، ثم القول بالعدل وما يتصل بذلك من وجوب العدل على الله ومن ان الانسان حر الارادة» .

ونراه يشيد بمذهب المعتزلة لاعلانهم شان العقل وتحكيمة في النقل ولاخدهم بقانون حرية الارادة ، بل حرية الراي العامة حتى في الدين وفي فهم القرآن الكريم . ومع هذه الاشادة ينقدهم نقدا منصفا اذ توسعوا في قياس الله على الانسان ، وفي تحويل الدين الى مجموعة من القضايا العقلية غير حاسبين حساب الشعور وحرارة العاطفة . وبذلك اضعفوا الروح وغالوا في تقيير العقل ، كما غالوا في مبدا الامر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى لو اقتضى الامر استخدام السيف ، وهو مبدا خطر ، انه يجعل في الامة حكومة داخل حكومة ويهدد الحرية العامة في السراي والعقيدة وهو ما حدث فعلا حين دفع المعتزلة المأمون والمعتصم والوائق لمحاكمة من خالفوهم في القول ، بخلق القرآن ، وجعلوا البلاد كلها موضوع هذه المحاكمة الظالمة ، وعذبوا فيها الناس . وكان حريا بهم وهم الداعون الى حرية الفكر والخضوع الى سلطان العقل ان يتسامحوا مع مخالفيهم في العقيدة ما دام رأيهم يضر بمصلحة عامة . وقد مضى الدكتور احمد امين يتحدث عن تاريخ الاعتزال واشهر رجاله في البصرة وبغداد كما تحدث بالتفصيل عن محنة خلق القرآن وتاريخها السياسي ونتائجها على المعتزلة مما ادى الى افول نجمهم وبزوغ نجم المحدثين .

ويتحدث الدكتور احمد امين عن الشيعة فيسهب في الحديث عن فريقهم وأئمتهم واسبس عقائدهم في الإمامة والتشريع واصول الدين ، وهو في كل ذلك يحلل وينقد لا يخشى لومة لائم . فقد نصب نفسه للحق والدفاع عنه . ويعرض لخصومتهم مع العباسيين ويعنسف بالطرفين جميعا ، فقد اقحموا الامة في صراع حزبي ودموي لم تجن منه سوى الفرقة والفوضى ، ولو انها اتجهت به الى الغزو لفتحت اكثر العالم ، ولو ان الامة راجعت نفسها لانصرفت عنهم وازورت مؤمنة بان احق المسلمين بالخلافة اصلحهم للحكم سواء اكان شريف النسب او كان وضيعه ، وسواء اكان من البيت الهاشمي او من بيت نجار او حطاب ، ويخرج من ذلك الى بيان آراء المرجئة والخوارج وتعاليمها . وينظر نظرة عامة في الفرق التي انتشرت في هذا العصر وفي كل جانب يتحدث عن اثر

هذه المذاهب في الادب شعره ونثره .

والحق ان عناية احمد امين واهتمامه بأدب الشيعة والخوارج جديران بالتسجيل والرصد .

فأدب الشيعة هو أدب حزين ، فيه دموع وحسرات ، وعليه أودية سود من طول الحداد على مصرع الحسين بن علي رضي الله عنه ، وقد كان لحركة التشيع اثر بعيد في اعطاء نواح الادب العربي حياة جديدة . فالخلاف السياسي والتشاحن المذهبي كان الادب يخدمهما ويسجل حركاتهما وسكناتهما .

كذلك يميز ادب الشيعة عنصران كبيران تنبه اليهما احمد امين فهما عنده يظهران في عاطفة الغضب وعاطفة الحزن . وقد قال في الغضب : «انهم اعتقدوا أنهم سلبوا حقهم وغصبوه ، وأخذ منهم ظلما وعدوانا فغضبوا لذلك ودعتهم ثورة الغضب ان يقولوا وان يقولوا كثيرا في هجاء غاصبهم وفي بيان حقهم وفي شرح مظالمهم وفي اظهار حججهم ..» .

أما حين يحدثنا عن عاطفة الحزن فيقول : «ان الدولتين الاموية والعباسية اخذتا بالعنف وعاملتاها بأقصى مما يعامل الكفرة المحدثون . فمن حين الى حين تحدثت مجزرة . ولا يكاد يجف منهم دم حتى يسيل دم ، وتفنتنا في ذلك فقتل وصلب وإحراق وتدرية وإماتة بطيئة فسي السجون بحرمانهم من النور والهواء والاكل والماء وكل هذا وأقل منه يستنزف الدمع ويذيب القلب» .

أما ادب الخوارج فقد نظر اليه احمد امين نظرة منصفة ، رآه ادب القوة وادب الاستماتة في طلب الحق ونشره وادب التضحية . وهو يرى تعبيرهم في ادبهم ادب التعبير البدوي الذي لا يتفلسف ولا يشتق المعاني ويولدها كما يفعل المعتزلة . ويرى هذا الادب الخارجي ايضا ادبا غاصبا . لكنه ليس كغضب ادب الشيعة .

وكان ادب الخوارج ادب الجماعة المتقشفة حقا التي ندرت ارواحها للمنافحة عن العرب والمسلمين . فلم يعرفوا مجونا ، ولا خمرا وانما القوا بأنفسهم جميعا الى القتال وحومات الوغى . فكان ادبهم دليلا عليهم وعلى أخلاقهم هذه .

وقد وازن احمد امين بين ما بقي من ادب الشيعة وبين ما اثر من ادب الخوارج . فوجد ان ادب الشيعة احتضنه سادتهم في العصر العباسي ودوتوه ، وكان لهؤلاء السادة الصدارة فسي البحث والدرس والتأليف كالشريف المرتضى صاحب الامالي المعروفة بإسمه . ولذا حفظ

أدبهم من الضياع ، وجاءنا منه الكثير . اما ادب الخوارج فانهم وان يكونوا قد عاشوا فيه لكن ما اثر عنهم كان قليلا لان الامويين كانوا حربيا عليهم والعباسيين لاحقوا فلولهم ولعنوهم وما وصل الينا من اخبارهم الا النذر اليسير الذي جمعه ورواه ابو العباس المبرد صاحب كتاب الكامل .

ظهر الاسلام

والكتاب الثالث من اسلاميات احمد امين هو «ظهر الاسلام» الذي صدر في اربعة اجزاء يعتبر مقدمة لدراسة واسعة للحركة العقلية في النصف الاخير من القرن الثالث والرابع الهجريين وهي اوسع حركة وأخصبها وأعمقها في تاريخ المسلمين الى اليوم . لهذا عني احمد امين في الجزء الاول بناحيتين :

1- الاولى : وصف الحياة الاجتماعية في هذا العصر فليس من الممكن فهم الحياة العقلية الا بفهم بيئتها التي نشأت فيها ، والعوامل التي ساعدت عليها ، وطبيعة الناس الذين انتجوها ونحو ذلك .

والثانية وصف مراكز الحياة العقلية ونوع الحركات العلمية والادبية التي ظهرت في كل اقليم وخصائصها وأشهر رجالها وهو وصف موجز اراد به احمد امين ان يكون نقطة ارتكاز يتبعها لتفصيلها فيما بعد ذلك من اجزاء .

2- وفي الجزء الثاني من «ظهر الاسلام» يسلك احمد امين نمط «ضحى الاسلام» حيث يبحث في تاريخ العلوم والآداب والفنون في القرن الرابع الهجري .

3- والقارئ يلمس مدى الجهد الذي بذله في تحقيق بعض المسائل وذلك بالرجوع الى مصادرها الاولى . وقد يكون للمسألة الواحدة اكثر من اربعة مصادر كل له رايه الخاص : فمثلا يرى البعض ان اخوان الصفا من الشيعة ، وبعضهم يرى انهم ليسوا بشيعة . وهنا كان لا بد على الدكتور احمد امين من مراجعة هؤلاء وأولئك ليقف على موضوعات الكتاب اولا ، ومعرفة منحي المؤلفين : هل هم شيعة او غير شيعة حتى يستطيع استخلاص الرأي الصحيح .

والجزء الثالث من كتاب «ظهر الاسلام» خصصه لتاريخ الحياة العقلية في الاندلس ولم يكتف بتأريخها في القرن الرابع الهجري وحده

بل رأى ان حضارتها وحياتها العقلية تكاد تكون وحدة ، ففضل ان ينهج منهاجاً جديداً مؤداه الا يلتزم بالقرن الرابع الهجري ، بل يؤرخ حياة الاندلس العقلية متسلسلة من وقت خروجهم منها اي نحو ثمانية قرون حتى تكون كلها مربوطة برباط واحد ومعرضة عرضاً واحداً .

وكان امام الدكتور أحمد أمين أسلوبان للتأريخ ، فإما ان يؤرخ تاريخاً افقياً بمعنى ان يؤرخ الحياة العقلية في كل عصر ثم يتبع ذلك بالعصر الذي بعده ، او تاريخاً رأسياً بمعنى ان يؤرخ كل علم من مبدأ ظهوره في الاندلس وكيف تدرج .

ويقرر الدكتور أحمد أمين انه فضل الاسلوب الثاني .

ويستمر الدكتور أحمد أمين في جزئه الثالث من اجزاء «ظهر الاسلام» بنفس الاسلوب الذي اتبعه في بقية السلسلة الاسلامية من حيث انه يؤرخ للحياة العقلية . فلم يتعرض في هذا الجزء لشرح الحياة السياسية والاجتماعية الا بالقدر الذي يلقي ضوءاً على الحياة العقلية ، خصوصاً وان أكثر ما كتب عن الاندلس كان يدور حول السياسة وأقل القليل كان عن الحياة الفكرية فيها .

لهذا رأى أحمد أمين ان رصد الحياة العقلية في الاندلس في هذا

الجزء مفيد وضروري .

وفي الجزء الرابع والآخر من الكتاب يؤرخ الدكتور أحمد أمين للمذاهب الدينية وتطورها ، وقد نهج في ذلك نفس المنهج الذي اتبعه في الجزء الثالث . فلم يقف عند القرن الرابع الهجري لان العقائد والمذاهب ليست كالآداب والعلوم والفنون سريعة التغير والتطور . وتكلم في هذا الجزء عن المذاهب الرئيسية من معتزلة وأشاعرة وشيعنة وسنة ومتصوفة .

وللمتصوفة أفراد بابا خاصا مع أنهم ليسوا فرقة اسلامية لاشتهار أمورهم وقوة أثرهم في العقيدة الاسلامية وبخاصة بعد القرن الرابع . وهذا الجزء الرابع في مجمله عرض عام للعقيدة الدينية في شتى صورها عند المسلمين منذ ظهور الاسلام حتى العصور المتأخرة .

وبعد هذا العرض السريع للاجزاء الاربعة لكتاب «ظهر الاسلام» تستوقفنا بعض الجوانب في الكتاب ، فها هو يحدثنا عن المعتزلة التي سبق أن حدثنا عنها في «فجر الاسلام» و«ضحاه» وكيف كان لهم دور في تاريخ الفكر الاسلامي ، وطبيعة العقل الواعي الذي ظهر في العرب وهم يناقشون أمور الدين والدنيا بحرية وتححرر . حتى ان أحمد أمين

كان يرى أن نضج الفكر في العصر العباسي الأول والثاني كان الفضل فيه للمعتزلة ومثل المعتزلة بالمدافعين عن حوذة الفكر الاسلامي أمام التيارات الجارفة التي جاءت من الفكر الآري والسامي فقد حمل القرس منسد دخلوا في الاسلام افكارهم وذكريات اعتقادهم الديني ، وكذلك كان شأن الروم كما كان العراق محاطا بالثقافات المختلفة والديانات المتباينة . وكان السريان واليهود قد ايقظوا اذهانهم ناحية المسلمين ، وحين دخل هؤلاء في الدين الاسلامي ، بدأت معتقداتهم القديمة ترفع الرؤوس فسي معتقداتهم الجديدة فحدث الخلاف والشقاق في الآراء والنزعات ووقف في وجه هذا التيار الطاحن كله جماعة المعتزلة يدافعون عن الاسلام ويصدون عنه البوادر الهدامة .

والفرق الدينية المنبعثة من الشقاق الفكري الاسلامي تتماثل وتتوالد ويشق بعضها دربه من بعض آخر حتى اصبحت خضما زاخرا كاد الفكر الاسلامي ان يفرق في أمواجه ، بعد ان سبج وغاص ؛ حتى قال احمد امين في هذه الفرق والتيارات ان كل هذه المذاهب صبت في العراق ودعا اليها الداعون وتشكلت بأشكال مختلفة وإصطبغ بعضها بصبغة اسلامية . وتقرأ المذاهب المختلفة في ذلك العصر فيأخذك العجب من كثرتها وتنوعها ، وكان كثير من اصحاب المذاهب قد تثقفوا بالثقافة اليونانية فأخذ كل فريق يستخدم هذه الفلسفة في تدعيم ديانته فلما جاء المعتزلة يردون على هذه المذاهب وينتصرون للاسلام اضطروا ان يتفلسفوا هم ايضا ليتسلحوا بما تسلح به خصومهم . لذلك اتسع علم الكلام اتساعا عجيبا . ومما زاد في سعته انه شمل اشياء كثيرة لا تتعلق بالعقائد حسبما كان يظن بل نرى انه اشتمل على اربعة أقسام كبار :

قسم الإلهيات مثل البحث في الله وذاته وصفاته وأفعاله وأنبيائه ورسله ونحو ذلك وهذا معقول ان يكون في صميم علم الكلام .

اما القسم الثاني فهو في الطبيعة والكيمياء ، ادخل مثل الجواهر والعرض والجزء الذي لا يتجزأ والحركة والسكون ، والطفرة والتداخل والالوان والطعوم والروائح ونحو ذلك .

والقسم الثالث قسم سياسي محض صبغه علم الكلام بصبغة دينية كالكلام في أيهما أفضل وأحق بالخلافة : علي أم أبو بكر وعمر ؟ وكلامهم في العلويين والعباسيين والفاضل والمفضول وشروط الامامة ونحو ذلك . والقسم الرابع عقلي وخلقى كالبحث في الخير والشر والاستطاعة والاختيار وإعجاز القرآن والإجماع والقياس . فاذا انت قرأت كتابا

كالواقف او كالفرق بين الفرق او كالمثل والنحل رايت مناحي مختلفة
واتجاهات مختلفة مع كثرتها وتشعبها .

ثم رأى أحمد أمين ان هذه الامور مع كثرتها وتشعبها يمكن ان
تقسم الفرق الرئيسية الى خمسة اقسام .

١ - المعتزلة .

٢ - اهل السنة .

٣ - الشيعة .

٤ - الخوارج .

٥ - المرجئة .

ويختتم الدكتور أحمد أمين كتابه «(ظهر الاسلام)» بقوله : «لقد كانت
هذه الحركات قوية عنيفة تتدافع ولا تتهاون وتتقاتل ولا تتسالم .
فمؤرخو الاسلام لا يقتصرون على تسجيل الوقائع الحربية وانما يضيفون
اليها الوقائع الاعتقادية والطائفية واذا نحن صفينا الحساب كما يفصل
التجار عند انتهاء مرحلة كبيرة من مراحل تجارتهم ليعرفوا ماذا كسبوا
وماذا خسروا ، رأينا اننا كسبنا حركة العقول وتمرينها على البحث وكثيرا
من المران على الجدل كما كسبنا من وراء هذا الجدل وضوح المسائل
المتجادل فيها . وكسبنا تربية كثير من العلماء في هذه الاجواء من
النشاط . ولكننا خسرنا الحب والالفة بما ذاع من الاحن والبغضاء بين
الطوائف المختلفة حتى بلغت حدا فقتل الكثير ، وخسرنا قوى كانت تنفع
لو تجمعت فلما تفرقت فنيت ..

وهذه القوى لو كانت وجهت وجهة خير لانتجت نتاجا باهرا ، فلما
وجهت وجهة شر ضاعت ، واظن ان ما خسرناه اكثر مما كسبناه . وليس
ادل على ذلك من حال المسلمين اليوم ولا حول ولا قوة الا بالله العلي
العظيم » .

يوم الاسلام

يختلف كتاب «(يوم الاسلام)» عن بقية كتب أحمد أمين في شكله
ومضمونه .. فمن النظرة الاولى ندرك انه لم يعتن كغيره من الكتب
بالتنسيق والتنظيم الذي يعتبر من اساسيات منهج أحمد أمين في
التأليف ، ويبدو ان أحمد أمين استثنى آخر كتبه - فقد توفي بعد

صدوره بعامين - من تلك التكاليف التي كادت ان تكون مريكة للتأليف الذي تعود ان يجريه على نسق محكم ، فاطلق مؤلفه من اوله الى آخره في غير قيد .

فهو - من الصفحة الاولى الى الصفحة الاخيرة - في سرد مستمر لا يقطعه عنوان ، ولا باب ولا فصل ، وانما استعويض عن كل ذلك بنجوم ثلاثة بين بعض الكلام تشعر بانتهاء ما قبلها وابتداء ما بعدها .

ولهذا الكتاب قصة . . فقد كان فجر الإسلام وضحاها وظهره سلسلة لا يريد صاحبها لها الانقطاع . وكان تقديره ان يكون ظهر الإسلام كما يقرر في «حياتي» حول خمسة اجزاء . ولكن شاء القدر ان يحول بينه وبين هذه النية ضعف بصره . وهنا توقف عن العمل في تلك السلسلة ، وجعل يؤلف نوعين من الكتب : نوع من الكتب تكون قد الفت من قبل ولا تحتاج الى اي صقل وترتيب وأخرى مبنية على مطالعات سابقة مما كان يدخره في الذهن على توالي الايام .

ويبدو ان كتاب «يوم الإسلام» كان ضمن هذه الكتب التي كان يدخر مادتها في الذهن ، حيث اراد فيه ان يبين اصول الإسلام وما حدث له من أحداث أفادته أحيانا وأضرته أحيانا أخرى . وسنبين فيه كيف كان يعامل غيره من اهل الأديان ايام عزه وسطوته وكيف يعامله غيره ايسام ضعفه ومحنته . وهذه تقريبا هي مادتها «يوم الإسلام» . وكما قلنا فقد اعتمد فيه الدكتور أحمد أمين على معلوماته المختزنة وقليل من قراءاته المعاصرة .

اما لماذا كان عنوانه «يوم الإسلام» فكما يذكر الدكتور أحمد أمين ان ذلك لاشتماله على الإسلام في اصوله وعوارضه ، في عصوره المختلفة الى اليوم ، وهم غرض منه شيان :

الاول : ان نتبين منه الإسلام في جوهره واصوله وكيف كان .
والثاني : ان كثيرا من زعماء المسلمين اتعبوا انفسهم في بيان اسباب ضعف المسلمين . وهنا رأى أحمد أمين ان خير وسيلة لمعرفة اسباب هذا الضعف هو الرجوع الى التاريخ . . فهو الذي يبين ما حدث مما سبب ضعفه تنضح الاسباب الحقيقية حتى يتمكن من يريد الاصلاح ان يعرف كيف يصلح .

ويوم الإسلام يحمل العديد من الأفكار والآراء التي ان دلت على شيء فانما تدل على ثقافة قائلها وها هو مثلا يحدثنا عن معنى الجهاد فيقول «وشرع الإسلام الجهاد ، والجهاد كلمة اسلامية تستعمل بمعنى الحرب

وهي مصدر جاهد يجاهد مجاهدة جهادا ، مأخوذة من الجهد وهو
الطاقة والمشقة .

وقد شرع الجهاد في الاسلام في ثلاثة مواضع :

الاول : اذا التقى الزحفان وتقابل الصفان .

الثاني : اذا نزل الكفار ببلد تعين على أهله قتالهم ودفعهم .

الثالث : اذا استنفر الإمام قوما لزمهم النفير معه بدون ذكر الادلة .

ذلك ما يمكن ان يجيء به الوعي والحفظ من ذهن المؤلف ، وكان
بمقدور احمد امين لو أطاعه النظر أن يرجع الى أبواب الجهاد في
الصحيحين لدى مسلم والبخاري فانهما استنفدا بالاحاديث المرفوعة
والسماع الثابت جملة كبيرة من آراء الرسول صلى الله عليه وسلم ومن
اقوال الصحابة والتابعين وكلهم قد شارك في الجهاد مع رسول الله او
بعده وجرى على سنته في الحرب والدفاع .

كذلك قال احمد امين كلمة في الحرب والسلام على نحو ما قالها في
الجهاد : «وقد أثبتت التجارب ان الحرب سنة من سنن الاجتماع
البشري واثربسنة تنازع البقاء . وتعارض المصالح والمنافع والاهواء ،
ل هي سنة من سنن بعض الحشرات التي تعيش عيشة التعاون
والاجتماع كالنمل . فهو يفزو ويبيد ويسترق ويستخدم رفيقه في
خدمته وترفيه معيشته ، ويدل التاريخ ايضا على ان شعوب أوروبا أشد
البشر ضراوة وقوة في الحرب في اطوار حياتهم كلها من همجية ووثنية
ونصرانية وصليبية ومدنية مادية . ومن علمائهم وفلاسفتهم من يرى منافع
الحرب أكبر من مضارها ولا تزال جميع دولهم تنفق على الاستعداد لها
فوق ما تنفق على غيرها من مصالح الدولة والامور ، وترهق شعوبها
بالضرائب الكثيرة فاذا لم تجد استدانة وقد كان من تعاليم الاسلام منع
جعل الحرب للاكراه على الدين والتمنع بالشهوات ومنع استعمال القسوة
في الحروب كالتمثيل بالاعداء ومنع قتل من لا يقاتل كالنساء والاطفال
والعباد ، ومنع التخريب والتدمير وما لا ضرورة له .»

ويمتد احمد امين باقوال معاصرة وافكار راهنة حول الموضوع
ومفاهيمه ، ثم يخرج فجأة الى كلام حول ما سخره الله للانسان من عون
في الحياة بادنا من الآية الكريمة «هو الذي خلق لكم ما في الارض
جميعا» ثم يمضي به الاستشهاد بالقرآن الى هذه الآية الكريمة : «وان لكم
في الانعام لعبرة نسقيكم مما في بطونها ، ولكم فيها منافع كثيرة ومنها
تأكلون .»



وهكذا نجد اختلافا واضحا بين أحمد أمين في كتبه الأولى «فجر الإسلام» و«ضحى الإسلام» و«ظهر الإسلام» وكتابه هذا «يوم الإسلام» على الأقل في طريقة تناول ومنهج البحث . ولكننا برغم هذا نجد في الكتاب روح أحمد أمين وثقافته .



الفصل الرابع

اسلاميات هيكل

لم يكن عسيرا على الدكتور محمد حسين هيكل . . ان يفتح ميدان السيرة التاريخية مدافعا عن نبي الاسلام وخلفائه ، وان يضفي على آثارهم التاريخية مسحة فنية تحيلها الى صور ادبية رائعة . . بعد ان استهل حياته (محاميسا) يدافع عن حق يراه مشروعا ، وحياته الفكرية (قصاصا) يعرض للمشكلة في حياة الانسان .

اسلاميات هيكل

بدا الدكتور محمد حسين هيكل حياته الفكرية كاتب قصة ، وختمها كاتب قصة ايضا . . فاول كتبه كانت قصته (زينب) ، وآخرها قصته (هكذا خلقت) .

وفنه القصصي بين البداية والختام تمثيل حق لحياته في مرحلتها الطبيعية ، واستجابة صادقة لعصرين . . عصر الشباب حيث النمو وعصر الشباب حيث النضج .

كانت باكورته القصصية مظهرا لنزعة التجديد ، ورغبة الخلق ، فيها انتفاضة الوجدانية نحو وطنه ، وفيها معالجته تصوير الحياة في قطعة عزيزة هي الريف . . فتوهجت في القصة مشاعر وعواطف ، وتعاقبت صور ومشاهد ، وتجلت فيها شخصيات شعبية ، أريد بها جميعا ان تحقق غرضا هفت اليه نفوس الداعين الى تجديد الادب في مستهل القرن العشرين . . ذلك الغرض هو انشاء ادب مصري السمات والروح يتأكد فيه طابع المصرية في التعبير والتصوير .

وكانت اعماله القصصية تحل تلك النزعة . . بعد ان اصبح الدكتور هيكل رجلا خبير الحياة ومارس التجارب ، وتممقت فكرته في الادب ، وآمن بان الادب الحق هو الذي يتجاوز الحدود ويستعلي على القوميات ولا يستند الى الطابع المحلي . . ومن ثم اخرج لنا فنا قصصيا في اطار مصري ، عميق التغفل في دخائل النفس البشرية وثيق الصلة بالفرائز الانسانية الثابتة ، تتجلى فيه عبرة الحياة وحقالقها في منحى حسق

**التعبير الهادئ والطبع وفي نفس الوقت القوي النفاذ .
والدكتور هيكل الذي بدأ حياته هكذا قصاصا وختمها أيضا قصاصا لم
يكن عسيرا عليه ان يقتحم ميدان السيرة التاريخية ويقدم امثلة عظيمة ما
زالت تعيش في وجداننا حتى الان .**

لم يكن من الصعب عليه ان يقتحم ميدان السيرة وهو في الاصل
قصاص . . والسيرة قصة حياة انسان فرد ترك من الاثر في الحياة ما
جذب اليه التاريخ . وهي اقرب الى القصة من التاريخ بمعناه العام حيث
تحفل بالعواطف الجياشة ، والاحاسيس النابضة لانها تعرض من سيرة
الفرد جوانب مختلفة من حياته ، حتى تتجلى مقومات شخصيته ، وتبرز
معالم حياته ، وتفصح عن سر نبوغه وتفردته . فالسير لا تحفل الا بكل
ناطقة فريد .

والسيرة بعد كل هذا اقرب للقصة اكثر من قرابتها للتاريخ حيث
تلمس الانسان مباشرة ، بينما في التاريخ نلمس هذا الانسان عن طريق
الاحداث التاريخية التي احاطت به فمنها ما قيل ان الانسان هو المؤثر
الحقيقي في مجرى التاريخ فان المجتمع هو الذي يبرز التأثير التاريخي
للفرد ويتفاعل معه ، وهنا نتخذ من الاحداث محورا للتاريخ . بينما يكون
هذا المحور في السيرة هو الانسان نفسه .
فالسيرة كالقصة . . تعرض للمشكلة في حياة الانسان او للصورة
في مجتمع يعيشه .

ومن هنا يبدو يسيرا على الاديب القصاص ان يكتب سيرة تاريخية ،
ولا أدل على ذلك من ان اعظم مؤرخي السير . . هم الذين يملكون فسي
الاصل موهبة الاديب الفنان ، فما زالت السيرة قصة انسانية تعسج
بالاحاسيس والانفعالات والمواقف والاحداث التي يقتنصها كاتب السيرة
ليضفي عليها الحيوية ويبعث فيها النشاط .

تبقى بعد ذلك مسألة هامة وهي «الموهبة القصصية» والى اي حد
تتحكم في المؤرخ او في القصاص ، فتسوق كلا منهما الى المنهج الذي
يرتضيه ويتفرد به - «مؤرخا» او «قصاصا» - او يجمع بين الاثنين معا
فيكون مؤرخ سيرة وكاتب قصة . . وهي قدرة لا يتفرد بها الا من اوتي
موهبة الفنان ولسة العالم .

وقد كان الدكتور هيكل يجمع بين الميزتين معا . . ميزة المؤرخ
العالم ، وميزة الاديب الفنان ولا أدل على ذلك من ان الدكتور حسين
فوزي النجار يقول في هذا الصدد : «كانت سيرة جان جاك روسو التي

كتبها الدكتور محمد حسين هيكل في مطلع حياته بعد ان كتب «زينب» بسبع سنوات خليطاً ولا اقول مزيجاً من التاريخ والادب يقف فيها الاثر الفني لروسو في ناحية وسيرته في ناحية اخرى ...» .
والسؤال الان حول هذا الحافظ النفسي الذي كان يجذب الدكتور هيكل الى التاريخ هاويا في البداية حيث كان يحاول ان يضيف على الادب روعة التاريخ ، ثم باحثاً في التاريخ يعتلي قمته بين مؤرخي التراجيم والسيرة في العصر الحديث ؟

لعل الحافظ النفسي الذي كان يسير به في ركاب التاريخ هو الجاذبية للعمل العظيم وليس لعبادة البطل ، عبادة العمل العظيم الذي يضيف على الحياة كل خير وبهاء ، ويتوج الفكر الانساني بجلال الحق وروعته ، يحل عند الدكتور هيكل محل عبادة البطل .
جاذبية التاريخ لدى الدكتور هيكل هي في عمل عظيم يعود على الانسانية بالخير ، ويدنو بها من الكمال .

وتكون جاذبية التاريخ اشد ما تكون قوة اذا ما اتصلت اسبابها بنفوسنا اكمل اتصال ، فكلما ازداد الانسان بما حوله من صور الحياة امتزاجاً ، ازداد بهذا الامتزاج حياة وازداد بذلك تجديداً ، واذا كسان حسنا وواجبا ان يمتزج الانسان بالماضي وأن يجد هذا الماضي طشي الكتب ، فأحسن منه أن يمتزج بالحاضر في كل مظاهر هذا الحاضر ليجمع بين الماضي والحاضر كاملين ، وليجدد بذلك للمستقبل صوراً اقوى ما فيها من المظاهر الجديدة شخصيته هو الدائمة التجدد . وأنت اكثر ما تكون قوة على الامتزاج بالحاضر والماضي وعلى التجديد فيهما تجديداً تبرز فيه شخصيتك قوية ظاهرة اذا كان هذا الماضي هو ماضي بلادك ، وكان هذا هو حاضر بلادك نفسها بما فيها من حياة وجسدة وجمال ، فاذا استطعت بعد ذلك ان تتصل بغير بلادك لتمثل ما فيها من جمال وتجليه على غيرك ، او استطعت ان تكون اوسع مدى ، فاختلطت نفسك بنفس الانسانية كلها وترنمت عن ايمان صادق باناشيد الخلد في وحدة الوجود ، فقد بلغت الذروة من مراتب الالهام .

هذا المنهج الذي ارساه الدكتور هيكل لأبداع ادب قومي يلهمه التاريخ وتلهمه البيئة ويمتزج فيه الحاضر بالماضي لا يختلف كثيراً عن التاريخ في مناهجه وغاياته . فالتاريخ - كما يقول بندتو كروتشي - هو تاريخ الحاضر ، فنحن لا نبغي حقاً من دراسة التاريخ غير التعرف على الاطار الذي نعيش فيه ومعرفة اصوله .

ولا يتسنى لنا معرفة الحاضر وتفسيره ما لم ندرك الماضي بالبحث في حقيقة وجوده . والواقع ان كل ما يتناوله التاريخ بالبحث حاضر موجود أما ما مضى وانقطع وجوده فلا سلطان للتاريخ عليه ، واقدر الناس اذن على كتابة التاريخ واجدرهم به هم صانعوه واصحابه . اذ ان الشعور والاحساس يمتدان بهم الى ابعد اغوار تاريخهم من القدم ، فما زال الانسان يحمل في أعماقه تراث ماضيه مهما بعد هذا الماضي او عفت آثاره وفي هذا المعنى يقول الدكتور هيكل :

«ان المصريين الذين يتقدمون الى ميدان البحث في الشؤون المصرية القديمة ، اوفى الى التوفيق به من ابناء اية امة اخرى يتقدمون اليه ، ذلك ان غير المصريين انما يترجمون ما لا يتصل بحياتهم ، وبما لا تسري روحه في قلوبهم وافئدتهم فلهم ان اخطأوا عذر المترجم الذي ينقل من لغة الى لغة . اما المصريون الذين يوفقون لمثل ما وفق اليه اولئك الغربيون العظماء من براعة في الوقوف على اسرار المصريين القدماء فانهم حين يترجمون آثار هذه الصور القديمة يشعرون في غور وجودهم بما يتفق وهذه الصور والأخيلة والمعاني فيؤدونها الاداء الاوفى . .» وما يجري على التاريخ القديم هذا الذي حدثنا عنه الدكتور هيكل يجري ايضا على تاريخ غيره من العصور ، واقدر الناس على كتابة تاريخ امة من الامم هم ابناء تلك الامة مع ملاحظة ان يسمو المؤرخ بحوافزه ومشاعره عن الاطار الاقليمي الضيق الى ما تسع الانسانية من آفاق الوعي والاحساس الكلي الجامع .

وبناء على هذا الاساس كانت للدكتور هيكل محاولات في عالم التاريخ هي في واقع الامر محاولات اديب يرى في احداث التاريخ ما يلهم ادبه اجمل الصور والمعاني .

وها هو يضع لكتابة السير منهجا يعتبر اقرب المناهج الى الطريقة العلمية في كتابة السير . وكان ذلك حين كان يظن انه ابعد الناس عن اقتحام ميدان البحث التاريخي ففي عام ١٩١٦ نشر بضع مقالات في مجلة «السفور» عن قاسم امين ، عرض فيها لغاية التاريخ وللمنهج العلمي الذي تقوم عليه كتابة السير ، فلم تعد غاية التاريخ ان يلهم بمواليد الملوك ووفياتهم وما يقومون به من الغزو والفتح فليس هو وحده الذي يقوم بتقييم حياة الامم فقد ثبت للمؤرخين ان قيام الملوك ونزولهم عن عروشهم وما يتخلل ذلك من الحروب ليس الا مظهرا من مظاهر هذه الحياة . خصوصا بعد ان ذك عرش الاستبداد . وقامت الديمقراطية

حاكمة آخذة بيدها النهي والامر ، وأتما قوام حياة الامم مميزاتها من اخلاق وعادات وتقاليد وعقائد وآمال ، تلك مجموعة المظاهر التي تصدر عن الامة والتي تقوم عليها الحكومات والملوك والحروب ، من يوم أن ثبت ذلك لعلماء التاريخ في اوربا وجهاو عنايتهم الخاصة لبحث كافة المظاهر التي كانت تصدر عن المجموع الذين يريدون تعرف ماضيه ، فلم يتركوا اثرا يهدي لبعض هذه المظاهر الا قفوه ، وبذلك أمكن لهم أن يرسموا في التواريخ التي وصفوها صورا مضبوطة من تلك الامم واستطاعوا من بعد ذلك أن يربطوا الحاضر بالماضي وأن يقدموا بذلك لانفسهم ولغيرهم من المفكرين وعلماء الاجتماع مادة جيدة غزيرة يمكن معها رسم أقوم الطرق للوصول الى احسن ما يرجى في المستقبل ..» .

وبعد ان يحدد الدكتور هيكل غاية التاريخ على ما يجمع عليها فلاسفة التاريخ في القرن الاخير . نراه يضع لنا منهجا علميا لكتابة السير يقول فيه : «من أجل درس رجل من الرجال فيلسوفا كان او كاتباً ، او شاعرا يجب قبل كل شيء تعرف الوسط الذي عاش فيه ، والحال النفسية الخاصة به ، حتى نعلم تأثير هذه البيئة المعينة على هاته النفس المعينة فاذا تم ذلك تفسر الفيلسوف او الكاتب او الشاعر الى حد كبير ..» ويحدد الدكتور هيكل هذه البيئة بما دعاه «الوسط الاجتماعي» او «الوسط الطبيعي» .

ويمضي الدكتور هيكل على هذا المنهج في رسم الصورة التي يراها وافية لقاسم امين ، ولكنه بعد ذلك بأكثر من عشر سنوات يعود الى ترجمة قاسم امين ويكون قد استوفى من القدرة على البحث والتحليل والعمق ما يرتفع به الى القمة بين كتاب السير .

والدكتور هيكل كأديب فنان . ليست كل صور التاريخ مما يجذبه ويستثير وجدانه ، ان الذي يجذبه تلك الصور التي تتصل بفكره عن الوجود ، وهي الصور التي تحفل بمعاني الحق والخير والجمال . فالفكرة التاريخية هي التي تلهمه على أن تكون صدى لأحاسيس وجدانه ومشاعره ، او تتصل بنفسه بصورة من صور الوفاء ، الوفاء للوجود التاريخي ، او الوفاء لمن مست حياته حياتهم ، فان جلال الفكرة التي تتضمنها صورة التاريخ لا تقيم في ذهنه ولا تغيب عن وجدانه ، بل انها لتفور جميعا من نبع واحد هو تلمس الحق او الخير او الجمال في كل صورة من صور التاريخ تجذبه اليها .

وتحمل هذه الجاذبية التاريخية الدكتور هيكل الى ميدان اكثر جمالا

ونورا و'جلالا . . اجتمع اليه فيه «عبادة البطل» في التاريخ لكارليل ، و«عبادة العمل العظيم» كما يرى التاريخ الحديث . . فكانت «حياة محمد» . وبكتابه «حياة محمد» اقتحم الدكتور هيكل ميدان يتصل بقلبه وإحساسه ومشاعره اتصالا يتجاوز العاطفة الدينية الى آفاق رائعة من عبادة الخير والحق والجمال، ويوم ان اقتحم هذا الميدان اتهم بالرجعية، فقد حسب من اتهموه كما يقول في مقدمة كتاب «(في منزل الوحي)» انه انقلب بكتابة السيرة رجعيا : «وكنت عندهم قبلها في طليعة المجددين وكيف لا انقلب عندهم رجعيا وقد جعلت القرآن حجتي وما جاء فيه عن السيرة سندي ، ولم اضعه كما يقولون موضع النقد العلمي ، وكيف لا انقلب عندهم رجعيا وقد دفعت بالحجة ما طعن به على النبي الكريم جماعة من المبشرين وأخرى من المستشرقين ومن تابعهم من شباب المسلمين . وكيف ساغ لي بعد ذلك أن أزعج امامهم في حياة محمد ، وان أزعج اليوم هاهنا انني طليق من القيود عدو للجمسود ، تفسير للبحث العلمي الحر ، وانني أومن بحرية الرأي ، واعتبرها الاساس . لا اساس غيره ، لن يريد معرفة الحقيقة هم يرون ذلك خداعا ياباه العلم والبحث الحر ، وأنا بعد ، عندهم رجعي انقلبت الى الجمهور اتابعه ابتغاء رضاه، وكنت قبل ذلك اتقدمه أريد توجيهه وهدايته . .» .

ويتحدث الدكتور هيكل عن منهجه العلمي الذي اقتفاه في «حياة محمد» وسار عليه في «الصديق أبو بكر» و«الفاروق عمر» فيقول: «لست مع ذلك أحسبني أوفيت على الغاية من البحث في حياة محمد - بل لعلي أكون أدنى الى الحق اذا ذكرت لني بدأت هذا البحث في العربية على الطريقة العلمية الحديثة ، وتقتضيك هذه الطريقة العلمية الحديثة ، وتقتضيك هذه الطريقة العلمية اذا اردت بحثا أن تمحو من نفسك كل رأي وكل عقيدة سابقة في هذا البحث ، وأن تبدأ بالملاحظة والتجربة ثم بالموازنة والترتيب ثم بالاستنباط القائم على هذه المقومات العلمية ، فاذا وصلت الى نتيجة من ذلك كله كانت نتيجة علمية ، لم يثبت البحث العلمي تسرب الخطأ الى ناحية من نواحيها ، وهذه الطريقة العلمية هي اسمى ما وصلت اليه الانسانية في سبيل تحرير الفكر» .

وهذه الطريقة العلمية التي يخبرنا بها الدكتور هيكل بانها احدث ما وصلت اليه الاوساط العلمية في اوربا هي في واقع الامر طريقة القرآن حين جعل العقل حكما والبرهان اساس العلم ، وعاب التقليد ، وذم المقلدين وانب من يتبع الظن حين قال سبحانه وتعالى - ان الظن لا يغني

من الحق شيئا - وعاب تقديس ما عليه الآباء ، وفرض الدعوة بالحكمة لمن يفقهها . وهي ايضا طريقة محمد صلى الله عليه وسلم وأساس دعوته لو رجعنا اليها . .

الى جانب انها كانت طريقة القرآن والدعوة الاسلامية فهي طريقة سلف المسلمين . فما هو الامام الغزالي يقرر في احد كتبه : «انه جرد نفسه من جميع الآراء ، ثم فكر وقدر ورتب ووازن ، وقرب وباعد وعرض الأدلة وهذبها وحللها ، ثم اهتدى بعد ذلك كله . فهي طريقة قديمة في الشرق الاسلامي . . نسيها المسلمون بعد ان فشنا التقليد واهدر العقل ، فأبرزها الغربيون في ثوب ناصع وافادوا منها في العلم والعمل - على نحو ما يعرفه جيدا طلاب الفلسفة من تأثير ديكارت وغيره من المفكرين الذين يعتبرون آباء للنهضة الاوربية المبنية اساسا على العلم بالمفكرين الاسلاميين وعلى الاخص الامام الغزالي - هكذا بعد ان كانت هذه الطريقة طريقتنا في البحث العلمي رجعنا لناخذها من غيرنا ، ونراها طريقة في العلم جد حديثة كما يقول الدكتور هيكل .

وبهذا المنهج الاسلامي قديما ، الاوربي حديثا والقائم على الاستقراء والتحليل والموازنة استطاع هيكل أن ينقي السيرة من الشوائب التي دخلت عليها لعقم المنهج التاريخي القديم الذي يقوم على الرواية والتواتر دون ان يعنى بالفحص والتمحيص وهو ما حمل عليه «ابن خلدون» في مقدمته وضرب امثلة له مما حفلت بها كتب التاريخ من تهاويل لا يقبلها العقل او مبالغات لا يسيغها . . وأن يمضي بعدها مؤرخا للاسلام فكتب «في منزل الوحي» و«الصديق أو بكر» و«الفاروق عمر» و«الامبراطورية الاسلامية والاماكن المقدسة في الشرق» و«عثمان ابن عفان» وأغلب الظن انه كان سيمضي في التاريخ الاسلامي ومن ثم قصة الحضارة العربية في ملحمتها الماثورة الا ان الزمن لم يطل به حتى يتم هذه الامنية العزيزة . الصفحات التالية تناقش هذه الاعمال الاسلامية التي تركها الدكتور هيكل وهي «حياة محمد» و«في منزل الوحي» و«الصديق أبو بكر» و«الفاروق عمر» و«عثمان بن عفان» و«الامبراطورية الاسلامية» .

حياة محمد

يبدأ الدكتور هيكل كتابه بالحديث عن المطارات القديمة التي نشأت

في الشرق وكانت ذات طابع ديني مما أهل هذه المنطقة من العالم لتكون مهد الرسائل السماوية والديانات الوضعية كالمجوسية وغيرها ثم يشرح كيف انحلت هذه الديانات وتحولت الى فرق متناحرة ودول متطاحنة تقف بينها جزيرة العرب محصنة بصحرائها وان كانت اليهودية والمسيحية والمجوسية قد عرفت الطريق الى اطرافها في الشمال والشرق والجنوب. وتجتمع كل هذه الظروف في النهاية لتمهد لدين جديد يخرج من بلاد العرب يعيد اكتشاف الحقيقة التي طمرتها النصوص والشكليات والمجادلات والحروب الطاحنة . وليمزق العزلة عن جزيرة العرب التي ظلت بمنأى عن الامبراطوريتين المتحاربتين امبراطورية الروم وامبراطورية الفرس كأنما كانت السماء تعدها لترثهما برسالة جديدة تحل فيها محل المذاهب المنهارة ولتعيد الحقيقة والسلام الى الاقطار الداخلة فيهما .

ولد محمد في فترة من تاريخ جزيرة العرب اخذت فيها القسوى المحيطة بها تعمل على اختراق عزلتها وتمزيق سكينتها . ففي عام مولده ٥٧٠ م حاول الاحباش المسيحيون اصحاب الفيل بمساندة السروم البيزنطيين ان يدمروا الكعبة ويستبدلوا العرب ، وفي شبابه وقعت معركة «ذي قار» بين عرب وائل في الشرق وبين الفرس في أوائل القرن السابع الميلادي .

والآراء تختلف في تاريخ ميلاده . فأكثر المؤرخين يقولون انه ولد عام الفيل ٥٧٠ م ويقول آخرون انه ولد قبل الفيل بخمس عشرة سنة ويذهب غير هؤلاء الى انه ولد بعد الفيل بأيام او بأشهر او بسنين يقدرها قوم بثلاثين ويقدرها قوم بسبعين ، ويرجع كرسان وبرسغال في كتابه عن العرب ان محمدا ولد في أغسطس سنة ٥٧٠ م وكان أبوه عبد الله قد توفي وهو جنين في بطن أمه آمنة بنت وهب التي دفعتها بعد ولادته الى حليمة السعدية لينشأ في البادية على عادة أشرف مكة اذ يبعثون ابناءهم الى البادية في اليوم الثامن من مولدهم ثم لا يعودون الى الحضر حتى يبلغوا الثامنة او العاشرة ، لكن محمدا بقي في بادية بني سعد الى الخامسة فحسب ثم عاد الى أمه لتحتضنه عاما ثم تلحق أباه فينتقل الصبي اليتيم الى كفالة جده عبد المطلب ، حتى اذا صار في الثامنة رحل جده هو الآخر عن الدنيا فانتقل محمد الى كفالة عمه ابي طالب ولا يزال معه الى ان يبلغ الثالثة والعشرين ويتزوج خديجة ويستقل بيته معها .

والدكتور هيكل يهتم كثيرا بتصوير ما تلقاه النبي عن البادية التي لا

يعرف جوها الصحو «قيدا من قيود الروح ولا من قيود المادة» . وكيف كان ينهل في جو الصحراء الطلق روح الحرية والاستقلال النفسي ويتعلم من هذه القبيلة لغة العرب مصفاة احسن التصفية حتى لقد كان يقول من بعد لاصحابه «أنا أعربكم ، أنا قرشي واسترضت في بني سعد بن بكر» وتركت هذه السنوات الخمس في نفسه اجمل الاثر وأبقاه» .

ويظل محمد يتعلم من الصحراء ويتأملها كلما خلا إليها في رحلة او غدوه ، فعندما كان في الثانية عشرة خرج مع عمه الى الشام «في هذه الرحلة وقعت عينا محمد البخيلتان على فسحة الصحراء وتعلقت بالنجوم اللامعة في سمائها الصافية البديعة وجعل يمر بمدين ووادي القسرى وديار ثمود وتستمع اذناه المرهفتان الى حديث العرب واهل البادية عن هذه المنازل وأخبارها وماضي نبئها . وفي هذه الرحلة وقف في بلاد الشام عند الحدائق الغناء اليانعة التي انسته حدائق الطائف وما يروى عنها والتي تبدت له جنات الى جانب جذب الصحراء المقفرة والجبال الجرداء فيما حول مكة . وفي الشام كذلك عرف محمد أخبار السروم ونصرانيتهم ، وسمع عن كتابهم وعن مناواة الفرس من عبار النار لهم وانتظارهم الواقعة بهم . ولئن كان بعد في الثانية عشرة من سنه فلقد كان له من عظمة الروح وذكاء القلب ورجحان العقل ودقة الملاحظة وقوة الذاكرة وما الى ذلك من صفات حباه القدر بها تمهيدا للرسالة العظيمة التي أعده لها ما جعله ينظر الى ما حوله ومن حوله نظرة الفاحص المحقق . فلا يستريح الى كل ما يسمع ويرى . فيرجع الى نفسه يسألها: اين الحق من ذلك كله ؟» .

ثم يعود الى الصحراء وهو يرعى الغنم «وراعي الغنم الذكي القلب يجد في فسحة الجو الطلق اثناء النهار وفي تلالؤ النجوم اذا جن الليل موضعا لتفكيره وتأمله يسبح منه في هذه العوالم ، يبتغي ان يرى ما وراءها ، ويلتمس في مختلف مظاهر الطبيعة تفسيراً لهذا الكون وخلقه وهو يرى نفسه ما دام ذكي الفؤاد عليم القلب بعض هذا الكون غير منفصل عنه. اليس هو يتنفس هواءه ولو لم يتنفسه قضي ! اليست تحييه اشعة الشمس ويغمره ضياء القمر يتصل وجوده بالافلاك والعوالم جميعا ، هذه الافلاك والعوالم التي يرى في فسحة الكون امامه ، متصلا بعضها ببعض في نظام محكم ، لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار !! وإذا كان نظام هذا القطيع من الغنم امام محمد يقتضي انتباهه ويقظته حتى لا يعدو الدئب على شاة منها ، وحتى لا يصل احداها في

مهامه البادية ، فاي أنتباه واية قوة تحفظ على نظام العالم كله أحكامه .
ثم ها هو ذا يبلغ سن الشباب فيشتغل بالتجارة ويتزوج خديجة
ويشارك اهل مكة في حياتهم العامة ويصبح من عادته - كما من عادتهم -
ان ينقطع للتأمل والتماس الحكمة زمنا من كل عام يقضيه بعيدا عن الناس
فكان يذهب الى غار في جبل حراء بالقرب من مكة ليقيم فيه شهر
رمضان من كل سنة مكثفيا بالقليل من الزاد يحمل اليه ممعنا في التأمل
والعبادة وهو لم يكن يطمع في أن يجد في قصص الاخبار ونسي كتب
الرهبان الحق الذي ينشد بل في هذا الكون المحيط به : «في السماء
ونجومها وقمرها وشمسها وفي الصحراء ساعسات لهيبها المحرق تحت
ضوء الشمس الباهرة اللاء ، وساعسات صفوها البديع إذ تكسوها أشعة
القمر او أضواء النجوم بلباسها الرطب الندي . وفي البحر وموجه وفي
كل ما وراء ذلك مما يتصل بالوجود وتشمله وحدة الوجود . في هذا
الكون كان يلتمس الحقيقة العليا . . . فما هذه الاصنام التي لا تضر ولا
تنفع ، ولا تخلق ولا ترزق ؟ واين الحق ؟ اهو في الكواكب المضيئة ؟
اهو فيما وراءها من اثير ؟ ولكن ما الاثير ؟ وهذه الحياة التي نحيا اليوم
فتنقضي غدا . . ما أصلها وما مصدرها ؟ امصادفة تلك التي أوجدت
الارض وأوجدتنا عليها ، لكن للمياه وللارض سننا ثابتة لا تبديل لها ولا
يمكن ان تكون المصادفة اساسها ، وما يأتي الناس من خير او شر فيأتونه
طواعية واختيارا ، ام هو بعض سليقتهم فلا سلطان لاختيارهم عليه ؟ في
هذه الامور النفسية والروحية كان محمد يفكر اثناء انقطاعه وتعبده بغار
حراء ، وكان يريد ان يرى الحق فيها وفي الحياة جميعا» .

ويأتيه الوحي وهو في الاربعين .
هنا نرى اثر نظرية «الرجل الطبيعي» وتربية جان جاك روسو واضحة
كل الوضوح في تفسير النبوة وتهيؤ محمد لحمل الرسالة التسي
اختاره الله لها .

واذا كان محمد يمثل الحق الذي يأتي عن طريق الاتصال المباشر
بالكون والطبيعة فان اهل مكة يمثلون المجتمع بما فيه من فساد واستبداد
وبعد عن الحقيقة واستفراق في الجمود والبلادة !

وها هو محمد يدعو عشيرته واصدقائه الاقربين الى عبادة الله الواحد
الأحد ويظل ثلاث سنوات يدعو سرا فلا يستجيب له الا ثلاثة عشر نفرا من
اهله واصحابه ثم يأتيه الوحي أن يجهر بالدعوة فيصدع بما يؤمر داعيا
للوحداية والحرية والمساواة بين البشر والمسؤولية الفردية والعمل الذي

هو شفيع الانسان امام الله ، مبشرا بالبعث والحساب والحياة الآخرة والجنة والنار .

ولكن أشرف مكة يعرضون عنه ويستنكرون تعرضه لآلهتهم ويعذبون أتباعه ويفرون به سفهاءهم وشعراءهم وغلمانهم ، ويطالبون بمعجزات كمعجزات موسى وعيسى ، أن يحيل جبل الصفا وجبل المروة الى ذهب، او ينزل عليه الكتاب الذي يتحدث عنه مخطوطا من السماء ، او يظهر لهم جبريل كما يظهر له ، او يحيي الموتى ، او يسير الجبال حتى لا تظل مكة حبيسة بينها ، او يفجر ينبوعا أعذب من ماء زمزم ، او يتنبأ بأثمان السلع حتى يضاربوا على المستقبل ، ويرد الوحي بما أنزل على محمد : «قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا الا ما شاء الله ، ولو كنت أعلم الغيب، لاستكثرت من الخير وما مسني السوء ان انا الا نذير وبشير لقوم يؤمنون» .

نعم ! ما محمد الا نذير وبشير . فكيف يطالبونه بما لا يقبله العقل وهو لا يطلب اليهم الا ما يقبله العقل بل ما يمليه ويحتمه ؟ وكيف يطلبون اليه ما تأنف منه النفس الفاضلة وهو لا يطلبهم الا ان يستجيبوا لوحي النفس الفاضلة ؟ وكيف يطلبون اليه المعجزات وهذا الكتاب الذي يوحي اليه والذي يهدي الى الحق معجزة المعجزات ؟! وما لهم يطلبون اليه اثبات رسالته بالخوارق ليترددوا من بعد ذلك أيتبعونه ام لا يتبعونه، وهذه التي يزعمونها آلهتهم ليست الا حجارة او خشبا مسندة او أنصبا قائمة في عرض الفلاة لا تملك لهم نفعا ولا ضرا ، وهم مع ذلك يعبدونها دون ان يطلبوا اليها ما يثبت الوهيتها ؟! .

ان الدكتور هيكل يحقق ما رواه بعض المؤرخين وخاصة المتأخرين منهم عن معجزات وفوارق اتي بها النبي العربي كقصة شق الصدر وفيها ان ملكين اتياه وهو لم يبلغ الثالثة من عمره في بادية بني سعد فأضجعه وشقا صدره وأخرج قلبه فطهره من علقه سوداء كانت به وأعاداه مكانه فعاد الصدر كما كان .. ورحلا .

يقول الدكتور هيكل ان المؤرخين يختلفون حول هذه القصة اختلافا شديدا فبعضهم يروي القصة على لسان طفل لحليمة السعدية كان أخا لمحمد في الرضاعة وكان عمره اذ ذلك من عمر محمد لا يزيد عن السنتين الا قليلا فروايته يجب أن تؤخذ بحذر . والرواية تقول ان حليمة عادت بمحمد اثر ذلك لأمه رغم ان كتب السيرة تجمع على انها عادت به الى أمه وهو في الخامسة وهذا تناقض غير مقبول . وابن اسحاق يروي في هذه الواقعة حديثا عن النبي بعد بعثه ، لكنه يحتاط ويقول ان السبب في

رده الى أمه لم يكن حكاية الملكين وانما كان على ما روته حليلة أن بعض نصارى الحبشة رأوه وتنبأوا له بشأن كبير وأرادوا ان يأخذوه معهم الى النجاشي في الحبشة . والطبري يروي القصة لكنه يقول مرة انها وقعت لمحمد وهو في تلك السن المبكرة ثم يعود فيذكر انها وقعت قبيل البعث وسنه اربعون سنة .

وينتهي الدكتور هيكل من بحث قصة الملكين الى انها ضعيفة السند وأن المستشرقين وجماعة من المسلمين لا يطمئنون اليها . وهكذا يفعل الدكتور هيكل في باقي الخوارق والمعجزات التي تستحق التشكيك والرفض والتي رفضها القرآن كما رفضها محمد نفسه ففي السيرة انه وقع كسوف للشمس يوم مات ابراهيم بن النبي فقال بعض الصحابة انها انكسفت لموت ابراهيم وأنها معجزة . لكن النبي الكريم رسول العقل والحقيقة رد عليهم قائلا : «ان الشمس والقمر آيتان من آيات الله فلا تنكسفان لأحد» .

حتى اذا وصل الدكتور هيكل الى قصة الإسراء والمعراج التي وردت في القرآن قال ان في العلم الحديث ما يقر الاسراء والمعراج بالروح كانتقال الاصوات عبر الاثير ونظريات قراءة الافكار مما كان يعتبر فيما مضى بعض أفانين الخيال ، ولم يكن العرب من اهل مكة ليستطيعوا ادراك هذه المعاني لذلك ما لبث محمد حين حدثهم بأمر اسرائه أن وقفوا عند الصورة المادية من أمر هذا الاسراء وامكانه وعدم امكانه ، وحتى ساور أتباعه الذين صدقوه انفسهم بعض الريب فيما يقول» . فالدكتور هيكل يتفق مع جماعة من المسلمين يقولون ان الاسراء والمعراج بالروح لا بالجسد .

هكذا يفلق الكاتب الباب على بعض المستشرقين الذين وجدوا في قصص الخوارق والمعجزات مادة للطعن في محمد وفي الاسلام معلنا ان معجزة الرسول الحقيقية هي القرآن ليواجههم بعد ذلك فيما زعموه للنبي من أخطاء في حياته العامة او في حياته الخاصة كما قالوا بالنسبة لحديث «الفراتيق» المزعوم ، ومسألة القتال في الاسلام وزعمهم ان الاسلام انتشر بالسيف ، ومسألة تعدد زوجات النبي وقولهم ان محمداً كان مسرفاً في المتعة الجسدية .

ومن عجب ان بعض المؤرخين القدامى الذين لم يترددوا في نسبة الخوارق للنبي وتصديقها ظانين ان النبوة لا تكتمل الا بها ، هم انفسهم الذين اثبتوا روايات عن خطأ فادح زعموا ان النبي قد وقع فيه حين

أوردوا حديث «الفرانيق» الذي اخذ به جماعة المستشرقين واستغفوه أسوأ استغلال في الطعن على النبي واتهامه بالتراجع امام قريش ، معتمدين في ذلك على ما رواه ابن سعد والطبري وآخرون من المؤرخين والمفسرين المسلمين .

ومجمل هذا الحديث ان محمدا لما رأى ضراوة قريش في حربيه وحرب من تبعه من المسلمين مال الى مهادنتهم بأن يذكر آلهتهم بخير ، فجلس يوما في مجلس حول الكعبة وقرأ على القرشيين سورة «النجم» حتى اذا بلغ الآية «أفرايتم اللات والعزي ومناة الثالثة الاخرى» أضاف من عنده مجاملة لقريش آيتين فقال : «تلك الفرانيق العلي ، وان شفاعتهم لترتجى» وسجد فسجد معه القرشيون .

والدكتور هيكل يدخل في جدل رائع مع هؤلاء المؤرخين والمفسرين المسلمين ومع المستشرقين الذين أخذوا بهذه القصة ليثبت في النهاية تفاهتها وكذبها .

ان القدماء الذين اثبتوها يروونها روايات متعددة . وابن اسحاق صاحب اقدم كتاب في السيرة لا يتردد حين يسأل عنها في القول بأنها من وضع الزنادقة . الا انها لا تستقيم مع ما عرف عن محمد من الصدق والامانة ومع ما يجب للرسول من عصمة . وحجة اخرى ساقها من قبل الامام محمد عبده تعتمد على التحليل اللغوي ، فالفرانيق اسم طائر مائي اسود او ابيض او هي صفة الشباب الجميل ، ولم يحدث ابدا ان العرب القدماء وصفوا آلهتهم بها ، فلا شيء من صفتها يلائم معنى الآلهة او وصفها عند العرب .

وكما يفند الدكتور هيكل هذه القصة يفند غيرها من القصص والاحكام الجائزة التي طعن بها المستشرقون في محمد وخاصة في تلك المرحلة من حياته التي تبدأ بعد الهجرة الى المدينة حين لم يقتصر على أن يكون داعيا ومبشرا فحسب، بل صار الى جانب هذا قائدا وصاحب دولة . لقد أخذ هؤلاء المستشرقون على محمد انه اخذ يفرض الاسلام فرضا بالسيف وأنه كان عنيفا الى حد القسوة مع اليهود وهذا لا يتفق مع ما يجب في الدعوة الى الله من مخاطبة القلوب والعقول .

ويرد الدكتور هيكل على هذا بأنه ليس من المتصور أن يقوم ديسن بالسيف . لانه ليس من المتصور أن يحمل صاحب هذا الدين سيفاً ثم يسوق امامه أمة الى الإيمان به مرفعة ! ولا بد ان هذا السيف استطاع قبل ذلك أن ينجح في الدعوة اليه بالرأي والحجة حتى صار المؤمنون

قوة تستطيع أن تحمل السيف بعد ذلك وتنتصر به . هذا أولا . ثم ان المسلمين بعد ذلك لم يحملوا السيف الا بعد ان اضطروا للهجرة مرتين فرارا بدينهم تاركين أهلهم ووطنهم وأموالهم متوقعين مهاجمة القرشيين لهم وتآمر المنافقين من اهل يثرب عليهم شاعرين بالظلم الذي أصابهم بالطرد واغتصاب المال واقامتهم في يثرب عائلة على الانصار بينما قوافل قرش تروح وتجيء ما بين مكة والشام وفيها أموال مفتصبي أموالهم ، فلم لا يستردون شيئا من أموالهم ردا للعدوان وتأهبا لما قد تفعله قريش او يفعله المنافقون وحلفاؤهم في يثرب ؟

هذه هي اهم الاسباب التي دفعت المسلمين الى خوض غزوة بدر . وبين بدر وفتح مكة عدة غزوات كان القرشيون وحلفاؤهم هم البادئون بالحرب في معظمها كما في غزوة أحد وغزوة الخندق .

واذن فالاسلام لم يرفع السيف الا دفاعا عن النفس «والاسلام ليس دين وهم وخيال ، ولا هو دين يقف عند دعوة الفرد وحده الى الكمال ، انما الاسلام دين الفطرة التي فطر الناس جميعا عليها أفرادا وجماعات . وهو دين الحق والحرية والنظام . وما دامت الحرب في فطرة الناس فتهديب فكرتها في النفوس وحصرها في أدق الحدود الانسانية هو غاية ما تحتمل فطرة البشر وما يحقق للانسانية اتصال تطورها في سبيل الخير والكمال ، وخير تهذيب لفكرة الحرب الا تكون الا للدفاع عن النفس وعن العقيدة وعن حرية الرأي والدعوة اليه ، وان ترعى فيها الحرمات الانسانية » .

وأما موقف النبي من اليهود فهو يشهد بجلمه وسعة صدره واحترامه ومودته لكل صاحب دين وها هو يحالفهم ويعقد معهم معاهدة صداقة وتحالف وتقرير لحرية الاعتقاد ولكنهم رغم هذا كادوا للنبي بعد ان اسلم بعض زعمائهم وألبوا عليه قريشا .

وحين نصل الى اتهام النبي بحب النساء اعتمادا على انه تزوج تسع زوجات ما فسره بعض المؤرخين المسلمين على انه فحولة جسدية ظانين ان ذلك نوع من الكمال وتبعهم المستشرقون في هذا التفسير فقالوا انه اسراف في المتعة الجسدية . هنا يرد الدكتور هيكل ردودا ناصعة يبدؤها بالتساؤل هل يمكن أن نتهم محمد بالاسراف في المتعة الجسدية وقد عاش منذ ان كان في الثالثة والعشرين الى أن بلغ الخمسين مع امرأة تكبره بخمسة عشر عاما على حين كان تعدد الزواج امرا شائعا بين العرب في ذلك الحين . ثم يمضي مفنندا المزاعم والباطيل في حجة ومنطق .

في منزل الوحي

بعد ان انتهى الدكتور هيكل من كتابه «حياة محمد» قال لنفسه سأظل ينقصني جوهر ما أبحث عنه اذا أنا لم اذهب الى بلاد النبي العربي بنفسي وأقف حيث وقف وأحيط في حدود الطاقة بالبيئة العامة التي نشأ فيها النبي صلى الله عليه وسلم . . فلما ذهب الى الحجاز وشاهد ما اراد ذكر «رايت من الخير أن اطالع القراء بكتاب مستقـل يناول ما رايت ويتناول ما احسست به حين كررت بالزمن راجعا الى عهد الرسول وما كان بعد ذلك من حياة المسلمين في عهدهم الاول ، ثم ما اصاب البلاد الاسلامية المقدسة بعد ذلك الى وقتنا الحاضر ، مع الاشارة الموجزة الى ما أرجو أن يكون القدر قد خطه في لوحة لهذه البلاد يوم ينصر الله دينه على الدين كله» .

وهكذا رحل الدكتور هيكل ليري آثار الرسول الكريم ، ويسير حيث سار ملتصقا ما في حياته من اسوة وعبرة ويعود ويسجلها في كتابه الضخم «في منزل الوحي» وها هو يشير في مقدمته الى ملاحظة هامة وهي الخاصة بقلة ما كتب عن بلاد النبي عليه السلام على الرغم مما لذلك من قيمة علمية . . تكشف الغطاء عن حقيقة هذه البلاد التي شاهدهت الرسالة المحمدية والتي اختارها القدر لتكون منزلا للوحي والرسالة ، على نحو يقنع تفكير العصر الذي نزلت فيه هذه الرسالة .
ولهذا بدأ الدكتور هيكل يقرأ كل ما كتبه من سبقه الى زيارة هذه البلاد خاصة الرحالة ومنهم المستشرقون ، وما كتبه السلف عن المسلمين الاوائل .

وكان نتيجة قراءات هذا الكتاب الضخم الذي يصور فيه رحلته تصويرا دقيقا متناولا الجزئيات والتفصيلات والوقفات التي وقفها في بلاد الوحي ومنزله مستوحيا فيها مواقف الرسول بعد ان تجرد من نفسه وكر العصور يطويها متمثلا الهادي الكريم والمسلمين من حوله . فكانما الكتاب رحلة روحية لا يكتفي المؤلف فيها بالوصف الحي بل نجد نوعا آخر من الوصف الادبي يمكن ان نسميه بالوصف الروحي ، وهو قريب من اوصاف الصوفية وتخيلاتهم لمنازل الوحي وأماكن النبوة ، وذلك حين يستعيد في ذهنه وعلى الصفحات صورة الرسول في غدوه ورواحه بين قومه وعشيرته او موقفه في غار حراء يتلقى أوامر ربه يناجي خالقه سبحانه وتعالى .

وتحس بالصفاء والروعة - حين تقرا هذا الوصف - كأنما انت
المشاهد والرائي حين تطوي صفحات الكتاب العديدة التي تبين كثرة
الاستطرادات والمجادلات التي يلجأ اليها الدكتور هيكل في كتابه هذا الذي
يجمع بين جمال الاسلوب ودقة البحث الديني والتاريخي .

والكتاب مقسم الى ستة اجزاء كبيرة . في جزئه الاول يحدثنا
الدكتور هيكل عن السفر ويستله بهذه الآية الكريمة : «وما تدري
نفس ماذا تكسب غدا ، وما تدري نفس باي ارض تموت »
وكيف ان اسفار الكثيرين من اصدقائه تمثلها منذ اعلن عزمه الرحلة الى
الحجاز حاجا حتى ودعوه مسافرا . ثم يحدثنا عن وسيلة السفر وكانت
وقتها بالبواخر الى ان يصل الى ميناء جدة ومن بعد ذلك دخوله مكة في
منتصف الليل ليؤدي العمرة . ويجيء يوم عرفات والتفكير فيما يجب
قضاؤه من شعائر الحج بعد ذلك يصف لنا ايام التشريق على ما كان
يسمياها العرب في القديم والتي نعرفها نحن بأيام النحر الان .

وفي الجزء الثاني من الكتاب يحدثنا الدكتور هيكل عن البلد الحرام
ويبدأ بمكة الحديثة فيقول : «أشرت لما الى ما رايت بمكة او نزولي بها
وذكرت دار مضيبي ودار وزير المالية ، وقصر الملك وصورة عمارتها .
ولقد حاولت ان اجد فيها وفي المنازل التي دعيت اثناء مقامي بمكة
لزيارتها والمنازل التي نزلت بها بضواحي مكة ما استشف منه روح
العصر في العمارة او في نظام الحياة فعدت من محاولتي مقتنعا بأن مكة
القديمة الخالدة ما تزال بريئة من هذا الروح وان لم يبق فيها كذلك
شيء من الروح العربي القديم مما تحدثنا به تواريخ مكة من عدة قرون ،
وغاية ما يستشفه الانسان من خلال الحياة في ام القرى اليوم فذلك ان
شبابها يصبو بكل وجدانه الى الحياة الحديثة ، وان هذه الصبوة لم
تقمه بنفسه الا بعد ان انفصل الحجاز عن دولة الخلافة بالثورة التي
اعلنها الحسين بن علي والتي يسمونها عهد النهضة» .

وكل الذين يفتنون الى مكة هذه في اشهر الحج يفتنون للصلاة في
المسجد الحرام . حتى انه في يوم الجمعة ينذر ان تجد هناك مسلما
في مكة ويصلي في مسجد آخر غير المسجد الحرام فمن يقتنع بأن هناك
مسجد أفضل من المسجد الحرام لحرام ؟ وصلاة الجمعة بالمسجد الحرام
من اروع مظاهر الايمان في الجماعة الاسلامية ، هذا الايمان القوي في
بساطته ، البالغ في قوته ، الذي يجمع بين الحرية والنظام جمعا لم اقف
على ما يقرب من رفعته في اي من المذاهب والنظم الحديثة او القديمة

التي اطلمت عليها ، ولقد رأيت في أسفاري الكثيرة ببلاد يدين اهلها بغير الاسلام من شعائر العبادة ونظم الجماعة ما فيه مهابة ورهبة ونظام . ولقد حضرت صلاة الجمعة في بلاد اسلامية شتى . ولكني لم ار في شيء من ذلك ما قد يقرب مظهره وقوة روعته ، وفي جمعه بين الحرية والنظام وبين الاعتداد بالذات والاسلام لله مما رأيت في صلاة الجمعة بالمسجد الحرام ولم يطبع شيء من ذلك كله بغير الاثر العميق في نفسي ما طبعته صلاة الجمعة بالمسجد الحرام من اثر بالغ عمقه ..» .

ثم يحدثنا عن الكعبة .. ومقام ابراهيم .. ومن بعدها زار آثار مكة، ومنها دار الأرقم ودار ابي سفيان ، وغيرها من الآثار ، ويזור غار حراء وكم كان **الدكتور هيكل** فنانا حين يقدم بقلمه صورة ما شاهده عند حراء هذا المكان المقدس فيقول : «وحسبك أن تقف قبالة حراء وأن تتأمله لتذكر هذا المشهد كله وتراه مرتسما أمامك وكأنه حدث منذ عهد قريب . فها هو ذا محمد يسير وحيدا منفردا حاملا من الذات ما ينوء رجل بحمله يخترق طرق مكة من جنوبها. الشرقي حيث يقع اليوم شعب علي ، وحيث كانت دار خديجة الى شمالها الشرقي حيث يقوم هذا الجبل وها هو ذا على سفح حراء يصعد اليه وسيماء التفكير مرتسمة على قسماط محياه وليس فيما حوله من اسباب الحياة ما يرفه عن تفكيره او ينبهه الى جديد في الحياة ويستمر تصعيده وزاده معه حتى يبلغ قمة الجبل .. هنالك يجد ماء المطر القليل قد اختزنته بعض أخايد شعابه ويجلس على مقربة من هذا الماء ومن غار قريب منه هو مأواه اثناء نومه ويجيل بصره فيما حوله من خلق الله ..» .

ثم يزور بعد هذا غار ثور .. ذلك الغار الذي احتفى به النبي صلى الله عليه وسلم من عدوه حين أزمع الهجرة الى المدينة ، ثم يقوم بجولة في ظاهر مكة وبينها يرى آثار اسلامية جد عظيمة ما زالت تحمل آثار وبصمات رجال الصدر الاول من الدولة الاسلامية .

ينتقل بنا الى جزئه الثالث وهو حول الطائف وآثاره واول ما يحدثنا عنه هو طريق الطائف ووسائل المواصلات ومنها السيارات والدواب ، ثم يصل الى الطائف هذه المدينة التي تعتبر من أقدم المدن في بلاد العرب ، ولعل **الدكتور هيكل** لا يغلو من أن يحسبها هكذا أقدم مدينة في بلاد العرب اذا كانت هي بالفعل أقدم مدينة كما يروي المتقدمين من كتاب المسلمين ومفكريهم .

وينتقل الى اسواق العرب . ولا يقصد بها اسواق العرب في العصر

الحديث ، ولا عن اسواقهم في الجاهلية او صدر الاسلام وانما يقصد اسواقا ثلاثة هي (عكاظ) و(مجنة) و(ذو مجاز) .

والجزء الرابع وفيه يصف لنا طواف الوداع ويظل في هذا المكان العظيم وقتا من بعده يذهب الى مدينة الرسول حيث يقدم الجزء الخامس وأول ما يتحدث فيه كان عن المسجد النبوي الشريف من بعده يحدثنا عن الآثار المقدسة الموجودة في المدينة وأمام الحجرة النبوية الشريفة هذه التحية : السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته ! نشهد ان نبي الله ورسوله قد بلغ رسالة ربه وجاهد في سبيله حتى أتم له النصر لدينه ، وانه وفي بوعدة وأمر الانعبد الا الله وحده لا شريك له ثم سلم على الصديق ابو بكر والفاروق عمر المدفونين في حجرة مجاورة . والحديث عن بدر وشهادتها يبدأ به الجزء السادس من الكتاب الذي ينهيه بالحديث عن الحياة الروحية والمادية والفرق بينهما .

وباختصار . . «في منزل الوحي» تظهر لنا نظرة الدكتور هيكل الصحفية حيث يجعل القارئ يقوم معه برحلة الى هذه البلاد المقدسة من لحظة عزمه السفر ونيته ووصوله الى هذه البقاع المقدسة الى عودته وتفكيره اثناء ذلك في الحياتين المادية والروحية حيث يقول : «اما وقد شاهدت من مظاهر الحياة الروحية حينما سرت في اثر النبي العربي الكريم ما شهدت ورايت كيف فعل الايمان الاعاجيب تجب في مواطن لولاه ما كان للانسان بها طاقة . فما بال قوم في عصور وبلاد مختلفة جحدوا الحياة الروحية وكفروا بفضل الايمان فكان ذلك عنادا منهم وجهلا أم اضلهم هواهم وغرهم بالله الفرور ولولا ذلك لراوا من آيات الله ، ومن فضله على عباده المؤمنين ما لا يفيب عن تأمل في خلق الله ومن القى السمع وهو شهيد . .» .

الصديق أبو بكر

المعروف ان الدكتور هيكل كان يضم لأبطال الاسلام الاوائل قدرا من الحب والاعجاب لا كشخصيات كاملة الايمان فحسب بل كشخصيات تاريخية استطاعت ان تقيم امبراطورية عظيمة تثير الدهشة وتدعو الى العجب يستوي هذا الحديث بالنسبة لأبي بكر صديق الرسول وخليفته وحزمه الذي قضى على الردة اذن بالفتح الاسلامي لتكوين الامبراطورية ونشر الدين الاسلامي الذي ارسل الى الناس كافة . . كل هذا حدث في

ثلاث سنوات اضطربت في التاريخ لها كتب الرواة واهل الاخبار بالاضافة الى قلة ما يروى عن عهده . . كل هذا يجعلنا نقدر مجهود الدكتور هيكل في التاريخ لهذا العصر .

وكان الصديق ابو بكر في رأي هيكل صفي محمد عليه السلام وخيله . وكان أكثر اصحابه اتصالا به وكان لذلك أكثرهم تتبعاً لتعاليمه وهو بعد ذلك رجل رقيق الخلق ، رضي النفس وإليه ينسب عشرات الألوف بل ومئاتها من المسلمين المنتشرين في انحاء الارض ، ثم السى جانب رفته ورفعته الخليفة الأول وهو الذي أقر الإسلام حين حاول المرتدون من العرب ان يقضوا عليه . ولهذا فحين يقدم الدكتور هيكل كتاباً عن الصديق ابو بكر فانه بذلك يكون قد مهد الطريق لكتابة تاريخ هذه الامبراطورية كله او بعضه . ولهذا تناول سيرته من اولها . . من قبيلته وأبويه وصباه وصفاته ، وأخلاقه واشتغاله بالتجارة وصلته بالنبي صلى الله عليه وسلم قبل الإسلام ثم اسلامه ، ووقوفه الى جانب النبي في غزواته وموقفه العظيم بعد موت النبي حين تبلبل العرب وارتدوا ثم تمهيداً للفتح وللإمبراطورية الإسلامية الكبرى حين تم في عهده فتح العراق والشام وكيف كان ينظم حكومته تلك التي كانت تعمل ثم مرضه واستخلاف عمر بن الخطاب من بعده .

ولابي بكر عظمة يكفي ان تذكر ما حدث في عهده لتتأكد من هذه العظمة ان فيما رواه المؤرخون من وقائع عهد ابو بكر ما ينطوي على عظمة نفسية تثير الدهشة بل الإعجاب بل الأكبار والجلال فهذا الرجل الوديع السمج تنطوي نفسه على قوة هائلة لا تعرف التردد او الإحجام وعلى قدرة ممتازة في بناء الرجال وفي إبراز مواهبهم .

ويتساءل الدكتور في كتابه اين كانت عبقرية ابي بكر اثناء حياة الرسول ويجيب قائلاً :

عدت بالذاكرة الى سيرة ابي بكر قبل خلافته واستحضرت مواقفه من رسول الله فبدت لي في ثوب جديد من الجلال تحيط بها هالة من عظمة تواضعت الى جانب عظمة رسول الله لكنها برزت امامي بكل بهائها وجلالها حين قرنت صاحبها الى سائر اصحاب رسول الله ومن اتبعه من المسلمين فابن مواقفهم على جلالها وعظمتها ، من مواقفه اول الرسالة وحين كانت قريش تنال من الله رسول بالاساءة والاذى . وحين كان حديث الاسراء وأول الهجرة وفي مكافحة دسائس اليهود بيثرب ان كل موقف من هذه المواقف لكفيل وحده بان يؤرخ لرجل وأن يثبت اسمه في

كتاب الخلود وعظمة ابي بكر مع ذلك هي العظمة الصامته التي تأتي ان تتحدث عن نفسها لانها عظمة الروح وعظمة الايمان الحق بالله وبما أوحى الى رسله .

ثم يتساءل الدكتور هيكل بعد ذلك عن الجوانب الاخرى التي جعلت من ابي بكر عظيما وعبقريا ومنها حسن رايه وبعد نظره فهو حين ينعكر في غزو الفرس وفي غزو الروم يفكر جيدا في تكوين هاتين الامبراطوريتين اللتين قامتتا على حكم الفرد وعلى نظام الطوائف وعلى التفاوت بين الناس وهذا في واقع الامر بعد نظر منه .

وحين يحدثنا الدكتور هيكل عن عهد ابي بكر وما يتميز به وعسب الصعاب التي صادفها في بداية عهده والتي اثارت مخاوف المسلمين . عن كل هذا يحدثنا الدكتور هيكل فيقول : «وانا اقصد ما أقول حين أذكر ان عهد الصديق له ذاتيته الخاصة وتكوينه التام فهو على اتصاله بالرسول وعهده يمتاز بطابع يشخصه في عهد الرسول كان عهد وحي من عند الله اكمل الله به للناس دينهم واتم عليهم نعمته ورضي لهم الاسلام ديناً» .

اما عهد ابي بكر فكان فترة الانتقال العصبية الدقيقة التي تربط بين عهد الرسول وعهد عمر وتميز مع ذلك عن كل منهما ، بل تتميز عن كل عهد عرفه الناس في تاريخ الحكم واستقراره وفي تاريخ الاديان وانتشارها .

في هذه الفترة الدقيقة صادفت ابا بكر صعابا بلغت من الشدة ان اثارت مخاوف المسلمين جميعا في اول عهده فلما تغلب بفضل ايمانه عليها وامده الله بالتوفيق والنصر فيما تلاها تولى عمر بن الخطاب سياسة المسلمين فدبّر امرهم واقام بينهم عدلا ووطد قواعد ملكهم وجعل دول العالم تدين طائفة لسلطانه .

كذلك من دلائل عظمة ابي بكر قضاؤه على ثورة الردة تلك التسي استطارت عقب وفاة الرسول في بلاد العرب جميعا بسرعة مروعة كما تستطير النار في الهشيم وبلغت انبأؤها اهل المدينة ممن حول ابي بكر بعد ان بايعوه فتولتهم الدهشة واختلفوا فيما يصنعون وها هو عمر بن الخطاب وقومه يرون الا يقاتلوا الذين منعوا الزكاة ما داموا يشهدون (ان لا إله الا الله وان محمدا رسول الله) لكن ابا بكر أصر على قتال من منعوا الزكاة، كما أصر على قتال من ارتدوا فكانت حروب الردة التي استمرت عاما وبعض عام .

وعظمة **أبي بكر** تبدو أيضا في هذه الاسوة الروحية التي التمسها **أبو بكر** في رسول الله والتي جعلت للمسلمين الانتصار على المرتدين من سائر العرب قد دفعت الى نفوس المسلمين جميعا حمية سمت بهم الى الايمان بانهم لا غالب لهم من دون الله وحببت اليهم الاستشهاد في سبيل الحق وجعلتهم يرون هذا الاستشهاد نصرا دونه كل نصر .

والدكتور هيكل يوضح القوة الروحية للايمان عند **أبي بكر** حين يقارن عهده بعهد الرسول فيقول «كان المسلمون في عهد رسول الله مطمئنين الى النصر لان الله وعد به رسوله فكان يمدّه بالملائكة وكان يوحى اليه ما يحقق وعده جل ثناؤه . اما في عهد **أبي بكر** وقد انتهى الوحي باختيار الله اليه رسوله فقد أصبح الايمان وحده وأصبح التأسى برسول الله وبخليفته في البسمو بهذا الايمان الى ما فوق كل اعتبار في هذه الحياة الدنيا وأصبح الاستشهاد في سبيل هذا الايمان سر القوة وسر النصر وسر الرقي بما تنطوي عليه نفوسنا من معان انسانية رفيعة الى غاية الكمال الانساني » .

والدكتور **هيكل** حين يقدم لنا **أبا بكر** الخليفة والصدیق يقرر ان هذا الخليفة ادرك **بإلهامه** ان الاسلام دين مساواة بين الناس جميعا فالدعوة به لم توجه الى قوم بعينهم وانما وجهت الى الناس كافة وقلم اصطفى رسول الله في حياته موالى رفعمهم الى اعز مكانة واسماها كما أقر جماعة من العجم على حكم العرب . فسلمان الفارسي كان من خاصته المقربين و**زيد بن حارثة** مولاه الذي اشترته خديجة ثم وهبته له فأعتقه وتبناه . اذن فالاسلام حين سوي بين هؤلاء جميعا دين مساواة .

وكذلك ادرك **أبو بكر** كما يقرر الدكتور **هيكل** **بإلهامه** ان الاسلام امبراطوري في جوهره فالدعوة اليه لم تنحصر في العرب بل هي دعوة الى الحق موجهة الى الناس كافة في مشارق الارض ومغاربها . اما ذلك مداها وقد وجه النبي رسله الى الملوك والامراء يدعوهم الى دين الله حق على كل من آمن بهذا الدين ان يدعو اليه وأن ينشر كلمته هدي للناس ورحمة ولكل مسلم في رسول الله اسوة حسنة . لقد اذاع رسول الله الدعوة في الناس على اختلاف اجناسهم . وعلى هذا الاساس بنسى **أبو بكر** نظريته في ان الاسلام امبراطوري في جوهره .

هذه المبادئ الجوهرية التي قامت دعوة النبي على اساسها والتي ادركها **أبو بكر** ادق الادراك **بإلهامه** هي التي طوعت للصدیق ان يزل ما استفتح عهده من صعاب وان يتغلب عليها وهي التي اسرعت كما يؤكد

الدكتور هيكل «بالامبراطورية» الاسلامية الى انحاء العالم لتظلل امما كثيرة .

الفاروق عمر

يقدم **الدكتور هيكل عمر بن الخطاب** بقوله «ليس في التاريخ الاسلامي بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل تردد الالسن اسمه مثلما تردد اسم **عمر بن الخطاب** وهي تردده وتقرن به في اعجاب واكبار ما عرف عن عمر من جليل الصفات وعظيم المواهب» .

والحق ان **عمر** كان له من السمات والصفات ما يجعله اهلا لهذا المركز الذي وضعه فيه **الدكتور هيكل** فاذا ذكر الناس الزهد في الدنيا مع القدرة على النهل من انعمها ذكروا **زهد عمر** واذا ذكروا العمل المطلق غير مشوب بشائبة ذكروا **عدل عمر** ، واذا ذكروا النزاهة لا يفرق صاحبها بين اقرب الناس وابعدهم عنه ذكروا **نزاهة عمر** ، واذا ذكروا العلم والفقہ في الدين ذكروا **فقه عمر** ودينه .

والدكتور هيكل يرجع كل هذا الى قيام الامبراطورية الاسلامية في عهد عمر فقد خلف عمر ابا بكر على امانة المؤمنين حين فرغ ابو بكر من حروب الردة وحين كانت جنود المسلمين تواجه الفرس والروم على تخوم العراق والشام فلما قبض **عمر** كانت الامبراطورية الاسلامية قد اشتملت العراق والشام معا وتخطتهما فاشتملت فارس مصر وبذلك بلغت حدودها الصين من الشرق وافريقية من الغرب وبحر قزوين من الشمال والسودان من الجنوب وقيام هذه الامبراطورية كما يقرر الدكتور هيكل في صفحات كتابه معجزة لا ريب فيها .

فاذا تمت هذه المعجزة في عهد عمر ويتوجيها فهو لا ريب رجل عظيم وقد بدت بوادر هذه العظمة في عهد رسول الله وفي عهد ابي بكر ثم ضاعف نصر المسلمين من بعدهما قدرها كما زادها على مر العصور وازدادت اليها فقد تبين الناس على تعاقب الاجيال ان هذه الامبراطورية لم تكن وليدة عبقرية حربية تبقى الامبراطورية ما بقيت وتزول بزوالها بل كانت قائمة على اساس قوي من خلق متين وحضارة سليمة الاساس .

ويضرب **الدكتور هيكل** مثلا قائلا «فاذا صح ان يشيد الناس بعظمة يوليوس قيصر والاسكندر الاكبر وجنكيز خان ونابليون لانهم اقاموا من

الامبراطوريات مما اقاموا فأحرى بهم ان يكونوا اكثر اشادة بعظمة عمر بن الخطاب واكبر قدر لآثارها» .

تمت المعجزة بقيام الامبراطورية الاسلامية في عهد عمر فكان كان المسلمون الى يوم استخلف يخشون الفرس والروم ولذلك ترددوا حين نذبهم عمر الذهاب الى العراق يواجهون الفرس فيه وكان لهم من العذر ان اسم فارس يزلزل القلوب والاسماع وكان جند المسلمين قد تركوا العراق بعد ذهاب خالد بن الوليد الى الشام بأمر ابي بكر وأقام الناس على ثناقلهم اياما ثم لبي ابو عبيدة الثقفي دعوة عمر وذهب في بضعة آلاف ليلقى جنود كسرى فنكب في غزوة الجسر اذ مات وانهمز جيشه ولم تزعزع هزيمته من عزيمة عمر بل زادته إقداما ودفعته لينهض بنفسه على رأس المسلمين يريد مواجهة الفرس ليمحو عار تلك الهزيمة ولقد كان فاعلا لولا ان صرفه اولو الراي عما اراد . عند ذلك أرسل مسعد بن ابي وقاص مكانه وظفر سعد بالفرس في غزوة القادسية طفرا حاسما فتح له ابواب عاصمة الفرس وفتح المسلمون ابواب فارس . وفي هذه الاثناء كان ابو عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد يسيران الى الشام يردان هرقل عاهل الروم على أعقابهم ويدفعانه دفعا ليفر الى عاصمة ملكه .

تم ذلك ولما تنقض من خلافة عمر سنتان ومن يومئذ حالف النصر اعلام المسلمين حينما ساروا ففتحوا المدائن وفتحوا بيت المقدس ثم تخطوا العراق الى فارس وتخطوا الشام الى مصر كما استقر لهم الامر فيها . وكذلك شاد عمر الامبراطورية الاسلامية في عشر سنوات لتستقر في العالم وتوجه حضارته الاجيال والقرون .

اذ كان للدكتور هيكل الحق في ما قاله بأن الالسن تردد اسم عمر وان تذكر من جليل صفاته وعظيم مواهبه ما يشير في النفس غايبة الاعجاب والاكبار .

وقد تناول الدكتور هيكل في كتابه هذا كما تناول «في حياة محمد» وفي «الصديق ابي بكر» نواحي الحياة العربية لذلك المهد رأى من تناولها ما يكمل به ما عرض له من بحث ولكن لم يتناولها بدراسة مستفيضة كما يعترف قائلا «لأنها لم تكن غرضي الذي قصدت اليه به تناولتها بالقدر الذي يتم به هذا الغرض» .

وهذا الكتاب كما يقول عنه صاحبه حلقة ثالثة بعد «حياة محمد» و«الصديق ابو بكر» لكنها تختلف عن الحلقتين الاوليين كما تختلف كل واحدة من هاتين الحلقتين عن الاخرى اختلافا ظاهرا . هذا مع توالي

الحلقات الثلاث كل واحدة عن سابقتها كما تخرج الجذور من البذور ثم ينبثق الجذع بأسقا من البذور ثم تتفرع الاغصان من الجذع . وقد تدبل الاغصان ويبقى الجذع مع ذلك قوى الحيوية . فاذا كانت الامبراطورية الاسلامية - على حد قول الدكتور هيكل في كتابه هذا - قد انقسمت فلا يزال الاسلام الذي انشأها قدبرا على ان ينشئ وحدة انسانية عظيمة تلائم روح العصر ونظامه .

والكتاب صورة مجملة من حياة عمر ومن تصرفاته مفصلة تفصيلا صورة تدلك على ما كان لشخص عمر من فضل في بناء الامبراطورية العظيمة في هذا الزمن الوجيز الذي قامت فيه وتكشف لك عن السبب الذي ابقى على التاريخ اسم هذا الرجل العظيم يتحدث عنه على مر الاجيال في مشارق الارض ومغاربها حديث ا كبار واعجاب .

غير ان هناك ملاحظة ويجب ان نذكرها وهي ان ما فصل في هذا الكتاب لم يتخط التاريخ السياسي لهذه الفترة القصيرة من حياة المسلمين الاولين اما ما جاء في فصوله عن حياة العرب الاجتماعية وعن الفرس والروم فانما جاء مجملا اراد به المؤلف ايضاح هذا التاريخ السياسي ولم يقصد به الى تفصيل ما حدث من تطور الحياة الاجتماعية في بلاد العرب بقيام الاسلام ولا الى تفصيل الحياة السياسية نفسها في البلاد التي فتحها المسلمون . كذلك لم يتناول الفصل الذي افرد لاجتهاد عمر تفصيل هذا الاجتهاد . وقد تناول بعض العلماء والباحثين في عصرنا طائفة من هذه النواحي ببحوث ممتعة ايما امتاع .

عثمان بن عفان

بدا الدكتور هيكل هذه الدراسة عن عهد عثمان بن عفان سنة ١٩٤٥ قاصدا بذلك المعنى في دراساته الاسلامية التي بدأها بكتابه «حياة محمد» ولقد كانت ظروف حياته السياسية منذ خاض غمارها وزيرا يتحكم الى حد بعيد في انتاجه الفكري والادبي . فقد كان من خطته الا يصدر كتابا في اثناء توليه الوزارة . هذا الى جانب ان وقته في اثنائها لم يكن يتيح له ان يستكمل ما يكون قد بدأه من دراسة فيضطره ذلك لارجائها الى الوقت الذي يتفرغ لها فيه . وكان هذا شأنه ابان توليه رئاسة البرلمان . وقد ادى ذلك الى ارجاء دراسة ما تبقى من عهد عثمان عاما بعد عام

حتى أصبح الرجوع اليها بعد ذلك أمرا غير ميسور .
على ان ثمة عاملا آخر وقف الدكتور هيكل عنده طويلا قبل ان يمضي
فيما كان قد بدأه من هذه الدراسة وأدى به كذلك الى ارجاء النظر
فيها - كما يقول ابنه الاستاذ احمد هيكل - ذلك ان الجدل بين الفرق
الاسلامية في امر خلافة عثمان واحقية علي بالخلافة لما ينتهي رغم
انقضاء ثلاثة عشر قرنا او تزيد منذ ولي عثمان امر المسلمين ورغم ما
أصاب نظام الخلافة نفسه من تحول لم يبق لها من معالمها غير اسمها ثم
انتهى بها الى الاندثار في أعقاب الحرب العالمية الاولى .

فقد بلغ الامر ببعض هذه الفرق ان حاولت التشكيك في شرعية خلافة
ابي بكر وعمر ، وراوا ان الخلافة كانت حقا لعلي اوحى له بها رسول
الله من بعده .

وهذا التطرف الذي تذهب اليه تلك الآراء معيب بغير شك لانسه
يتعارض تماما مع ما يدعو اليه الاسلام من ان المؤمنين به سواسية وانهم
لذلك يتساوون في الحقوق والواجبات العامة ، وولاية الامر من بينها لمن
كان أهلا لها .

وقد وقف الدكتور هيكل عند هذا الجدل الذي بلغ حد الخصومة
العنيفة وبحثه في استفاضة وأغلب الظن انه لم يقطع فيه برأي او يطمئن
الى نتيجة فلو انه انتهى الى شيء بعد ذلك لكان وأفعاله الى متابعة هذا
البحث ونشره وان أدى ما يرجحه فيها من وجهات نظر الى جسد لا
يعرف مداه .

على انه لا ريب في ان ما ذهب اليه البعض من ان الرسول أوصى
لعلي بالخلافة من بعده . ومن ان ذرية علي أحق . لذلك بها لم يكن
ليزعزع ثقة الدكتور هيكل في حق المسلمين في اختيار حاكمهم اختيارا
حرا مبرا من كل قيد ، او من اعتقاده بأن الخلاف في ذاته كان ضرره
على المسلمين اضعاف نفعه ان كان له نفع على الاطلاق .

والمتتبع لخطة الدكتور هيكل في تأريخه للرسول وخليفته الاولين
وميله في ذلك الى الطريقة التحليلية يرى انه لم يجد في هذا الكتاب عنها .
بل انه ازداد تمسكا بها - وركونا اليها .

فهو قد تناول في الفصل الاول منه ملابسات اختيار الخليفة الثالث
للقيام بأعباء الحكم والناس لم يفيقوا بعد من الدهول الذي أصابهم لمصرع
امير المؤمنين عمر بن الخطاب وهو لم يقتصر في هذا الفصل على اثبات ما
حدث من اجتماع الستة الذين حصر عمر فيهم الخلافة من بعده ، وما

اثير فيه من مناقشات بل انه اشار الى منشأ فكرة الشورى عند **عمر** وكيف انه تردد بين ان يترك امر تعيين الخليفة للصحابة يتشاورون فيه بعده اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبين ان يعين خليفته اقتداء بأبي بكر حين جمع رأي الصحابة عليه . ولقد كان التطور الذي شهدته الدولة الاسلامية منذ عهد الرسول ومنذ عهد ابي بكر يقتضي ألا يترك الامر رسلا ، فانهى **عمر** الى نظام الشورى نواة لنظام تشريعي مرن لاختيار الخليفة يتطور بتطور ظروف الدولة وأوضاعها السياسية . وقد اتاحت المرونة التي تميز بها هذا النظام ان يتسع نطاق المشاورات والا يقتصر على الستة الذين عينهم **عمر** وأمكن بذلك التوفيق بين الاتجاهات المتعارضة توفيقا كان لا بد منه ليضمن الشورى مبايعة الناس مسن يختارونه من بينهم . وقد اعطى وصف هذه المشاورات وموقف الناس منها ولهفتهم على نتائجها لهذا الفصل حيوية تكاد تشهد معها أحداث ذلك اليوم العظيم .

وإذ تجتمع البيعة ل**عثمان** ، يبحث **الدكتور هيكل** في ملامح الخليفة الجديد وفي طباعه وفيما يمكن ان تؤثر فيه هذه الطباع في سياسة الدولة في عهده . ذلك ان لشخصية الحاكم في جميع العصور اثرا بالغا في سياسة الدولة وتصريف امورها . وقد شهد المسلمون من عدل **عمر** وحسن سياسته ما يعكس كثيرا من طباعه . افسىكون ل**عثمان** في سياسة الدولة من الاثر ما كان ل**عمر** ؟ ذلك ما سينكشف خلال حكمه وخلال ما يلي من فصول هذا الكتاب .

وقد تابع **عثمان** اول عهده سياسة الرسول والشيخين ما استطاع الى ذلك سبيلا ، لعهد قطعه على نفسه حين بويح ان يجري على هذه السيرة . ويتمثل ذلك بوضوح في سياسة الفتوحات في عهده . فقد كانت تلك السياسة امتدادا لسياسة **عمر** وان كان كل ما حدث من انتفاض بعض الولايات وثورة بعضها قد حتم على **عثمان** ان يسير الجيوش لقمعها والقضاء عليها . كذلك كان حتما عليه ان يبادر الى تجهيز أسطول المسلمين بالشام ومصر ليرد المغيرين على أعقابهم ، رغم ان **عمر** كان قد نهى عنه اذ لم يكن للعرب عهد بالبحر من قبل . ولعل ما اتاه **عثمان** من ذلك ومن مثله لم يكن مخالفة للعهد الذي قطعه على نفسه . وانما املته ظروف لو ان **عمر** شهدا لرأي فيها مثل ما رأى **عثمان** ، وقد فصل **الدكتور هيكل** في الفصل الثالث من الكتاب سياسة **عثمان** هذه بما يشهد بذلك ويؤيده . على ان ما خالف به **عثمان** **عمر** لم يكن ليثير عليه احدا لو انه اقتصر

على ما كان ضروريا من ذلك - الا انه - وولاته - عمدوا ، ازاء اتساع رقعة الامبراطورية وازدياد فيثها وخراجها الى نوع من الحياة لم يألغه الناس ، كما انه سلك في تولية هؤلاء الولاة وعزلهم طريقا لم تكن لترضي الكثير عنها . والراجح في هذا الشأن ان عثمان بن عفان ابقى عمال عمر على ولاياتهم العام الاول من خلافته انفاذا لوصية سلفه ثم انه استبدل بهم غيرهم . اكثرهم من ذوي قرياه ليضمن ولاءهم . ولو لم يكن ذلك من سيرة عمر في شيء . بل ان هذه القرابة كانت تكفي عمر الا يولي صاحبها من لا يتهم في نزاهته .

ولما توفي الدكتور هيكل قام الدكتور جمال الدين سرور استاذ التاريخ الاسلامي بكتابة الفصل الاخير عن نهاية حياة عثمان ، ومنه يبدو جليا ان الفرقة بدأت تدب في صفوف المسلمين في اواخر عهد عثمان وان سائر الولايات بدأت تعبر عن استيائها بشتى الوسائل وان تضامن من بقي من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ظل مع ذلك قائما قويا ، وتبلور هذا التضامن في رفضهم ان يبايع الثائرون احدهم للخلافة عملا بقول الرسول : «من دعا لنفسه او لاحد وعلى الناس إمام فعليه لعنة الله فاقتلوه» .

الامبراطورية الاسلامية

اراد الدكتور هيكل ان يؤرخ تأريخا صحيحا للامبراطورية الاسلامية من منشئها الى بداية قيام الدولة الاموية ويظهر هذا التاريخ بصورته المشرقة باعتباره ثمرة لغرس محمد ودينه ليكون مادة طيبة للوحسي والاستلهام لحضارة جديدة اساسها ان معرفة الماضي وسيلة لتطوير الحاضر وتحسين المستقبل على النحو المشرق الذي يرجى للاقطار العربية .

فسجل اول ما سجل لهذه الامبراطورية في كتابه الاول عن الاسلام «حياة محمد» ويبدو انه اراد ان يخصص لها كتابا . وهنا قدم كتاب «الامبراطورية الاسلامية والاماكن المقدسة» والكتاب من عنوانه تجتمع بين دفتيه مباحث في موضوعين اساسيين .

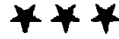
• اولهما : نظام الحكم في الاسلام .

• وثانيهما : الاماكن المقدسة في الشرق .

وقد بيّن الدكتور هيكل في الجزء الخاص بالمبادئ العامة لنظام

الحكم ان ان نظام الحكم الذي يتفق مع مقررات الاسلام هو النظام الذي تكفل في ظله الحريات ويتخذ لنفسه اساسا من رضى المحكوم عمن الحاكم . وقد تناول الجزء الثاني فكرتي الاشتراكية والديمقراطية في الاسلام وقد خلص الدكتور هيكل الى ان الاشتراكية الاسلامية هي التي تقوم بالنفس على انها من فرائض الايمان .

وفي الجزء الثالث تناول الدكتور هيكل بالبحث المبادئ الرئيسية للحرية الشخصية التي قامت على اساسها ميثاق التنظيم الدولي في أعقاب الحرب العالمية الثانية . مبينا ما بينها وبين مقررات الاسلام من صلة تقرب او تبعد بينهما ثم ينتقل بنا الكتاب الى جزئه الاخير الذي يكاد يستقل موضوعه عن الاجزاء السابقة فهو يعرض للاماكن الاسلامية في الشرق الاوسط عرضا تاريخيا اولا ثم يصف هذه الاماكن واثرها الروحي في حياة العالم متنقلا بك من مكة الى المدينة الى بيت لحم وبيت المقدس مستقر عيسى عليه السلام وموئل موسى عليه السلام . الكتاب يطوف بك في هذه الامبراطورية الاسلامية موضحا لك معالمها ومبادئها معا .



والآن لعلنا نكون على يقين من ان منهج الدكتور هيكل وكتبه اضافت الى الفكر العربي بوجه عام اساليب جديدة في البحث وللفكر الاسلامي بوجه خاص حججا قوية يستطيع ان يقف بها ضد خصومه وهذا ما كان يهدف اليه بعد عودته من اوربا حين فكر في كتابة التاريخ بأسلوب قصصي على نحو ما فعل «سير وتم سكوت» بتاريخ انجلترا .



الفصل الخامس

السلاميات العقاد

ثلاثون كتابا او تزيد .. هسي
صورة حية لفكر العقاد الاسلامي ..
فيها حياة وقوة ، فيها عظمة
وشموخ، فيها خصب ونماء ، فيها
ثورة وتمرد .. الامر الذي يجعل
العقل يهتز .. هذه الهزة القادرة
وحدها .. على انتشاله من
سطحية المعرفة الى عمق العلم ومن
ظلمة الشك الى نور اليقين .

اسلاميات العقاد

في محاضرة بجامعة الأزهر . . سأل الطلبة أستاذهم أحمد حسن الباقوري ، وكان وقتها مديرا للجامعة . . عن رايه في كتابات الاستاذ عباس محمود العقاد الاسلامية وموقفه منها كأزهري . فكان نص اجابة الشيخ الباقوري الذي نشر فيما بعد بإحدى المجلات الاسلامية الكبرى ما يلي : «الاستاذ العقاد مجاهد صادق بعيد النظر ، غيور على الاسلام والمسلمين ، غيرة عاملة وليست ثرثرة جامدة كالكثير أنواع الغيرة التي نشهدها في دنيانا الان . .» .

والاستاذ العقاد ازهري بتخرجه على ثقافة الأزهر ، وان لم يكن ازهريا بتخرجه في الأزهر . فقد كان رحمه الله بهذه الثقافة العربية الاسلامية الاصلية الاصلية الى جانب ثقافته الغربية المتينة . خير لسان للعروبة والاسلام بما كتب من كتب ومقالات ، وأذاع من أحاديث تدفع عن العربية أوهاام المبطلين وعن الاسلام شبهة المفرضين .

وقد صدر عن مدرسة الاستاذ العقاد في كتبه ومجالسه فضلاء كثيرون سوف تبرزهم الايام لتنتفع بهم امتنا أحسن الانتفاع ان شاء الله . .»
هذه شهادة واحد من طليعة المتخصصين فيما كتبه الاستاذ العقاد . وما أظن ان هناك رأي آخر يمكن ان يقال فيما كتبه الاستاذ العقاد خيرا من هذا الرأي . ولا يبقى اذن غير مناقشة ما كتبه الاستاذ العقاد في الاسلام .

ولما كان الاستاذ العقاد يختلف عن غيره فيمن كتبوا في الاسلام حيث

استخدم في تناول المادة الاسلامية ثلاثة مناهج مختلفة .. وجب ان يدرس كل منهج على حدة .

فالاستاذ العقاد حين يكتب العبقریات غيره حين يترجم للشخصیات غيره حين ينشئ الدراسات والابحاث . ولعل ما يربط بين عبقریاته وشخصیاته ودراساته وأبحاثه هي صفته كأديب مؤرخ .. وأدبه فسي التاريخ هو كأدبه بوجه عام .. هذا الادب الذي يتميز عن غيره من الآداب .. بأنه ادب الفكرة الواعية .

ولهذا فالبحث فيما كتبه الاستاذ العقاد عن الاسلام يقتضي التمييز بين تناوله للعبقریات والشخصیات والدراسات ، وهذا يقتضي ايضا تناول كل واحدة على حدة . لمعرفة منهج العقاد في كتابة الاسلاميات .

أولا : العبقریات

في البحث عن منهج للعقاد في تناوله العبقریات .. نجده يهتم أولا بل ويجهد نفسه ويرهقها لايجاد مفتاح للعبقري الذي يتعرض له . وبهذا المفتاح يفتح الاستاذ العقاد مقاليق نفس هذا العبقري ليعرف مدى عظمته وحدودها ، وما يصدر عنها من أفعال وتصرفات وقيمتها بالنسبة للانسانية عامة .

وهذا بالطبع يتطلب من الاستاذ العقاد الفهم الواعي لمفتاح هذا العبقري .. امرا يجعله يقوم بالتحليل النفسي الدقيق لهذه الشخصية التي يراها عبقرية، ثم بالاحاطة الشاملة للإبسات العصر الذي عاشت فيه . وقد يحدث ان يتشابه مفتاح احدي شخصيات مع مفتاح شخصية اخرى . وهنا يكد الاستاذ العقاد ذهنه في البحث عن اختلاف فسي السلوك الانساني - بوجه عام - لهاتين العبقريتين المتشابهتين في المدخل .

فعند البحث مثلا عن مفتاح لعبقرية عمر بن الخطاب وجده في طبيعته كجندي . ونفس هذا المفتاح «طبيعة الجندي» وحده لعبقرية خالد بن الوليد . وهنا يوضح الاستاذ العقاد الفرق بين العبقريتين حين يجعل عمر تغلب عليه من طبيعة الجندي ناحية «الروحية» ، بينما تغلب على خالد من هذه الطبيعة ناحية «الحيوية» او بعبارة اخرى كانت جنديا ابن الخطاب «موزعة حكيمة» بينما جنديا ابن الوليد «مدفوعة هاجمة» .

لكن من هو العبقرى عند العقاد ؟

العبقرى عند العقاد ؟ انسان يقيس الاشياء بمقياسه الخاص الذي يعلو على مقياس العامة ، وياخذ نفسه به ، وانه انسان لم يخلق لخدمة نفسه او أسرته او عشيرته وكفى ، بل هو من خلق لخير انساني عام ، واوتي من القوة ما يخدم به غيره ، ولو اتخذ هذا الخير الانساني العام صورة عالية او قومية او وطنية او قبلية .

والعبقرية عنده تنمو على البذل والعطاء ، ولا تتسورم بالتهب او السلب او الجور على حقوق غيرها حتى تنفجر . . باختصار عظيمة العبقرى عند الاستاذ العقاد هي التي تقول ((نحن)) ولا تقول ((انا)) . مبثورة الجذور والفروع عما حولها . . وحتى لو سمعت منها ((انا)) فلا تفهم من معناها الا ((نحن)) .

فاذا كانت هذه هي الصورة العامة لمنهج الاستاذ العقاد في كتابة الاسلاميات فان تفاصيلها منهجه في الكتابة تقول :

ان الاستاذ العقاد حين يكتب عبقرياته لا يكتفي بالعرض الفوضى او المنظم تنظيما آليا او شبه آلي ، بل ينسق الملامح البارزة في كل صورة وينفخ فيها من روحه وروح هذا العبقرى الذي يكتب عنه فيحييها في نفوس قرائه حتى يعاطفوا عبقريته ، فيجدوا في نفوسهم آثار فضل كفضلها ، ويلموا بجمل من لغتها . ومن ثم يشعر القارئ بالغبطة لانه يرى انه قد ارتفع فوق نفسه ، وحلق في أفق أعلى مما اعتاد ان يحلق فيه من آفاق . بل يمتلىء من العبقرية بأكثر مما أداه العقاد اليه . ويلقن عن آياتها اكثر مما لقنه ، ويضرب بجناحه في أفق أعلى مما اراد له العقاد ان يحلق . ذلك ان العقاد في عبقرياته لا يقصر خطابه على عقل قارئه ، بل يحرك كل حياته ، ويستجيش كل ما تشتمل عليه من عطف وشعور وخيال وبداهة وتأمل وتفكير .

والاستاذ العقاد يبرز عبقرياته كما يبرز كتاب «المآسى» أبطالهم . فيستميلون اليهم . ومن هذا التشيع لبطل المآسة تتطهر النفوس من أدائها . وهذا الجانب هو الذي يحركه الاستاذ العقاد في نفوس قراء عبقرياته فيشيعوا معه الى جانب «العبقرية التي يكتب عنها» بالقدر الذي يمضي بهم اليه وكثيرا ما يذهبون في التشيع للعظيم الى أبعد ما كان يريد العقاد . والسبب في هذا اسلوب العقاد وتعبيره عن أفكاره فما من عبقرية من عبقرياته الا وهي قصيدة شعرية ينقصها الوزن والقافية ، ولكن لا ينقصها صدق الشعور ولا جمال التعبير بل لا ينقصها التنعيم

النفسى الذي يكاد ان يدفع الانسان الى التغني بها والرقص على انتظام انغامها في النفس .

والعقاد لا يكتب حياة عبقرى او يصور صورته الا وهو داخل معه في اهابه ، متلبس به «متشكك بشكله» ، وهو يحيا معه حياته بكل ما تشتمل عليه من قوة وضعف ، فيقف على أسراره من داخل نفسه هو ، لا من مجرد ما ينسب اليه من اخبار واعمال واقوال سواء كانت صحيحة او منحولة . لذلك ترى شخصية العقاد أمامك في كل عبقرية مع شخصية صاحبها يتحركان معا .

والاستاذ العقاد لا يتحفظ في الثناء على «العبقرى» او اعماله خوفا من الاتهام بالمبالغة طالما وجد ما يستحق منه ثناءه لكن على الرغم من ثناء العقاد . فاننا نجد روح الاعجاب والعطف لا تعطل ملكة النقد عنده او تضعفها بل تراها ناشطة متوهمة بملء قواها ، فملكة النقد عنده من اقوى ملكاته وأبرزها ، وروح النقد ظاهرة جياشة في كل ما يصدر من كتابات .

وبهذا المنهج جملة وتفصيلا كتب العقاد عبقرياته وهي «عبقرية محمد» و«عبقرية عمر» و«عبقرية الصديق» و«عبقرية الإمام» و«عبقرية خالد» .

عبقرية محمد

وها هو العقاد يشرع في كتابة «عبقرية محمد» فيقدمها قائلا : «سرى القارىء ان «عبقرية محمد» عنوان يؤدي معناه فسي حدود المقصود ولا يتعداها . فليس الكتاب سيرة نبوية جديدة تضاف الى السير العربية والافرنجية التي حفلت بها «المكتبة المحمدية» حتى الان . . لاننا لم نقصد وقائع السيرة لذاتها في هذه الصفحات على اعتقادنا ان المجال متسع لعشرات من الاسفار في هذا الموضوع ثم لا يقال انه استنفد كل الاستنفاد . وليس الكتاب شرحا للاسلام او لبعض احكامه او دفاعا عنه او محاولة لخصومة . . فهذه اغراض مستوفاة في مواطن شتى ، يكتب فيها من هم ذووها ولهم دراية بها وقدرة عليها .

انما الكتاب تقدير «لعبقرية محمد» بالمقدار الذي يدين به كل انسان ، ولا يدين به المسلم وكفى ، وبالحق الذي يبث له الحب في قلب كل انسان ، وليس في قلب كل مسلم وكفى .

محمد هنا عظيم .. لانه قدوة المقتدين في المناقب التي يتمناها المخلصون لجميع الناس .. فالعقاد يبدأ بداية علمية فيقرر انه لن يعتمد على المعجزات والخوارق التي ينسبها بعض المؤرخين الى النبي ، لان عظمة النبي تظهر في اعماله وسياسته للامور اكثر ما تظهر في تلك المعجزات التي لا يتفق عليها الجميع ، والتي لا تنسجم مع رسالة محمد في تحرير العقل من ربة التقليد والوثنية .

وهنا يلتقي العقاد مع الدكتور هيكل في عدم تعويلهما على الخوارق ولكنهما اذ يتفقا على ان كل ما جاء به محمد يتفق مع العقل ، فهما يختلفان في شيء آخر ، هو طريقة الرسول في مخاطبة العقل .
الدكتور هيكل يرى ان هذا الخطاب كان خطابا مباشرا يتجه الى عقول الناس التي تملك من الفطرة والتجربة ما يمكنها من التفريق بين الحق والباطل .

والاستاذ العقاد يرى ان هذا الخطاب كان غير مباشر لانه كان يتجسد في اعمال النبي وسلوكه ، اي في شخصه العظيم .

واذا كان بعض المفكرين المسلمين ومنهم الامام محمد عبده والدكتور هيكل يرون ان ايمان الانسان بالله سابق على وجود الانبياء لانه كيف يصدق رسالة النبي اذا لم يؤمن اساسا بوجود الله الذي يبعث النبي ، وكان العقاد يرى ان محبة الناس لشخص الرسول كانت سابقة في قلوبهم وارواحهم لحب العقيدة والايان ، او انهم احبوا الرجل الذي تمثلت فيه العقيدة على اكمل مثال ، فانبهروا بالرجل المثال وآمنوا بالعقيدة التي بدت امامهم ممكنة بل متحققة .

والانسان العبقري او الانسان البطل هو محور اهتمام العقاد كله . العقاد الشاعر والمفكر والناقد والقصاص والسيامي ، وحتى العقاد الانسان . فالبطولة الانسانية عند العقاد تقف في مقابل الضرورات الطبيعية والقوانين الحتمية المألوفة . الانسان في مقابل الطبيعة . الفكر والارادة في مقابل الغريزة والضرورة . ومن هذه الفكرة التي ربما تآثر فيها بالفلسفة المثالية الالمانية تفرع كل افكار العقاد .
فالعقل لخلق المادة وليس العكس «لان المادة لا توجد ما هو افضل منها وفاقد الشيء لا يعطيه» .

والله موجود ، لان «تفسير الخليفة بمشيئة الخالق العالم المريد اوضح من تفسير يقول به الماديون ، وما من مذهب اطلعت عليه من مذاهب الماديين الا وهو يوقع العقل في تناقض لا ينتهي الى توفيق ، او

يلجئه الى زعم لا يقوم عليه دليل ، وقد يهون معه تصديق اسخف الخرافات والاساطير فضلا عن تصديق العقائد الدينية. وتصديق الرسل والدعاة . فالقول بالتطور في عالم لا اول له ، خرافة تعرض عنها العقول لان ابتداء التطور يحتاج الى شيء جديد في العالم ، وحدث التطور بغير ابتداء تناقض لا يسوغ في اللسان فضلا عن الفكر او الخيال . والقول بالارتقاء الدائم عن طريق المصادفة زعم يهون معه التصديق بالخرافات وحوالق العادات في تركيب الاجسام او الاحياء» .

العقاد يرى النبي عظيما وعبقريته هي التي فتح بها قلوب الناس كما فتح البلاد والامصار هي سليقة نفسية وطبيعة فطرية لا يسد للبيئة او للمجتمع او للعصر في صنعها لذلك لم ينس ان يمهد لها بفصلها عن اوضاع العالم الذي ظهر فيه **محمد** واوضاع القبيلة والاسرة التي نشأ فيها .

والعقاد يرفض رفضا قاطعا كل ما يقال عن تأثير **محمد** بما كان يضطرب به العصر من عقائد وافكار ، او انه كان التعبير الفذ عن جملة التيارات الجديدة التي ادركها ولبهاها . يقول **العقاد** لا . انه لم يكن ثمرة عصره . بل كان رد فعل العصر . لقد ظهر بالرغم من هذا العصر الذي لم يكن الا ما يناقض محمدا ويناقض رسالته . كان العصر عصر شرك والاسلام دين توحيد ، وكان عصر صراع قبلي عشائري والاسلام حركة جمعت في امة «وكان عصر صراع قومي والاسلام دين انساني ، وكان عصر قلق واضطراب وقد جاء الاسلام ليحل محل ذلك الامن والسلام ، وكان عصر خرافة ودجل والاسلام يخاطب العقل ويستند اليه .

والاستاذ **العقاد** يقارب بين قيادة النبي للحروب وبين قيادة اساطين الحرب ، في العصر الحديث ويثبت سبق النبي الى كثير من طرق الحرب الحديثة مثل سبقه لنابليون في اهماله لحصار المدن واعتماده على مهاجمة القوة الضاربة للاعداء وتحطيمها بهجمة سريعة .

ولقد كان **نابليون** يقول : ان نسبة القوة المعنوية الى الكثرة العددية كنسبة ثلاثة الى واحد ، فسبقه النبي الى الاعتماد على القوة المعنوية حين جعلها كنسبة خمسة الى واحد كما حدث في غزوة بدر .

كما ان النبي القائد قد سبق **هتلر** في وسيلة من وسائل الحرب الحديثة وهي اسقاط بعض الفدائيين وراء صفوف العدو يرسلون أخباره ويوقعون الرعب في صفوفه ، وهو ما فعله النبي حين ارسل عبد الله بن جشل ليأتي اليه بأخبار قريش .

وإذا كان النبي قد سبق نابليون وهتلر في بعض الخطط الحربية ، فقد سبق بعض ساسة العصر الحديث وزعمائه في خططهم السياسية . . سبق **غاندي** في فكرة «المقاومة السلبية» وذلك في عهد الحديبية الذي تعاهد فيه على ترك أعمال العنف بين المسلمين وبين قريش الى حين . كما يسبق الدساتير الحديثة التي تنص على ان «الامة مصدر السلطات» حين يقول «كما تكونوا يولي عليكم» ويسبق احرار الفكر المعاصرين في قوله : «ان الله تجاوز لامتي عما حدثت به نفسها ما لم تتكلم به او تعمل به» . . ويسبق المصلحين الاجتماعيين في تقريره لحقوق المرأة . والعقاد يقارن بين ما يقرره الاسلام للمرأة من حقوق بما في ذلك حقها في ان تعلم الناس الدين وبين حقوق المرأة في المجتمعات الحديثة خلال القرن الماضي فيرى ان المرأة المسلمة كانت الى القرن الماضي تتمتع بما لا تتمتع به المرأة الاوروبية ، فمنذ بضعة وثمانية عاما فقط كانت المرأة الاوروبية محرومة من حقها الكامل في ملك العقار وحرية التقاضي وهو ما قرره الاسلام للمرأة منذ اربعة عشر قرنا .

وبينما كانت المرأة الاوروبية في عصر الفروسية وهو العصر الذي اشتهر باحترامه للمرأة - نزل الى الرجل فجأة لتسهيل المحالقات الحربية والصفقات ، كان النبي يقول للمسلمين قبل ذلك بعدة قرون : «اذا خطب احدكم المرأة وهو يخضب بالسواد فليعلمها انه يخضب» اي فليصارعها بأنه يصبغ شعره !.

والعقاد يطيل في شرح موقف الاسلام من المرأة ، وهو يفند الاتهامات التي وجهها بعض المستشرقين الى النبي حين ردوا زواجه المتعدد الى غرامه بالنساء فيقول من جملة ما يقول : «ان زواج محمد بتسع نساء ليس دليلا على الافراط الجنسي كما ان عدم زواج المسيح عليه السلام ليس دليلا على القصور الجنسي» .

عبقرية الصديق :

في تقديمه لكتاب **(عبقرية الصديق)** يقول **العقاد** : «انني لا اكتب ترجمة للصديق رضي الله عنه ، ولا اكتب تاريخا لخلافته وحوادث عصره ولا اعني بالوقائع من حيث هي اخبار ، فهذه موضوعات لم اقصدها ولم اذكر في عناوين الكتب ما يعد القارئ بها ويوجهه استطلاعها اليها . . .» .

اذن ماذا كان يقصد العقاد بعد ذلك من تاريخه للصديق ابو بكر ؟
انه يقصد ان يرسم صورة نفسية تعرفنا به وتجلو لنا خلائقه وبواعث أعماله ، كما تجلو الصورة ملامح من تراه بالعين ، فلا تعنيه الوقائع والايثار الا بمقدار ما تؤدي في رسم هذه الصورة النفسية .

وقد يخطف انتباه العقاد حادثا صغيرا يستحق منه التقديم على اكبر الحوادث اذا كانت فيه دلالة نفسية اكبر من دلالاته ، ولحظة مصورة اظهر من لمحته ، بل لعل كلمة من الكلمات الموجزة التي تحيي عرضا في بعض المناسبات تتقدم لهذا السبب على الحوادث كبرها وصغيرها في مقياس التاريخ .

وحين يتصدى العقاد للكتابة عن عبقرية الصديق يرجو ان تكون الصورة التي يقدمها عن هذا الخليفة صورة صادقة كل الصدق فسي جملتها وتفصيلها .

وها هو يبدأ كتابه بالبحث في اسمه ووصفه وصفاته ، ولماذا كان هذا الصديق الاول ولماذا اختاروه الخليفة الاول . ويتطرق العقاد بين كل ذلك الى البحث عن مفتاح لشخصية هذا الرجل العظيم ليسهل بعد ذلك دراسته .

ومفتاح الشخصية عند العقاد هو أداة صغيرة يفتح لنا أبوابها وتنفذ بنا وراء أسوارها وجدرانها وهو يشبه الى حد كبير مفتاح البيت كالحصن المفلق ما لم تكن معك هذه الاداة الصغيرة التي قد تحملها في أصغر جيب ، فاذا عاجته بها فلا حصن ولا اغلاق .

وبعد البحث عن مفتاح لشخصية الصديق يجسده العقاد مفتاح الاعجاب بالبطولة . . وهذا الاعجاب بالبطولة هو الدسم الذي يقتسم به كل عمل من اعمال ابي بكر وكل نية من نياته ، وهو السر الذي نراه كامنا في كل رأي يرتثيه وكل قرار حاسم يستقر عليه .
هذا هو مفتاح شخصيته الذي به استطاع ان يفتح مقاليد نفسه ودخائلها .

بعد ذلك سهل على العقاد ان يقدم لنا ابا بكر في اسلامه ، وعلاقته بالرسول والصحابة ، ثم ابو بكر في بيته وثقافته فلا بد ان يكون صفى رسول الله وخليله مثقفا ولا بد ان يكون له ما يبرز هذه الصفة . بعد ذلك يقدم لنا العقاد اثر ابي بكر في بناء الدولة الاسلامية ، ثم اثره في تشكيل حكومة الصدر الاول في الاسلام . هذا ولا ينسى وهو في معرض الحديث عن ابي بكر في كل هذه الجوانب ان يذكر اثره في استمرارية

الاسلام بعد وفاة النبي عليه السلام .
وعن موته يذكر العقاد انه قيل مات بالسم لكن ليس لهذا القول
مرجع ، وقيل انه مات بالحمى لانه استحم في يوم بارد في شهر قانظ ،
ولكن العقاد يميل اكثر الى الظن بأنه مات بحمى الملاريا التي أصيب بها
بعد الهجرة الى المدينة ، وعاودته وهو شيخ ضعيف .

عبقريّة عمر بن الخطاب :

حين يتناول العقاد بالدراسة شخصية عمر بن الخطاب رضي الله
عنه ، لا يدرس فيه الخليفة الذي هزم القياصرة والاكاسرة ، وانما يدرس
عظمته التي راعى فيها انها تجمع القوة والعدل والرحمة والحزم والتضحية
والحصافة وسداد الرأي والغيرة على الحق والاستقامة .

وهذا الكتاب يرتبط بظروف معينة مر بها العقاد وذلك حين امتلأت
الدنيا بأن الالمان سيدخلون مصر بعد هزيمة الانجليز في العلمين . ولما
كان العقاد قد كتب عن زعيم النازية هتلر كتابا هو «هتلر في الميزان»
فيه لم يتملق النازية او زعيمها وانما قال كلمة الحق . لذلك كان مسن
أعدى أعداء النازيين . . وهنا اقترح الاصدقاء على العقاد ان يترك البلاد . .
فسافر الى السودان . . وكان وقتها مستمرا في دراسة مادة هذا
الكتاب . . وقد اشار من بعيد الى هذه الواقعة في مقدمته حيث قال :
«فما شرعت في تحضيره - الكتاب - وبدأت في الصفحات الاولى منه
حتى رأيتني على سفر بغير أهبة الى السودان . فوصلت اليه وليس معي
من مراجع الكتاب الا القليل . .» .

ويتحدث العقاد عن عبقريّة عمر . . التي بدأت بزعامته على بني قومه
وموقفه من بناء الدولة الاسلامية وانتصاراته التي أزهلت الناس وتشبيده
اعظم امبراطورية في التاريخ كل هذا يجعل لعمر نوعا من العبقريّة .
وينتقل الى الحديث عن صفاته فيبدأ بالقول «نحن على هذا امام
رجل لا كالرجال . رجل عبقري او رجل ممتاز من خاصة الخليفة الذين
لا يفدون في الزمن الواحد بأكثر من الاحاد . .» فمن صفاته انه كان قويا
بكل ما تحمل هذه الكلمة من معاني ، وكان عادلا لانه ورث القضاء من
قبيلته وآبائه فهو من ابناء بيوت بني عدي الذين تولوا السفارة والتحكيم
في الجاهلية وغيرها من الصفات الحميدة ونقطع مع العقاد عدد من الصفحات
حتى نجد مفتاح شخصية عمر بن الخطاب وقد عثر على هذا المفتاح في

«طبيعة الجندي» أصدق مفتاح للشخصية العمرية في جملة ما يؤثر أو يروي عن هذا الرجل العظيم .
فاهم الخصائص التي تتجمع «الطبيعة الجندي» في صفتها المثلى الشجاعة والحزم والصراحة والخشونة والغيرة على الشرف والنجدة والنخوة والنظام والطاعة وتقدير الواجب والایمان بالحق وحب الانجاز في حدود التبعات او المسؤوليات .
ومفتاح شخصية عمر هو في طبيعته كجندي كما عرفنا ولكن فسي جانبها الحكيم .

ويتناول بعد ذلك اسلام عمر بن الخطاب وكيف كان هذا الاسلام عزة للاسلام نفسه وها هو العقاد يصف اسلام عمر فيقول : «كان مسلما شديدا في اسلامه ، فلم تكن شدته في اسلامه خطرا على الناس ، بل كانت ضمانا لهم الا يخافه مسلم ولا ذمي ولا مشرك في غير حدود الكتاب والسنة .

وكان جاهليا فأسلم . فأصبح اسلامه طورا من أطوار التاريخ ، ولو لم يكن الاسلام قدرة بانية منسثة في التاريخ الانساني لما كان اسلام ، رجل طورا من أطواره الكبار» .

ولا شك بعد أن عبر لنا العقاد هذا التعبير العظيم الذي يتناسب وإسلام ابن الخطاب نراه بعد ذلك يعدد ما استفادته الدولة الاسلامية من هذا الصباحي الجليل ، ثم يقدم لنا علاقة عمر بالنبي الكريم وبالصحابة الى أن يصل الى ثقافة عمر . وكيف انه كان وافر الحظ من ثقافة زمانه، وانه كان ادبيا مؤرخا فقيها مشاركا في سائر الفنون ، خطيبا مطبوعا على الكلام .

عبقرية الامام :

في عبقرية الامام علي كرم الله وجهه الذي التقت فيه ملامح العبقرية من جميع نواحيها فامتزجت العاطفة في مصرعه بخيال الشجاعة في بطولته ، كما التقى سمو الفكر فيه برهافة الحس الادبي عنده ، وفي وسط هذا الطريق الشائك يبحث العقاد عن مفتاح الشخصية الامام وشرعان ما يعثر عليه وهو آداب الفروسية .
(آداب الفروسية) هي مفتاح هذه الشخصية ، وآداب الفروسية هي

• تلك الآداب التي نلخصها في كلمة واحدة وهي (النخوة) •

وقد كانت النخوة من الامور التي فرض عليها علي كرم الله وجهه ،
وادبا من آداب الأسرة الهاشمية تلك التي نشأ فيها ، وعادة من عادات
«الفروسية» العملية التي يتعودها كل فارس شجاع متغلب على الاقران،
وان لم يطبع عليها وينشأ في حجرها . لان للغلبة في الشجاع انفة تأبى
عليه أن يسف الى ما يخجله ويشينه ، ولا تزال به حتى تعلمه النخوة
تعلماً وتمنعه ان يعمل في السر ما يزري به العلانية .

والامام علي كرم الله وجهه بلغت به نخوة الفروسية غايتها المثلى ،
ولاسيما في معاملة الضعفاء من الرجال والنساء .. فلم ينس الشرف
قط ليغتنم الفرصة ولم يساوره الريب قط في الشرف والحق انهما
قائمان دائمان كأنهما مودعان في طبائع الاشياء . فاذا صنع ما وجب
عليه فليس من شاءوا ما وجب عليهم وان افادوا كثيرا ، وباء هو
بالخسارة .

والعقاد حين يحدثنا عن صفات الامام علي يقول انه اول هاشمي من
ابوين هاشميين لذلك اجتمعت له خلاصة الصفات التي اشتهرت بها هذه
الاسرة الكريمة وتقاربت سماتها وملامحها في كثير من اعلامها المقدمين وهي
في جملتها النبل والشجاعة والبرورة والذكاء ، عدا المأثور في سماتها
الجسدية التي تلاقت او تقاربت في عدة من اولئك الاعلام وهذه الصفات
اتاحت للامام علي التفوق في امور كثيرة ، كما اتاحت له افادة الاسلام على
ما رأينا بعد ذلك .

وعن اسلامه نجد العقاد يعقد لهذا فصلا فالامام علي ولد داخل
الكعبة ، وكرم الله وجهه عن السجود لاصنامها ، فكانما كان ميلاده ثمة
ايدانا بعهد جديد للكعبة وللعبادة فيها .
وكاد علي أن يولد مسلما .

بل ان العقاد يقرر بأنه ولد بالفعل مسلما اذا نحن نظرنا الى ميلاد
العقيدة والروح .. لانه فتح عينيه على الاسلام ولم يعرف قط عبادة
الاصنام . وتربى على ما نعلم جميعا في البيت الذي خرجت منه الدعوة
اسلامية وعرف العبادة من صلاة النبي وزوجه الطاهرة قبل ان يعرفها
من صلاة ابيه وامه وجمعت بينه وبين صاحب الدعوة قرابة مضاعفة
ومحبة أوثق من محبة القرابة .

وينتقل العقاد للحديث عن عصور كل من ابي بكر وعمر وعثمان رضي
الله عنه حيث كان عصره عجيبا بين ما تقدمه في اعقابه او هو لم يكن

عجيبا لانه جرى على النحو الذي ينبغي ان يجري عليه فلم يثبت كبل الثبوت ولم يضطرب كل الاضطراب . لانه كان بناء جديدا في سبيل التمام ولم يكن بناء متداعيا فكله هدم واندثار ، والعجيب انقسم قسمتين متقابلين : في احدهما كل عوامل الرضى عن النظام الاجتماعي الرغبة في بقاءه وتدعيمه ، وفي الآخر كل عوامل التدمير من النظام الاجتماعي والتحفز لتعويضه وتحويله .

ويناقش العقاد بيعة الامام علي وسياسته وحكومته ثم علاقة الامام بالرسول صلي الله عليه وسلم ثم بالصحابة ويختم الكتاب بالحديث عن ثقافة الامام علي واثرها في كونه رجل محارب مفاضل .

عبقرية خالد بن الوليد :

في هذا الكتاب يصور لنا العقاد العبقرية الحربية المظفرة لخالد ابن الوليد ، وما امتازت به من صفات القائد العظيم المظفر على النضال والشجاعة والجلد واليقظة وحضور البديهة ، وسرعة الملاحظة وقسوة التأثير ووضع الخطط عند الحاجة اليها في موضعها الدقيق ويفسّر جوانب شخصيته الى ان يعثر على مفتاحها وهو سليلته كجندي وهو نفس سليلته عمر بن الخطاب . . الاثنان مفتاح شخصيتهما الجندي ولكن هناك فارق بين الاثنان فجندي ابن الخطاب حكيمة بينما جندي ابن الوليد هاجمة . ولا ريب ان هذا الفارق بين الفاروق عمر وسيف الله المسلول انما هو قبل كل شيء فارق بين نفسين او بين رجلين او بين شخصيتين او بين وسطين اجتماعيين .

وهناك ملاحظة يسوقها العقاد حول سيرة خالد وهي ولعه بالحرب لم يكن ولعا بالشر والسوء ولا ولعا بالضغينة والبغضاء وكانت عداواته كلها عداوات جندي مقاتل ولم تكن عداوات مضغن آثم ، ولم يعرف قط عنه انه حمل الضغينة لاحد من الناس . ولو كانت هذه الضغينة تعرف طريقها اليه . . لحقد على عمر بن الخطاب يوم عزله من قيادة الجيش وجعله جنديا في جيش المسلمين . بل سامح عمر وبرر فعلته هذه .

والعقاد حين يحدثنا عن خالد بن الوليد يمهّد لهذا الحديث بصفحات عن البادية والحرب . ثم عن قريش ومخزوم بعدها يقدم خالد بن الوليد

في نشأته فيقول عنه : «كان أغنى أبناء زمانه في صفوف الثراء المعروفة بينهم كافة : الذهب والفضة والبلاطين والكروم والتجسار والمروض ، والخدم والجواري والعبيد وسمي من أجل ذلك بالوحيد ، ولقب من ذلك بريحانة قريش .

وهو الذي قال فيه القرآن الكريم من سورة المدثر : «ذرني ومن خلقت وحيدا وجعلت له مالا ممدودا وبنين شهودا ومهدت له تمهيدا» .

ويروي سفيان الثوري انه كان يملك الف الف دينار ويروي ابن عباس انه كان يملك من الفضة تسعة آلاف مثقال» .

والعقاد بعد ان ينتهي من الحديث عن نشأة خالد بن الوليد وكيف كان لها أثر في مسرحياته بعد ذلك . ينتقل الى قصة اسلامه . وكما كان العقاد بليغا حين استهل هذه القصة بالقول كان اسلام خالد ضربا من التسليم .

وعلى الرغم من ان العقاد يقص التسليم بمعناه العسكري الا انه لم يكن تسليمه تسليم العاجز المتوكل ، ولا الجازع المنخدل . بل لعله بلغ من نفسه غاية الثقة بالقدرة وحمادي اليقين بالخبرة . . يوم أسلم وسلم الى معسكر الدين الجديد كأنه آمن بالله لانه علم من ذات نفسه انه لن يغلبه الا الله .

ان العقاد يفسر اسلام خالد في كلمة صغيرة هي : «بلغ نهاية الايمان بنفسه يوم بلغ بداية الايمان بالله» .

وتكون الصفحات التالية لتقديم خالد الجندي الذي يحقق للاسلام اعظم الانتصارات وها هو يعيد المرتدين الى حظيرة الاسلام ويقود حرب الفتوح الى ان يتولى عمر بن الخطاب فيعزله من قيادة الجيش . وأخيرا يحدثنا عن عبقريته الحربية .

ثانيا : الشخصيات

في تقديمه لمعاوية بن ابي سفيان فرق العقاد بين القدرة والعظمة ، بين الشخصيات والعبقريات حيث قال : (ربما وصف الرجل بالقدرة لانه مقتدر على بلوغ مقاصده واحتجاج منافعه والاضرار بغيره ، ولكنه اذ وصف بالعظمة فانما يوصف بها لفضل يقاس بالمقاييس الانسانية الغامة وخسر

تقلب فيه نية العمل للآخرين على نية العمل للعامل وذويه – ولعلنا نقرب من توضيح الاصطلاح اذا نقلنا التفرقة من القدرة والعظمة الى التقدير والتعظيم فنحن نقدر الانسان بمقداره عظيما كان او غير عظيم ، بل نقدر الاشياء بمقاديرها ولو لم يكن لها عمل ولم تكن من وراء العمل نية . ولكننا اذا عظمنا الانسان فانما نوجب له التعظيم علينا لانه يعيننا ويستحق إكبارنا ويرتفع الى المكانة التي تلحظها الانسانية بأسرها ونعود عليها في منافعها وخيراتها ..

فكل عظيم قدير .

ولكن ليس كل قدير بالعظيم ..

والعظمة قدرة وزيادة . ومعاوية قدير ولا ريب .

اما القدرة فليس من اللازم ان تكون عظمة فضلا عن ان تكون عظمة

وزيادة ...» .

بهذه العبارة حدد العقاد الفرق بين الشخصيات المقتدرة ، والعبقريات

العظيمة .

وهناك عبارة اخرى جاءت في كتاب «رأيت وسمعت» لمحمد كرد علي تزيدنا توضيحا لما يعنيه العقاد من قوله هذه شخصية ، وتلك عبقرية يقول العقاد في هذا الكتاب : «منذ انطلق قلبي وعقلي وفكري وأنا أقف في الجانب المعارض للجاء والسلطان والجبروت .. الملك فؤاد سجنني تسعة اشهر .. وغيره اقام على النكير والدعاوي المختلفة ، ولكنني لم أذعن رغم كل ذلك لرغبات السياسة . ولقد اخذت من التاريخ امثلة اولها ان علي بن ابي طالب لو كان وصوليا لانتهى علي في يوم موته . ولو كان الحسين بن علي لم يسبق أجله بعشر سنين أي لم يبع ما تبقى له من العمر بذلك الاستشهاد لما ربح هذا الخلود العظيم هو وابوه من قبله وابناؤه الذين درجوا على بساطه الاحمر .. قال لي مرة الاستاذ محمد كرد علي: لما لم تكتب لنا كتابا عن معاوية كما كتبت عن علي ؟ فأجبتة : أنا أعرف انك وصولي مع الأحياء ، ولكنني لا أعرف انك وصولي حتى مع الاموات، ان صاحبك معاوية اراد الدنيا واراد منها ان يكون ملكا فكان ثم مات فماذا يريد بعد هذا ؟ الذي يطمع ان يكون مسلما ملكا او وزيرا او نائبا ثم ينتهك كل الحرمات ليصل الى شهوته .. او تريد بعد هذا ان نخر له ساجدين في حياته وبعد موته ..»

العقاد في هذه العبارة التي سجلها عليها محمد كرد علي يفرق بوضوح بين الشخصية والعبقرية .. ذلك ان علي بن ابي طالب كان

عبقريا . . وعلى هذا فلا بد ان الخليفة الذي على شاكلته عبقري ايضا . .
ولكن العقاد يرفض هذا ويعتبر معاوية شخصية وليس عبقريا . يعتبر
مقتدر وليس بالعظيم .

ومن هنا يتضح ان العقاد وضع العبقریات في مكان ارفع من
الشخصیات وإلا فلماذا وضع معاوية في الشخصیات وكذلك عثمان بن
عفان في الشخصیات ؟

وها هو حين يقدم شخصية عثمان بن عفان . . يؤكد بان سيرته لا
تبرز لنا عبقرية قبل عبقرية الصديق او عمر بن الخطاب او الامام علي او
خالد بن الوليد . ولكنها تبرز لنا من جانب الاريحية صفحة لا تطوى ولا
يستطيع العقل الرشيد ان يرجع بها الى باعث غير باعث العقيدة والايمن
لذلك فهو لا يؤمن بالعبقرية لعثمان رضي الله عنه بقدر ما يؤمن بأنه ذو
النورين نور اليقين ، ونور الخلق الامين .
أوهذه الشخصيات حين يتناولها العقاد بالبحث فاننا نلاحظ هذه
الامور :

هي - الشخصيات - ليست صور اعلام ذوي حظ واحد في القدرة
والكفاية . ولو انها كانت كذلك لما غض ذلك من شأنها ، فمن كان يعرف
حرفا واحدا من ابجدية الكفايات الانسانية فهو على حظ كبير من المعرفة
الانسانية ولكن لا شك اقل وعيا ممن يعرف جملة حروف منها وتراجم
العقاد تمثل عدة انماط من القدرة الشخصية ومن ذلك مقدرة الشعر
والكتابة والفلسفة والموسيقى والتصوير والعلم والادارة والسياسة والحرب .
يغلب على التراجم انها لا تؤدي ابرز ملامح صاحبها واعماله فحسب ،
بل تنفذ الى محور شخصيته الذي تدور عليه شمائله ومساعيه واعماله
واقواله وتميز ملامحه من ملامح اشباهه في طراز قدرته ونعلل اسباب
ذلك او نفسرها سواء اذكر ذلك المحور في الترجمة ام لم يذكر .

تدل معظم التراجم الى نمط القدرة التي تشمل هذه الشخصية ومن
يشبهه وان لم يماثله . فانت اذا عرفت قسما هذه الشخصية وحدودها ،
وصادفت تلك الملامح في انسان آخر حكمت له بمثل ما حكمت للاول ايا
كان حظه دون خلط .

يغلب على التراجم ان تنفذ بنا الى حقيقة قدرة الشخصية بعامة ،
واختلاف نمطها عن انماط الكفايات والقدر الاخرى فلا نخلط بين هذا
وغيره من ذوي المواهب والملكات التي ترفع صاحبها على الغمار او لا ترفعه .
في تراجم العقاد سر آخر غير كثرة صور اعلامه هذا السر هو سهولة

الاداء من كل ذي قدرة ايا كان نوع قدره وحظه منها ، ثم اتساق اجزاء صورة كل عظيم من هؤلاء العظماء مستقلة على غيرها . ولهذا تبسّدو الترجمة وكأنها خرجت من قريحة صاحبها فقبلتها براعته دفعة واحدة شأنها شأن بدء الحياة في خروجها من الارحام الى ايادي القوابل .

ان العقاد كان يفعل مع شخصياته اثناء كتابتها حتى انه يذكر انه كان يكتب الفصل الواحد من «الحسين» وعيناه مغرورقتان بالدموع . مع انه يفترض فيه كمؤرخ ان يكون محايدا ولكن ما العمل وهو اديب فنان يحس قبل ان يكون مؤرخا يسجل .

وكتابة التاريخ بهذه الصورة الادبية أسلوب لم يتدعه العقاد فقد سبق ان استخدمه كتّاب اجانب مثل «بلوتارك» و«توماس كارليل» و«ليتون استرتسي» و«اندريه مروا» و«إميل لدفيج» وكتّاب عرب في مقدمتهم الدكتور محمد حسين هيكل والدكتور طه حسين والدكتور احمد أمين .

وبهذا الاسلوب .. أسلوب التفريق بين العبقرية والشخصية ، بين العظمة والقدرة كتب العقاد تراجم شخصياته وهي «فاطمة الزهراء» و«الفاطميون» و«الصديقة بنت الصديق» و«ابو الشهداء الحسين ابن علي» و«ذو النورين عثمان بن عفان» و«بلال بن رباح» و«عمرو ابن العاص» و«معاوية بن أبي سفيان في الميزان» و«المسيح» و«ابو الانبياء ابراهيم الخليل» .



فاطمة الزهراء والفاطميون :

عندما يتناول السيدة فاطمة يرى ان الحديث في حياتها قد تكتب له تراجم وليس ترجمة واحدة . فقد تكتب لها ترجمة لانها ابنة محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد تكتب لها ترجمة لانها زوج علي بن ابي طالب ، وقد تكتب لها ترجمة لانها أم الحسن والحسين ولكن العقاد يرى ان الاولى بالترجمة هو لانها فاطمة الزهراء ، ولانها مصدر من مصادر القسوة التاريخية التي تابعت آثارها في دعوات الخلافة من صدر الاسلام الى الزمن الاخير .

وهذا فعلا ما قصد اليه العقاد بكتابة هذه السير ، وبالبحث عن مكان الصلة بينها وبين المنتسبين الى فاطمة .

فالكتاب في قسمه الاول يقدم لنا فاطمة الزهراء وامها السيدة خديجة رضوان الله عليهما ، ثم يبين كيف كانت نشأتها وتربيتها في البيت النبوي الشريف ، ثم زواجها من علي بن ابي طالب رضي الله عنه وكم كان في هذا الزواج من امثلة للتواضع والزهد يقدم لنا بعد ذلك بلاغتها وثقافتها ولا شك ان انسانة يكون ابوها محمد صلى الله عليه وسلم وزوجها علي بن ابي طالب كرم الله وجهه وهو احد القلائل الذين تمكنوا من معرفة سر البلاغة . . لا شك ان واحدة لها نفس الظروف لا بد وان تكون بليغة ذات ثقافة واسعة .

وعن شخصيتها يشير العقاد الى حقيقة هامة تتصل بالسيدة فاطمة رضي الله عنها وهي ان هذه السيدة العظيمة اخذت مكانها الرفيع بين اعلام النساء في التاريخ لانها بنت نبي ، وزوجة إمام ، وأم شهداء . . «لكن - الكلام هنا للعقاد - لا ننزع هذا الرضوخ ولا يبين هذا البيان انها تأخذ مكانها هذا «بحقها الشخصي» او بصفاتها التي كان لها اثر في حوادث التاريخ» .

والسيدة فاطمة تعتبر أصلا قويا من اصول الدعوة التي ثبتت في مجرى الزمن اجيالا طويلا ولم تزل لها آثارها في عصرنا هذا وفيما يلي من العصور ، ثم يحدثنا عن ذريتها .

ينتقل العقاد بعد ذلك الى القسم الثاني من الكتاب ويدور حول الفاطميين . . فكل ابنائها فاطميين ثم يتحدث عن نسب هؤلاء الفاطميين ، وعلاقة هذا النسب بالمطالبة بالخلافة .

ويوضح العقاد قصة علاقة الباطنية بالفاطميين ، هؤلاء الباطنيون الذين كان لهم اثر بالغ في تنفير الناس من الفاطميين . ويختتم هذا القسم من الكتاب بالحديث عن بعض شخصيات الفاطميين . وهذه الحضارة المحتضرة في مصر . . وهي حضارة الفاطميين .

عثمان بن عفان

تعتبر سيرة الخليفة الثالث عثمان بن عفان . . نمطا من أنماط متعددة

زخرت بها الدعوة الإسلامية مثل سير الخلفاء ابو بكر ، وعمر ، وعلي ،
وامثالهم من الصحابة والتابعين : فكل منهم كان عظيما بمزبة ، وعلما من
اعلام التاريخ .

ويرجع العقاد في كتابه «ذو النورين عثمان بن عفان» عظمة هؤلاء
الصحابة رضوان الله عليهم الى العقيدة الدينية التي ملأت قلوبهم ، والى
الرسالة المحمدية التي كانوا اول من آمن بها وناصرها .

وقبل ان يتناول العقاد شخصية عثمان رضي الله عنه بالدراسة نراه
يمهد بفصل يذكر فيه هذه المشقة او «الصدمة» على حد تعبيره التي
تقابل الباحث في تاريخ عثمان . اذ كان مصرعه وهو شيخ في الثمانين
من عمره . ولكن بعد الصدمة يقرر العقاد حقيقة مؤداها ان عثمان رضي
الله عنه لم يكن ليعبأ بان يضع حراسا على بيته ليمنعوا هذه الجماهرة
المشافية من قتله . ويتساءل العقاد : هل ما حدث لعثمان رضي الله عنه
كان من الممكن ان يحدث لوال من ولاته المنتشرين في أرجاء البلاد
كمعاوية مثلا ؟ بعد هذا يتطرق الى أسباب الفتنة التي كانت نتيجتها
ثالث الخلفاء الراشدين .

كل هذا كان تمهيدا لدراسة شخصية عثمان رضي الله عنه وهو من
أسرة بني أمية العريقة النسب ، وقد ضرب بإسلامه مثلا . فها هو يلتقي
بأبي بكر رضي الله عنه ويدعوه الى زيارة النبي صلى الله عليه وسلم
وتتم المقابلة ومن بعدها يبادر باعلان اسلامه .

ويحدثنا العقاد عن نشأة عثمان فيؤكد انه كان موفور الرزق . وكان
اقرب الى صفات الطيبة والسماحة منه الى صفات البأس والصرامة ،
وقد صاحبه هذه السمة طوال حياته . .

والعقاد يرسم صورة هذا الخليفة فيقول : «ان شخصية عثمان بما
اشتملت عليه من نواحي قوتها وضعفها شخصية سوية لا تناقض بين ما
علمناه عن أخبارها وبين ما نرجحه من المؤثرات فيها من فعل البيئـة
وروائته الاموية . ويتمه في صباه ونشأته في بيت يتولاه غير ابيه ،
وانتماؤه من جانب الامومة الى بيت عبد المطلب ، وعلينا ان نشير الى
مؤثر آخر يلحق بهذه المؤثرات ، ولا يورد على انه مؤثر يتواتر في جميع
الحالات ، ولكنه يورد لانه لا يهمل في اعتبار بعض النفسانيين .

ذلك السبب هو اصابته بالجدري في شبابه . وعند بعض النفسانيين
ان الجدري يعقب اثرا في بنية المصاب به اذا أهمل علاجه . بعد سن
الطفولة خاصة - وليس أهمال علاجه بومئذ بالامر البعيد» .

ونستطيع أن نلمح ثقافة عثمان رضي الله عنه من بين سطور كتاب العقاد تلك التي تذهب الى ان كتب عثمان الى ولاته وخطبه تحمل الكثير عن بيانه وثقافته الى جانب انها تحمل معنى الاسلوب الرسمي او اسلوب التشريع والوثائق القانونية : تبليغ وتقرير بغير تنميق ولا محاولة تأثير . وهذه صورة جديدة في الكتابة استحدثها عثمان رضي الله عنه .

وعن الخلافة يذهب العقاد الى ان عثمان رضي الله عنه تولى اصعب خلافة في صدر الاسلام وقد كانت ثورة المرتدّين في اول خلافة الصديق محنة شديدة نهض لها المسلمون جميعا متساندين متآزرين فابتلى عثمان في اول خلافته بما يشبه تلك الثورة ويزيد عليه الخلاف في الداخل والتغير في الدواعي النفسية ، وهو اخطر المصاعب جميعا . اذ تحدث في عهده اول فتنة في الاسلام .

وعن فضل عثمان يقول العقاد انه لا يوصف بأكثر من انه مشاغبنة دهاء لم تجد من يكبحها ، وأن تقصير عثمان في حق نفسه كان اكبر من تقصيره في حق الرعية فقد اغتفر ما لا يفتن من العدوان عليه فسي حضرته . . وكانت النتيجة ان قتل والمصحف بين يديه .

الصديقة بنت الصديق :

حين ترجم العقاد للسيدة عائشة الصديقة بنت الصديق قدمها آثار مجتمع عربي ناشيء على الاصوات الاولى بالاسلام ، وبأنها تفردت من بنات جنسها برعاية لم تشاركها فيها غيرها من الولاة ، فقد تربت على النعمة ، وشبت على العزة والكرامة ، وتعلمت الكتابة . . وينتهي العقاد في كتابه هذا بنتيجة الى ان عائشة تمثل المرأة المسلمة في ارفع مثلها حيث تمثلها في حقوقها وتمثلها في مثاليتها الكريمة .

فان كانت هذه نظرة عامة لما يحوي كتاب الصديقة بنت الصديق من افكار ومعاني . فان تفاصيل هذه النظرة تبدأ بالحديث عن المرأة العربية وكيف كان العرب ينظرون اليها نظرة طبيعية مرتجلة . والعقاد يعنى بالنظرة المرتجلة انها النظرة الطبيعية التي لا يشوبها احساس دخيل من وهم العقائد او حكم التشريع ولكنها تمضي على الفطرة التي توجبها ضرورة الساعة او ضرورة البيئة ، وتختلف حسب اختلاف هذه الضرورات :

ويفرر العقاد ان انعرب لم يفسر العنة على المرأة في جاهليتهم وجاء الاسلام من النهاية . . التي انتهت اليها آداب الحضارة والسيادة وهي خلاصة العرف الذي تعارف عليه سادة الحضرة في معاملة المرأة وليس سادة القبائل في البادية . وحمل « انعرب » حقا مكتوبا على الرجال لكل امرأة . ثم زاد هذا العرف منزلة من الرعاية لم تصل اليها ارفع النساء في ارفع البيوتات قبل النبوة الحمديدية فالمرأة في شريعة الاسلام انسان مرعي الحقوق والواجبات ، وليس الاسلام هو الذي قال عنها « ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف ، وللرجال عليهن درجة » .

ويبدو ان كل ما تقدم كان تمهيدا للمرأة الخالدة تلك التي قدمها لنا العقاد بأن السيدة عائشة هي هذه وهي تلك .

ويتلي ذلك بفصل عن تاريخها وكيف انها امتازت منذ حداثة سنها بالدكاء ، وكيف انها اسلمت وهاجرت ولقيت عننا شديدا في سبيل دينها وزوجها محمد صلى الله عليه وسلم . ومن جملة أوصافها انها كانت بيضاء فالنبي الكريم كان يلقبها بالحمراء ، وانها كانت جمهورية الصوت حية الطبع موفورة النشاط ، وانها ورثت الكثير عن والدها الصديق ابو بكر رضي الله عنه .

ويفرد العقاد فصلا عن زواج النبي صلى الله عليه وسلم من عائشة فقد ماتت زوجته الاولى خديجة بعد عشرة طالت الى خمسة عشر عاما حتى انه قيل ان الرسول الكريم ظل حزينا على موت خديجة عاما سماه عام الحزن ، وقد تزوج بعده ابنة صديقه ابو بكر وهي السيدة عائشة رضي الله عنهما .

وتختلف - كما يقول العقاد - الاقوال في سن السيدة عائشة يوم زفت الى النبي صلى الله عليه وسلم . فالبعض يحسبها في التاسعة من عمرها ويرفعها البعض فوق ذلك بضع سنوات .

بعد ذلك يخصص العقاد فصلا عن حديث الافك وحديث الافك هذا هو الذي اشاعه بعض المنافقين عن السيدة عائشة رضي الله عنها وهو حديث اجتمعت له كل بواعث الفضول والوشاية التسي تغري الناس بالخوض في أمثال هذه الاحاديث ولو كانت من نسج الخيال ، والحق ان حديث الافك هذا كان له غرض المساس بالنبي وبالاسلام وقد قام به زعيم الخرج في المدينة .

ويرفع الرسول الى الرفيق الاعلى ويترك من ورائه ارملته الشابة

عائشة كام للمؤمنين . لها رأى في كل ما يدور حولها من أمور سياسية او اجتماعية .

الحسين ابو الشهداء :

في تناوله لشخصية ابي الشهداء الحسين بن علي رضي الله عنهما يصور لنا العقاد ماساة تاريخية كبيرة . ومن أجل ذلك نجده ينفذ الى لباب الوقائع والتواريخ لتمحيص الحقيقة من وراء المذاهب والاهواء في سيرة ابي الشهداء ، وفي تناوله لهذه الشخصية العامة يصور لنا اسباب النزاع السياسي من ايام الجاهلية الى ايام الدعوة الاسلامية في صورة حية تمثل في اعمال ابطالها وحرركات رجالها .

والعقاد حين يتناول شخصية ابي الشهداء الحسين بن علي بالدراسة يبدأ اولاً بدراسة طبائع الناس وكيف ان هذه الطبائع يتناوبها مزاجان متقابلان: مزاج يعمل اعماله للاريجية والنخوة ومزاج يعمل اعماله للمنفعة والفضيلة . والمزاجان لا ينفصلان كل الانفصال . . فقد تقترن الاريجية بالمنفعة وتقترن المنفعة بالاريجية ولكنهما اصطدما ولاسيما في الاعمال الكبيرة . وحياة الحسين بن علي رضي الله عنه صفحة ، لا صفحة تماثلها فسي توضيح الفارق بين خصائص هذين المزاجين وبيان ما لكل منهما من عدة للنجاح في كفاح الحياة سواء نظرنا الى الامد البعيد او قصرنا النظر على الامد القريب .

وعن اسباب التنافس والخصومة بين الحسين ، رضي الله عنه ، ويزيد بن معاوية يقول العقاد بأن الاسباب ترجع الى اجيال وكان هذا التنافس والخصومة بينهما يرجع الى كل سبب يوجب النفرة بين رجلين: من العصية الى التراث الموروث الى السياسة الى العاطفة الشخصية !! اختلاف الخليفة والنشأة والتفكير هو تنافس بني هاشم وبني أمية على الزعامة قبل ان يولد وابوه معاوية .

يتبع هذا الفصل عن الخصمان موازنة بينهما . فهناك اختلاف فسي النشأة بين الاثنيين والنسب والمكانة والصفات ، والخلق ، والشجاعة وهي أمور جد اختلف الاثنان فيها مما أدى في النهاية الى الخصومة ، بل وأي شيء آخر غير الخصومة كان مستغرباً بين الاثنيين .

وبديهي جدا أن يكون والخصومة قائمة - أعوان لكل خصم .. هم رجال المعسكرين وبالطبع اختلاف أنصار يزيد فمنهم من هو طامع في مال أو مستميت في طمعه استماتة من يهدر الحرمات ولا يبالي بشيء منها في سبيل الحطام ولم يكن معه رجال ذوي رأي . ان العقاد يصفهم وصفا دقيقا حين يقول في كلمة صغيرة «كان أعوان يزيد جلادين وكلاب طراد في صيد كبير» . ومنذ ان قضي على يزيد بن معاوية ان يكون هؤلاء وأمثالهم أعوانا له في ملكه قضي عليه من ساعتها ان يكون علاجه لمسألة الحسين علاج الجلادين الذين لا يعرفون غير سفك الدماء والذين يسفكون كل دم أجروا عليه ، بينما نرى أعوان الحسين يختلفون تمام الاختلاف عن هؤلاء الاعوان الكريهين وما ابلغ العقاد حين قال عن أعوان هذا وأعوان ذلك هذه الكلمة :

«كان ليزيد أعوان اذا بلغ احدهم حده في معونته فهو جلالد مبسول السيف والسوط في سبيل المال» .
وكان للحسين أعوان اذا بلغ احدهم حده في معونته فهو شهيد يبذل الدنيا كلها في سبيل الروح .
اذن فهي حرب جلادين وشهداء .
والكتاب يحدثنا بعد ذلك عن خروج الحسين الى مكة ، وكربلاء ونهاية المطاف . عارضا لنا قصة ابي الشهداء والدم المسفوك على الارض العربية .

داعي السماء بلال بن رباح

وفي تحليله لشخصية داعي السماء بلال بن رباح .. ذلك الرجل الاسود القريب الى قلب رسول الله والصحابة يقدم العقاد مثلا رائعا لموقف الاسلام من العبقرية وكيف كانت للاسلام كلمة سابقة على غيره من الحضارات القديمة .. في إنصاف الاجناس والعناصر واحترامها ، وإلغاء التفرقة العنصرية . وفي هذا الاطار يحدثنا العقاد عن نشأة بلال بن رباح وإسلامه وصفاته ولماذا اختاره الرسول لكي يكون اول مؤذن في الاسلام .

ويمهد العقاد للحديث عن بلال بن رباح رضي الله عنه بالحديث عن

مسألة العنصر – الجنس – تلك المسألة الاجتماعية التي أصبحت كثيرة الورد على السنة المعاصرين وأقلامهم . ولكنها على هذا من أقدم مسائل الاجتماع التي وجدت مع وجود القبائل الأولى . فيعرض لنا آراء وأبحاث عدد من العلماء وخبراء الاجتماع في هذه المسألة بالذات وكلها أبحاث حديثة تخلص الى ان الحضارة الغربية إبطأت في تقرير مبدأ الإنصاف بين هذه الاجناس المختلفة . بينما نجد ان الشريعة الاسلامية كانت سباقة الى هذا الانصاف والمساواة بين بني الانسان منذ اربعة عشر قرنا بغير ما حافظ من المصالح الاقتصادية او من عادات العرف والاخلاق . الى ان يقول : والذي يعيننا في هذه المقدمة عن تاريخ الاجناس والجنس الاسود خاصة ان نجمع الملتقي بينها وبين صاحب هذه السيرة بلال بن رباح .

وبعد ان قدم العقاد في الجزء الاول من كتابه اقوال وآراء العلماء في مسألة الاجناس وفوارقها يحدثنا عن العرب والاجناس . كيف كان العرب يعاملون الاجناس غير العربية ؟ هل كانوا يحقرون من شأنهم ؟ وغيرها من الاسئلة التي تقوده اجاباتها الى تقديم بلال هذا الانسان الذي كان من اذنك العبيد حالا قبل الاسلام ، وكانت حال العبيد هي السواى بين طبقات المجتمع العربي في الجاهلية . ظلما للضعيف لا عداوة للجنس او كراهة للسواد فقد كان شأن العبيد كشأن كل صعلوك وضيع النسب قليل العمد غير محسوب له حساب في شريعة الثار والدية وكان العبيد أسوأ حالا من وضعاء النسب لانهم لا ينسبون الى احد معروف ولا يروع الظالم عن ظلمهم شرع ولا عرف ولا عقيدة . فكانوا ضحايا الظلم والتفرقة في المنازل والاقدار ، وكان خلاصهم كله في عقيدة تنكر الظلم لانه قسوة كما تنكره لانه ينقض شريعة المساواة . وقد تكفل الاسلام بهذا الخلاص من جانبيين ، لانه يتكر ظلم القسوة وينكر ظلم الاجحاف والمحابة .

ثم يخلص العقاد الى فصل عن الرق في الاسلام وكيف ان الاسلام حاول ان يحسن احوال الارقاء ومنع الاتجار بهم ويبدو ان كل هذا كان تمهيدا لدراسة شخصية بلال .

ثم يقدم لنا كيف نشأ بلال كإبن من ابناء الحبشة المولدين الديسن كانوا كثيرين في اليمن من قديم الزمن . وقد كان بلال يكره حياة الجاهلية . وما أن سمع عن الاسلام ونبي الاسلام حتى أسرع ليسلم . والعقاد حين ينتهي من قصة اسلام بلال وما كان بها من ملابسات ينتقل الى صفاته الخلقية تلك التي جعلته من السابقين الى الاسلام .

معاوية ابن ابي سفيان في الميزان

الخلاصة التي يمكن ان يخرج بها القارئ من هذا الكتاب ان تاريخ معاوية بن ابي سفيان لا يحتاج الى مزيد من تفصيل، وانما يحتاج تاريخه وتواريخ النابيين جميعا الى تصحيح الموازين وبيان المداخل التي تؤسي من قبلها احكام الناس على الحوادث والرجال ، فتصاب بالخلل او تنقلب راسا على عقب . ويصاب بالخلل معها تفكير المفكر ونظرة الناظر وادراك المدرك لما يحيط به من حوادث زمنه وحوادث سائر الازمنة .

ونحن نفهم تاريخ معاوية ونفهم معه تواريخ الكثيرين من بناء الدول اذا صححنا الموازين وعرفنا ما يعرض لها من الانحراف عن قصد او عن شعور غير مقصود .

ولكننا لا نعرف تاريخ معاوية ولا تواريخ غيره اذا اخذنا بظواهر الاقوال ولم ننقب وراءها عن بواطن الاهواء والبواعث الخفية ، ولا بد منها في هذه المرحلة بذاتها : مرحلة الدولة الاموية الاولى على التخصيص لقد كان قيام الدولة الاموية بعد عصر الخلافة حادثا جلالا بالغ الخطر في تاريخ الاسلام ، وتاريخ العالم .

وما كان احد ليطمع في بقاء عصر الخلافة على سنّة الصديق والفاروق ابد الابدين ودهر الداهرين ، لان اطراد النسق من ولاة الامر على هذه الطبقة العليا من الخلق والتقوى امر تنوء به طاقة بني الانسان . فما كان دوام الخلافة الصديقية او الفاروقية بمستطاع على طول الزمن وما كان قيام الملك بعد الخلافة بالامر الذي يؤجل الى زمن بعيد . ولكن الملك بعد الخلافة كان على مفترق طريقين : كان في الوسع ان يسير على مشابهة الخلافة ملكا بارا تقيا مصوننا من بذخ الهرقلية والكسروية وسائر ضروب الملك في عصوره الخالية .

وكان في الوسع ان يسير على مشابهة الملك في العصور الخالية بذخا ومتاعا وزينة وخيلاء كخيلاء العواهل من القياصرة والشواهين . كان في الوسع ان يبتدىء الملك في تاريخ العالم على النهج الصديقي او الفاروقي وان لم يبلغ هذا المدى من النزاهة والصلاح ، وكان هذا النهج خليقا ان يظل اماما للرعية يتوارثونه ويقتدون به ويحميهم مسن نكسة الاخلاق والآداب قرونا وراء قرون من بقايا الوثنية وأوشاب المادية وما شابهها من آداب تدور على النفع العاجل وتقبل المعاذير منه فسي اخطر الامور .

كان في الوسع هذا ، وكان في الوسع ذلك .
ونشأة الدولة الاموية على مفترق هذين الطريقتين هي الحادث الجلل
في صدر الاسلام ، وهي الحادث الجلل الذي يقرر تبعتها في التاريخ
الاسلامي بل في التاريخ العالمي كله .

ورأس الدولة الاموية ، معاوية بن ابي سفيان ، وهو صاحب هذه
التبعة التي يجب ان تتقرر بأمانتها العظمى في ميزان لا تلعب به المنافع
المقصودة او المنافع التي هي اخطر منها على الحقيقة ، وهي منافع الطبائع
المستسلمة لايسر المعاذير ، يشق عليها الصعود الى المثل الاعلى ولو بالامل
وحسن المظنة ، ويطيب لها ان تسترسل على هيئته مع مألوفاتها
في كل يوم .

والعقاد يتناول في صفحات. هذا الكتاب النظر في سيرة معاوية من
هذه الوجهة ، فليست هي سردا لتاريخه ولا سجلا لاعماله ولا معرضا
لحوادث عصره ، ولكنها تقدير له وانصاف للحقيقة التاريخية وللحقيقة
الانسانية - كما يراها المجتهد في طلبها وتمحيصها ، ونكاد نقول كما
يراها من لا يجتهد في البعد عنها واخفاء معالمها والتوفيق بينها وبين
دخيلة هواه من حيث يريد او لا يريد . وبعض المؤرخين بعد العصر
الاموي الى زماننا هذا يفعلون ذلك حين ينظرون الى هذه الفترة فلا
تخطئهم من أسلوبهم ولا من حرصهم على مطاوعة أهوائهم ، كأنهم صنائع
الدولة في ان سلطانها وبين عطاياها المفدقة ونكاياتها المرهوبة ورجالها
الذين تعقد بينهم وبين معاصريهم أواصر المودة والنسب وأواصر المشايعة
في المطالب والمعاذير .

ولولا اننا نأبى ان نضرب الامثلة بالاسماء لذكرنا من هؤلاء المؤرخين
المعاصرين من يتكلم في هذا التاريخ كلاما ينضح بالغرض ويشف عن
المحاباة بغير حجة فمنهم من ينكر الخلاف بين هاشم وأميه في الجاهلية ،
ومنهم من يحسب من همة معاوية انه تصدى للخلافة مع علي ويحسب
من المآخذ على غيره انهم تصدوا للخلافة مع يزيد ، ومنهم من يشيد بفضل
ابي سفيان على العرب لانه كان تاجرا يعرف الكتابة والحساب ويعلمهما
من يستخدمهم في تجارته ومنهم من يلوم اهل المدينة لانهم نكبوا فسي
أرواحهم وأعراضهم على أيدي المسلمين عليهم من جند يزيد ولا تكاد تسمع
منه لوما لاوئك المسلمين ، بل تكاد تسمعه يعذرهم ولا يدري ما
يصنعون غير ما صنعوه .

عمرو بن العاص

وحيث يتناول شخصية محرر مصر عمرو بن العاص فإنه يبدأ بنشأته في بطن من البطون القرشية المشهورة وهم «بنو سهم» ويتطرق إلى صفاته الجسدية والنفسية والخلقية ثم يحدثنا عن كيفية انتقاله من التجارة إلى الإمارة بما في ذلك من مفارقات مركزا على قيمة التجارة في حياة عمرو بن العاص ، فهي مدرسته الكبرى في السياسة والفتوحات ثم قدم لفتح مصر بمسألة بديهة هي ان الصدام بين العرب والرومان كان قضاء موفودا منذ اللحظة التي نشأت فيها الدعوة الإسلامية ، وكتب لها البقاء مبررا ذلك بأن الإسلام رسالة تتجه إلى أسماع الناس ، وقلوبهم ، ولأن للدولة الرومانية سلطانا قائما يحول بين رسالته والأسماع ويتم فتح مصر على يدي عمرو بن العاص ، ويقدم لنا الاستاذ العقاد في صورة أدبية رائعة حالة البلاد والسكان وملكها المقوقس ثم الحالة الدينية والإدارية في ذلك الوقت ويذكر ان الفتح لم يكن مكروها من سكان مصر لانه نشر الامن والاطمئنان في البلاد .

وحيث نتوقف مع العقاد عند وصفه لدهاء عمرو بن العاص السلي حيث اشتهر به نجده يقدمه بأنه قد أحصى للعرب دهاتهم في الإسلام فعدوا أربعة هو منهم وجعلوا لكل منهم مزية يمتاز بها في دهائه فقالوا : ان معاوية للروية وعمرو بن العاص للبديهة ، والمغيرة للمعضلات وزياد لكل كبيرة وصغيرة .

ولو تكلم العرب باصطلاح هذه الايام لقالوا : ان حيلة عمرو هي حيلة العبقرية المطاعة التي تتفتق له من حيث يعلم ولا يعلم ، وآياتها انها عبقرية معبرة تلهم الخاطر السريع وتلهم التعبير عنه في كلمة وخبر وهذه هي العبقرية التي يختلط امرها احيانا على من يراقبونها فيتهمونها بالطيشة ، ويرمونها بدفعة انتهور ، لانهم يسلسلون اسبابهم في بظء وتثاقل وهي تسلسل اسبابها في سرعة وخفة فيبدو لها ما يظل خافيا عليهم متلبسا في أعينهم ، ولولا انها واضحة عند صاحبها كل الوضوح لما تسنى له التعبير عنها بأسلوب يلائم ومضاتها في السرعة والنفاز .

قيل لعمرو : ما العقل ؟ قال : الاصابة بالظن ومعرفة ما سيكون بما قد كان .

والاصح ان يقال ان التعريف بالعقل هنا هو التعريف لعقل عمرو ، لانه كان يجمع بين الفطنة والخبرة ، وبين التخمين واليقين ويأخذ من

امامه بالنظرة الخاطفة ، فاذا هو قد وصل والذي امامه لا يزال يتحرى سبيل الوصول .

قبل في غير الرواية التي قدمناها انه هو الذي ووصف نفسه ، ووصف الدهاة الثلاثة معه على تلك الصفة ، وانه اجتمع مع معاوية بن ابي سفيان مرة فقال له معاوية : من الناس ؟ فقال : أنا وانت والمغيرة بن شعبة وزيايد قال معاوية : كيف ذلك ؟ قال : اما انت فللتاني ، واما انا فللبديهة ، واما المغيرة فللمعضلات ، واما زياد فللصغير وللكبير من الامور .

هذه شخصية عمرو بن العاص كما يقدمها العقاد في كتابه .

ثالثا : الدراسات والابحاث

يبقى بعد ذلك من اسلاميات العقاد القسم الثالث منها وهو الخاص بالدراسات والابحاث الاسلامية .

والعقاد حين يتحدث عن الاسلام ويكتب فيه يقدمه عن فهم وعقيدة على انه نظام كامل يحدد الخطوط لاقامة مجتمع كبير متكامل في مختلف الميادين الاقتصادية والسياسية والاجتماعية وهذه الدراسات والابحاث الاسلامية يغلب عليها في كتابات العقاد امران :

١ - الدفاع عن الاسلام ضد اباطيل خصومه .

٢ - تقديم الصورة الحقيقية للاسلام .

والامران كما هو واضح وجهان لحقيقة واحدة مؤداها انه حين يبحث عن الاسلام بمعناه الصحيح فانه يدافع ضمنا عن الاسلام .

والحق ان اصول هذا المنهج مستمدة من تعاليم الشيخ محمد عبده . فقد مضى العقاد في اثره يؤمن في عمق بأن الاسلام دين عالمي صالح لكل الشعوب اذ قرر للانسانية مبادئ لا يمكن صلاحها بغيرها مفوضا للعقل الانساني ان يختار ما يلائمه مما يتمشى مع الاطوار الاجتماعية التي تتغير وتتبدل من بلد الى بلد ، ومن عصر الى عصر ، ومن مدينة الى مدينة ، فتلعب النظرية دورا كبيرا في كل ما كتب العقاد من دراسات وابحاث اسلامية . وقد عبر العقاد عن ذلك صراحة في تقديمه لكتاب «الفلسفة القرآنية» حيث يقول : «موضوع هذا الكتاب هو صلاح العقيدة الاسلامية لحياة الجماعات البشرية ، ووفقا لهذا المنهج نرى العقاد يقدم لنا

دراساته وأبحاثه .

ونظرية ثانية يبثها الشيخ محمد عبده في تعاليمه هي ان الاسلام يفرض على الناس التفكير وان يحتكموا دائما الى العقل وهو نفسه احتكم اليه في اثبات عقائده وتعاليمه الاساسية ، وقد دعا الشيخ الامام دعوة واسعة الى الانتفاع به في العلم وجميع شؤون الحياة . والعقاد يصدر بهذه النظرية كتبه وقد افرد لشرحها كتابه «التفكير فريضة اسلامية» وهو يستهله بان من مزايا القرآن الكثيرة مزية واضحة هي التنويه بالعقل والتعويل عليه في امر العقيدة وامر التبعة والتكليف ، ويقول انه لا يذكر العقل الا في مقام التعظيم والتنبيه الى وجوب العمل به والرجوع اليه وقد خاطبه بكل صورة المدركة للتصورات الانشائية والواذعة عن المحظورات والمنكرات والاستدلالات المستخرجة للاحكام والراشدة المستبصرة . وبذلك يعم الخطاب في القرآن العقل بكل صورة وخصائصه ووظائفه ولا يذكره عرضا مقتضبا بل يذكره مقصودا مفصلا على نحو لا نظير له في كتاب من كتب الاديان .

ولعناية الاسلام بالعقل بقية في نظرية الشيخ محمد عبده يلتقي فيها بالمعتزلة ومؤداهما ان الاسلام يدعو الى حرية الارادة الانسانية يختار بمشيئته عمله . وبهذه النظرية المستمدة من الشيخ محمد عبده اصداء كثيرة في كتابات العقاد الدينية وخاصة في كتابه «الانسان في القرآن» من حيث يقرر ان الله اعطى الناس حظوظا من الحرية والارادة وبدونهما لا يكون تكليف ولا مسؤولية . وعلى هذا النحو يمكن ان يرد كثير من افكاره الدينية الى مصادرها الاولى عند الشيخ الامام محمد عبده .

ومعروف ان الشيخ الامام محمد عبده عني طويلا بالرد على خصوم الاسلام على نحو هو معروف في كتابه «الاسلام والنصرانية» وعلى ضوء هذه العناية الف العقاد كتابيه «حقائق الاسلام وابطال خصومه» و«ما يقال عن الاسلام» وقد حاول كثيرا ان يدلل على ان الاسلام وضع للانسانية صورة رائعة من الاصلاح الاجتماعي ، وهو دائم الحديث عن ذلك في كتبه السابقة وايضا فانه - اي الاسلام - كفل للناس حريتهم السياسية بما شرح لهم من نظام ديمقراطي سليم وسترى ذلك في كتابه «الديمقراطية في الاسلام» وقد عني العقاد في كتابه «مطلع النور» ببيان ان الرسالة المحمدية مهدت لحدوث مقدمات هيأت لها بحيث غيرت من لسوازم الانسانية وحاجتها ودواعيها . وسوف نراه في «الاسلام والقرن العشرين» يتحدث عن قوة الاسلام الغالبة الصامدة على التاريخ كما تحدث عن

الدعوات التي انبعثت فيه منذ القرن التاسع عشر واطوارها مع نهضات
 الاصلاح وهو دائما اذا تحدث عن مستقبل الاسلام ملأته الثقة والامل .
 يضاف الى تأثير الامام الشيخ محمد عبده في العقاد ... امكانية
 العقاد نفسه على الدفاع والاقناع والرد والحجة وهي أمور عرف بها
 العقاد وجعلته ناجحا في دفاعه عن الاسلام .. ولعل هذا النجاح مرجعه
 سعة اطلاعه ، وفحولة منطقته ، ونفاذ بصيرته الى حقائق الاشياء التي
 خلقها الله ، وتأهبه لكل قضية بما يناسبها من عتاد .

وبهذا المنهج قدم العقاد دراساته وهي : «الله» و«مطلع النور»
 و«حقائق الاسلام» و«ما يقال عن الاسلام» و«التفكير فريضة اسلامية»
 و«الشيوعية والانسانية في شريعة الاسلام» و«الديمقراطية في الاسلام»
 و«الفلسفة القرآنية» و«الانسان في القرآن» و«المرأة في القرآن»
 و«الاسلام في القرن العشرين» فماذا تقول هذه الكتابات ؟

الله :

موضوع هذا الكتاب هو نشأة العقيدة الالهية ، منذ اتخذ الانسان
 لها الى ان عرف الله الواحد الأحد واهتدى الى نزاهة التوحيد .
 وقد بدأه العقاد في الاقوام البدائية ثم لخص عقائد الاقوام التي
 تقدمت في عصور الحضارة ثم عقائد المؤمنين بالكتب السماوية ، وشفغ
 هنا ذلك بمذاهب الفلاسفة الاسبقين ، ومذاهب الفلاسفة التابعين .
 ولقد كانت عناية العقاد في كتابه هذا عناية بالعقيدة الالهية دون
 غيرها . فلم يقصد فيه الى تفصيل شعائر الاديان ولا تقسيم أصول
 العبادات ، لان الموضوع على حصره في نطاقه هذا اوسع من ان يستقصى
 كل الاستقصاء في كتاب .

ان موضوعا كهذا الموضوع المحيط لعرضه للتشعب والتطويل كيفما
 تناوله الكاتب ومن اي جانب تحراه فلا بد فيه من ايجاز ، ولا بد فيه
 من اكتفاء .

والحق ان العقاد تحرى الايجاز ، وتحرى معه ان يفنيه فيما قصد
 وذلك هو الامام باطوار العقيدة الالهية على وجهتها في التوحيد . وان
 تكون هذه الاطوار مفهومة العلل والمقدمات .
 وختم العقاد هذا البحث الهام بفصلين اما الاول فكان عن مذاهب

الفلسفة العصرية فيقول : كان الاقدمون يقولون بالإله «المقيد» لانهم يؤمنون بتعدد الآلهة او بوجود إلهين اثنين يتناظران ويتغالبان ، وهما إله الخير وإله الشر ، او إله النور وإله الظلام .

ولما شاع الايمان بالتوحيد بطل القول بالإله «المقيد» لان الإله الواحد لا يحده شيء ولا تحيط به القيود والنهايات ، وكل ما قبلته العقول النفسية في حقه ان قدرته جل وعلا لا تتعلق بالمستحيل ولم يقبل بعض المتكلمين حتى هذا القول . لانهم رأوا ان الاستحالة نوع من التقييد الذي تنزهه عنه قدرة الله .

ثم عرف الناس ان الارض كرة سيارة تدور في الفضاء كما يدور غيرها من السيارات . . وعرفوا مذاهب النشوء والتطور . فقال لهم دعائه ان الانسان حي كسائر الاحياء التي نشأت على الارض وتحولت بها احوال البيئة من طور الى طور ومن طبقة الى طبقة في مراتب المخلوقات . فتواتر القول بما كان لهذين الكشفيين من الاثر الخطير في نظرية الانسان الى الكون ونظراته الى نفسه ونظراته الى حقيقة الحياة .

كان يحسب ان الارض مركز الوجود وانه هو مركز الارض او غاية الخلق كله في الارضين والسموات ، وكان يحسب انه شيء علوي تسخر له الاحياء ، ولا يحسب انه فرع من فروع الشجرة التي نبتت منها سائر الفروع فتغير نظره الى الكون ونظره الى نفسه ولكن فهل تغير نظره الى الله؟ ربما تزعزع الايمان بالله بعد هذه الفلسفات العصرية . . التي تؤمن بوجود الله ولكنها تقيده بقوانينه أو تقيده بنواميس المادة والقوة .

هذا السؤال وغيره من الاسئلة التي تدور حول الله والايمان به في العصور الحديثة التي غلبت فيها المادة على الروح تجيب صفحات الكتاب عليه .

الشيوعية والانسانية في شريعة الاسلام

ما هي حقيقة الشيوعية ومن هو صاحبها ومن هم اتباعه ؟ وما هي حقوق الفرد ومكانه . الاخلاق والدين والآداب والفنون والمعارف والعلوم في خلال هذا المذهب التي قامت عليها الشيوعية ونادى بها اعضاؤها والمروجون لها ؟

العقاد يرسم لنا صورة صادقة - مدعمة بالشواهد والادلة

والبراهين - تنطبق بتداعي هذا المذهب وفساده ، وبأنه وليد النعمة والرغبة في اشباع شهوة الحقد والحسد والكراهية .
والعقاد لكي يصل الى رايه هذا قطع رحلة مع الكتب التي كتبت عن الشيوعية سواء لها او عليها ، الكتابات الشيوعية نفسها وترجمات لزعامتها وفي مقدمتهم ماركس .

وشرع يكتب ممهدا لكارل ماركس كشخصية لها تأثيرها العقائدي ثم درس شخصية كارل ماركس نفسها من جوانبها النفسية والاجتماعية والثقافية والسياسية على اعتبار ان دراسته لزعيم هذا المذهب ومنشئه على حد قوله يجعل من السهل دراسة المذهب ورجاله .

بعد ان يدرس صاحب المذهب كارل ماركس على حد تعبيره ينتقل الى اتباعه ثم بواعث الشكاية في الشيوعية الى ان يصل الى عرض المذهب الشيوعي نفسه ، ومن بعده يعرض المادية وعلاقتها بالمذهب الشيوعي .

ينتقل بعد ذلك الى القسم الثاني من كتابه «الشيوية والانسانية في شريعة الاسلام» حيث يخصصه عن الطبقات وعلاقتها بالشيوعية فيتحدث اولاً عن الطبقات والانتاج ، ثم عن القيمة الفائضة ثم عن حقوق الفرد في المجتمع وواجباته .

بعد هذا يصل الى القسم الثالث وهو يعتني بالشيوعية وعلاقتها بكل من الاخلاق والآداب والفنون والعارف والعلوم وهل كان لهذه العلاقة من فوائد علمية .

حتى يصل ببحثه الى القسم الاخير وهو الشيوعية والاسلام ويبين كيف ان ماركس قد قرأ عن الاسلام اثناء قراءته لعلم الانسان . غير ان العقاد يرى ان ماركس لم يقرأ تعاليم الاسلام وحلولة لبعض مشكلاته الاجتماعية قراءة دقيقة . فقد كان يبدو متعجلاً فيما وصل اليه من نتائج وأفكار .

ثم يتحدث بعد ذلك عن حاجز الشيوعية في منتصف القرن العشرين فينتجه لقرن كامل منذ منتصف القرن التاسع عشر ، مضى اكثره في الدعاية والجدل ، ومضت البقية منه في التطبيق او في محاولة التطبيق بعد الحرب العالمية الاولى .

وقد اتبحت لدعاة المذهب خلال هذا الجيل فرصة لم تكن متاحة قط لمذهب اجتماعي او عقيدة دينية لانهم ملكوا ازمة الحكم بين مائتي مليون من الناس واجتاحوا كل عقبة قائمة او تخيلوا انها قائمة دون غايتهم ولو كلفتهم ما لا يستباح .

هذه الجوانب جاءت في كتاب العقاد عن الشيوعية في شريعة الاسلام.

المرأة في القرآن

نقول مفكرة كتاب «المرأة في القرآن» للعقاد ان الصفة العامة التي وصفت بها المرأة في القرآن الكريم هي الصفة التي خلقت عليها ، او هي صفتها على طبيعتها التي تحيا بها مع نفسها ، ومع ذويها والحقوق والواجبات التي قررها كتاب الاسلام للمرأة قد اصلحت اخطاء العصور الغابرة في كل امة من امم الحضارات القديمة ، واكسبت المرأة منزلة لم تكسبها قط من حضارة سابقة ولم تات بعد ظهور الاسلام حضارة تفني عنها ، بل جاءت آداب الحضارة المستحدثة على نقص ملموس في احكامها ووصاياها ، لانها اخرجت من حسابها حالات لا تهمل ، ولا يذكر لمشكلاتها حل افضل من حلها في القرآن الكريم اذا انتقل بها البحث من الاهمال الى الدراسة والتدبير .

وقد حدد القرآن في معاملته للمرأة آثارها الانسانية التي تقوم على العدل والاحسان لانها تقوم على تقدير القوة والضعف او تقدير الاستطاعة والاكراه .

ويمكن تفصيل هذا الايجاز فالعقاد بدأ كتابه بموضوع حول ما للرجال على النساء من درجة الامر الذي جاء به القرآن وشرعته السنة ، واكد الفقهاء .

وعن الكيد عند النساء يفرد العقاد فصلا حيث يقول : جاء وصف النساء بالكيد في ثلاثة مواضع في القرآن مرتين على لسان يوسف ومرة على لسان العزيز .

والاخلاق الاجتماعية كان لها رصيد من الاهتمام في الفصل الرابع . حيث يقرر ان حكمة القرآن الكريم تتجلى في النص على قوامة الرجال من احوال المجتمع كما تتجلى من احوال الاسرة واحول الصلة الزوجية بين الذكر والانثى اي بين الرجل والمرأة في نوع الانسان .

وعن مكانة المرأة في الاسلام يذكر العقاد بأن الاسلام جاء بحقوق مشروعة للمرأة لم يسبق لها مثيل . واكرم من ذلك ان الاسلام رفع المرأة من المهانة الى مكانة الانسان المعدود من ذرية آدم وحواء ، وبرأها من رجس الشيطان وحطة الحيوان .
والحجاب الذي تطالب به الافكار الجديدة الان ، طالب به الاسلام .

فلا حجاب فيه بمعنى الحبس والحجر والمهانة ، ولا عائق فيه لحريسة المرأة حيث تجب الحرية وتقضي المصلحة وانما هو الحجاب مانع الفواية والتبرج والفضول وحافظ الحرمات وآداب العفة والحياء .
وقد حدد الاسلام حقوق المرأة في كل جوانب الحياة وفصل لها الاعمال التي تجوز لها في المجتمع .
وعندما تحدث العقاد في كتابه هذا ، وموقف القرآن مسن زواج المرأة . اتبع هذا الفصل بآخر عن زواج النبي صلى الله عليه وسلم كمثال وشريعة وبالطبع تحدث فيه عن تعدد الزوجات .
والاسلام يرى ان الطلاق حلال ولكنه ابغض الحلال عند الله . هكذا يقول العقاد في كتابه . ثم يحدد متى تكون المرأة طالقا ومتى لا تكون .
وبعد ان حدثنا عن السراري والإماء يفرد جزءا عن مشكلات البيت وكيف يكون البيت مكانا لاسعاد الزوجين والابناء .

الديمقراطية في الاسلام :

يوضح العقاد في كتابه هذا فكرة الديمقراطية كما انشأها الاسلام لاول مرة في تاريخ العالم . وقد دعاه الى هذا البحث ان الامم الاسلامية في هذا العصر تنهض وتتقدم وانها احوج ما تكون في هذه المرحلة خاصة الى الحرية والايمان متفقين . لان الحرية بغير ايمان حركة آلية حيوانية اقرب الى الفوضى والهيياج منها الى الجهد الصالح والعمل المسدد الى غايته فمن الخير ان تذكر الامم الاسلامية على الدوام ان الحرية عندها ايمن صادق وليست غاية الامر فيها انها مصلحة ونظام مستعار .

ولن شاء ان يقرأها من الوجهة الدينية فسراها مطابقة للعقيدة الدينية الحسنى في غير شطط ولا جمود.

ولن شاء ان يقرأها من الجهة العلمية فسرى ان الموضوع كله صالح للعرض على مقاييس العلم وموازينه ، ولكن على شرط ان يفهم اول ما هي المسألة التي تعرض على العلم حين نتكلم عن الديمقراطية في الاسلام . ويتساءل العقاد :

- هل هي شعائر العقيدة وعباراتها ومدلولاتها في العقل وفي الضمير؟
- هل هي اعتقاد كما استقر في فطرة الانسان؟
- هل هي الامم التي دانت بتلك العقيدة مئات السنين وصدرت عنها

في تقدير الاخلاق والعادات وتقرير المباح والمحظور ؟
 - هل هي الاعمال الجسام التي تمت ببعث تلك العقيدة ولولاها لما
 تمت على هذا الوجه او لما تمت على وجه من الوجوه ؟
 - هل هي اسلوب الوجدان في قصور الحقائق الدينية والشمور
 بالغيب المكنون وراء ظواهر هذا الوجود ؟
 - وهناك جانب «سلبى» يقابل هذا الجانب «الاجابى» ولا بد من
 السؤال عنه كما يسأل عن هذه الامور .
 فاذا عرضنا لتقدير الحياة الدينية في امة من الامم هل تستغني عن
 النظر الى الانسان المجرد من الاعتقاد الذي خلا وجدانه من الايمان ؟
 - وهل نستطيع أن نفقد من تقديرنا انه انسان غير طبيعي في قلقه
 وارتيابه وسوء ظنه بوجوده ، وأن اجتماع ملايين من أمثال هذا الانسان
 في امة واحدة يخلق لنا امة غير طبيعية في خللها وفوضاها ونقص
 البواعث التي تمسك بعضها الى بعض وتربط كلا منها برباط القانسون
 والحق وصوالح العادات ؟ وما هي الظاهرة العلمية التي يقرزها العالم
 اذا قاس الامور كلها بهذا القياس ووزن الاحداث التاريخية والاطوار
 الانسانية كلها بهذا الميزان ؟
 - هنا حقيقة شاملة لا انفكك لجزء من اجزائها في سائرنا حقيقة
 حية تنتظم في اطوائها مئات الملايين من البشر في عشرات المئات من
 السنين . وتدخل فيها بواعث الاخلاق والاجتماع والنهوض والتقدم بين
 اولئك الملايين في ذلك الزمان فأي عنصر من هذه العناصر يحمله العالم
 الى معمله لتحليله وتعليه ؟ وكيف يحلها صلة ويعملها جملة ، ويخرج
 معها جاهلا بالقوة الشاملة في هذه الحقيقة الحققة ؟ وكيف يستطيع ان
 يزيها وليس في جواهر الحقائق العيانية - ما هو اثبت منها وأعصى
 على التزييف ؟
 والكتاب يذهب الى ان طريقة الوجدان في تحصيل الحقائق تثبت
 تلك الحقائق ولا تبطلها واننا لو تأملنا حقائق الحس نفسه لوجدنا لهذا
 اسلوبا يخالف تعبير العلماء في الوصف والتعليل فنحن نسمع كلمات لها
 وقع في النفس والعلم لا يعرف من هذه الكلمات الا امواج الهواء او
 الفضاء ، ونحن نذكر اللون الاحمر واللون الازرق واللون الاخضر وغيرها
 من الالوان الخالصة او الممزوجة ، والعلم لا يعرف منها الا ذبذبة
 شعاع ، ثم لا يعرف ما هي هذه الذبذبة وأين يكون مجراها من الاثير
 او القضاء على التحقيق .

وبهذه النظرة العلمية يتلاقى رجل العلم ورجل الدين ويستطيع الباحث في الديمقراطية الاسلامية ان يحسب حسابها بضميره وعقله والا يعدو الواقع حين يضع يديه على الاسباب ونتائجها فيقول ان شاء هذا هو العيان ويقول ان شاء هذا هو الوجدان .
ويقدم معنى الديمقراطية عامة .
والديمقراطية في الاديان الكتابية .
ثم الديمقراطية العربية .
والحكومات والإمامة والديمقراطية السياسية والديمقراطية الاقتصادية والآخرى الاجتماعية والأخلاق الديمقراطية ثم التشريع والقضاء .

الاسلام في القرن العشرين :

في هذا الكتاب نجد العقاد متفائل شديد التفاؤل بمستقبل الاسلام في القرن العشرين ولعل تفاؤله هذا مبني على ما كان من أمجاد ماضيه البعيد ذلك الماضي المزهر حين امتد الاسلام من حدود الصين شرقا الى حدود افريقيا الغربية غربا ومن بحر قزوين شمالا الى السودان جنوبا ولكن العقاد رغم تفاؤله هذا يشترط شرطا واحدا لكي يظل الاسلام على أمجاده هذه والشرط هو ان يبقى العلم والبصيرة والفكر في الاسلام - مستقبلا - ذلك المكان الذي كان له ابان نهضته . فاذا بقي للاسلام هذا الشرط في رأس العقاد فلا خوف عليه من اقوياء اليوم او الغد .
والعقاد في كتابه هذا يمزج النصيحة بالامل ونحس بأن ما يقوله من آراء لا يمكن ان تصدر عن شخص مزعزع العقيدة اذ يقول :
انما نحن آمنون اذا واجهنا الغد المجهول بعدته، وانما نحن مستعدون لخير ما نستطيع اذا خرجنا من الماضي الطويل بعدته الوافية . وعبرته الوافية ان العقائد اثبتت من السياسات وان الدول اثبتت من الامم ، وان الجاهل اعدى لامته من اعدى اعدائها وما نكب الاسلام قط من حرب صليبية او من حرب استعمارية كما نكب من ابنائه الجهلاء .
ارأيت تشخيصا للداء ووصفا للدواء ابلغ من هذا الذي يسوقه علينا العقاد . فالعقاد في نظره اثبتت من السياسات لان هذه السياسات متغيرة حسب الاشخاص والازمان ، هذا من ناحية . وان من الداء اعداء الامة هم الجهلاء .. لقد ازدهر الاسلام وتقدم وكانت له الحضارة بالعلم

ووصل الاسلام بهذا العلم حتى دخل اوربا فعلمها . كل هذا كان بالعلم،
 ويوم نكب الاسلام بالجهل سلطت عليه طغيان الدول واستعمارها .

وهل هذا الكلام يصدر الا عن عقيدة مكيئة وايمان كامل بمستقبل
 الاسلام ؟ ان العقائد يسترسل في حديثه عن الاسلام فيقول : «واذا بقي
 للاسلام ايمانه والمؤمنون به على هدي وبصيرة فلا خطر عليه من اقوياء
 اليوم ولا من اقوياء الغد المجهول من كل خطر ان يتخلف مكان العلم
 والبصيرة ويتقدم مكان الجهل والغباء» . هذه عقيدة ساقها في كتابه هذا.
وفي الكتاب يحدثنا العقائد عن مضي القوة الغالبة الصامدة وينتقل
في حديثه الى مضي الشمول وشمول العقيدة بوجه خاص . ولعل كل
هذا تقديم لما يريد قوله بعد ذلك عن الاسلام اولا في القرن التاسع عشر
والمسلمون ووصفهم في هذا العالم الذي أصبح فيه اقوياء وضعفاء .
الم يقتصر مثلا على دولتين كبيرتين هما فارس وبيزنطة ؟ تلك التي نشأ
الاسلام في وجودهما في القرن السادس الميلادي وقد تحدث بشيء من
التفصيل عن الاسلام في ايران وفي مراكش وفي الهند وفي الصين وفي
افريقية الشمالية والحبشة وغيرها من البلدان تلك التي تواجه حربا
ضارية من التبشير .

ثم ينتقل الى الحديث عن محاولات الاصلاح والنهضات التي كانت
 في هذه الفترة بالذات . ويحدثنا عن المصلحين في مقدمتهم احمد خان
 وجمال الدين الافغاني ومحمد عبده والمهديون .
 وينتقل بعد ذلك الى الحديث عن الدعوات والنهضات في القرن
 العشرين وليس في القرن التاسع عشر مثلا .

الفلسفة القرآنية :

في كتابه «هذا» يوضح العقائد المقصود بالفلسفة القرآنية وهي التي
 تعني الجماعة الاسلامية في باب الاعتقاد ولا تصدها عن سبيل المعرفة
 والتقدم . بعد هذا نراه يضيق بما يذهب اليه بعض الكتاب الاسلاميين
 الذين تبهرهم الكشوف العلمية الحديثة فسرعان ما يربطون بينها وبين
 الدين ويقدمون آراء اهلها على انها فتوح جديدة في العلم والدين والعقائد
 يضع حكما دقيقة في هذه المسألة خلاصته ان معظم النظريات العلمية
 المتعلقة بخلق الكون او مظاهر هذا الخلق لا تزال مجرد فروض ولا ينبغي

ان تربط بين الدين وبين نظرية علمية قد تبدو اليوم باهرة للابصار ثم لا تلبث ان تنقضي غما واحترام العقاد للدين جملة يعبر عن هذا الموقف وهو انه لا ينبغي ان نخضع العلم للدين لان الدين يحض على العلم الى ابعد مدى ويدعونا الى البحث عن الحقيقة حتى نهتدي اليه بجهودنا .

وخلصة كتاب «الفلسفة القرآنية» انه ليس للعلماء ولا للفلاسفة ان يطلبوا من الدين غير هذا .

وانه مهما يكن من رأيهم في الايمان بالله ، فهم لا يجهلون ولا يستطيعون ان يجهلوا ان الايمان - كما قدمنا - ضرورة كونية ، لا تخلقها مشيئة احد من الاحاد ، ولو كان في قدرة الرسل والانبياء .

فاذا اجمع الناس على الاعتقاد كيفما كان اختلافهم في الجنس ، والموطن ، والمصلحة - فليس هذا عمل فرد ، ولا هو مما يقع بين الحين والحين عرضاً واتفاقاً من فعل الحيلة والتدبير ، ولكنه باعث من صميم قوى الكون ، لا يفلح الرسل والانبياء في نشر دعوته ما لم يكن في تلك الدعوة مطابقة لحكمة الخلق وشر التكوين .

وكل اعتراض يعترض به المنكرون على حقائق الاديان لا يقام له وزن ، في مواجهة هذه الظاهرة الواقعة التي لا شك فيها . .

بل هو لا ينفي الوحي الالهي كما تخيلوه ، او كما يمكن ان يتخيلوه ، ولا يبطل ضرورة الاعتقاد بين الجماعات البشرية بحال من الاحوال .
انهم يتخذون من عقائد بعض العامة ، او عقائد بعض الخاصة ، دليلاً على انها امور لا تصدر من عند الله . الذي يصنعه اصحاب الاديان بالعلم والحكمة والقدرة على هداية العقول الى الصواب في الكبير والصغير .
فاذا كان هذا هو المبطل للوحي الالهي ، فكيف يثبت الوحي الالهي في قياس اولئك الفلاسفة او العلماء ؟ .

ايثبت بعقيدة يدين بها العامة كما يدين بها الخاصة ، وتطابق الدروس العلمية اليوم ، كما تطابقها عندما تنقض نفسها بكشف جديد ؟ .
ايثبت بعقيدة تدخل العمل الصناعي - او العملي - كل سنة او كل بضع سنوات للفحص والامتحان ؟ .

ايثبت بعقيدة ليست بعقيدة ، ولكنها مجموعة من الازياء الرسمية التي يغيرها الانسان تارة بعد تارة ، ولا يمزجها ببواطن الضمير ؟ .
كلا . . فان الوحي الالهي - متى يثبت - لا يثبت على النحو الذي تخيلوه بل على النحو الذي عهدنا عليه الاديان ، مع اختلاف العقول اختلاف الاجيال واختلاف المعلومات .

عقيدة هي عقيدة ، وإيمان هو إيمان .. وبعد ذلك موافقة لدواعي الحياة ومطالب الفكر وخلجات الشعور وهكذا تصح العقيدة ، ان صحت على الاطلاق ، وهكذا يكون الايمان ، ان كان إيمان .

والعقاد رأى أناسا يطلون الأديان في العصر الحديث باسم الفلسفة المادية فإذا بهم يستعمرون من الدين كل خاصة من خواصه ، وكل لازمة من لوازمه ، ولا يستغنون عما فيه من عناصر الإيمان والاعتقاد ، التي لا سند لها غير مجرد التصديق والشعور ، ثم يجردونه من قوته التي يبثها في أعماق النفس ، لانهم اصطنعوه اصطناعا ، ولم يرجعوا به الى مصدره الاصيل .

فالمؤمنون بهذه الفلسفة المادية ، يطلبون من شيعتهم ان يكفروا بكل شيء غير المادة وأن يعتقدوا ان الاكوان تنشأ من هذه المادة في دورات متسلسلة ، تفل كل دورة منها في نهايتها لتعود الى التركيب في دورة جديدة ، وهكذا دواليك ، ثم دواليك الى غير انتهاء .

ويطلبون منهم أن يتظروا النعيم المقيم ، على هذه الارض ، حتى صحت نبوءتهم عن زوال الطبقات الاجتماعية .. فان زالت الطبقات الاجتماعية في هذه السنة او بعدها يبضع سنوات فتلك بداية الفردوس الابدي ، الذي يدوم ما دامت الارض والسموات وتنتهي اليه أطوار التاريخ ، كما تنتهي بيوم القيامة في عقيدة المؤمنين بالأديان .. ولا يكلف دين من الأديان أتباعه تصديقا أغرب من هذا التصديق ولا تسليما أتم من هذا التسليم .

ولا يخلو دين الفلسفة المادية من شيطانه وهو «الراسمالية» الخبيثة العسراء .. فكل ما في الدنيا من عمل سوء ، او فكرة سوء ، فهو كيد من الشيطان المرید ..

ولما طبقت هذه العقيدة في بعض البلاد على أيدي اصحاب الفلسفة المادية - خيل اليهم أنهم ظفروا بحقيقة الحقائق واستغنوا بها عن كل ما اعتقده الانسان في جميع الأزمان ، ولاسيما عقائد الأديان والاطوان . وادخروها للزمن كله ، بل للأبد كله .. ولكنهم لم يكادوا يصطدمون صدمتهم الاولى في الحرب العالمية الاخيرة حتى أفلست «عقيدة الأبد» كل الافلاس ولجأوا الى الوطن يستعيدون مثله والى الديانة يستجدونها ويتمسحون بها . فنادوا «بالجهاد القومي» ورحبوا بالصلوات في المعابد وشجعوا المصلين على ارتيادها واجتمع رؤساء القساوسة في حضرة زعماء المذهب الشيعوي ليعلنوا العودة لمجلس الكنيسة الى نظامه القديم .

وفحوى هذه العبرة البالغة ان اسرار العقيدة اعمق واصدق مما يدور بأوهام منكريها ، وانها ذخيرة من القوة وحوافز الحياة تمد الجماعات البشرية بزاد صالح لا تستمده من غيرها ، وان هذه الذخيرة «الضرورية» خلقت لتعمل عملا ولم تخلق ليبيث بها العابثون ، كلما طاف بأحدهم طائف من الوهم او طارت برأسه نزعة عارضة ، لا تثبت على امتحان .
هكذا يحدثنا العقاد في كتابه «الفلسفة القرآنية» عن القرآن وكيف نظر الى الاخلاق ، والحكومة والطبقات والمادة والمرأة والزواج والميراث والاسر والرق والعلاقات الدولية والعقوبات ومسألة الروح والقدر والعلاقات الدولية والعقوبات والفرائض والعبادات والتصوف والحياة الاخرى والاصلاح .

ما يقال عن الاسلام :

يعرض هذا الكتاب لاشتات من الكتب الحديثة التي يؤلفها الغربيون عن الاسلام . ويلاحظ العقاد في هذه الكتب اختلافا بين حسن النية وسوءها .

واهم ما يهم في هذه الاشتات المتفرقة بين مؤلفات الاجانب هو محل الاخلاص فيها وفي كتابتها فمن هم المخلصون منهم ؟ ولماذا يخلصون ؟ والجواب على هذا السؤال يحدده العقاد بقوله : كل ما اطلعت عليه من مؤلفاتهم المتلاحقة في العصر الحاضر يدل على ان المخلصين منهم فريقان : طلاب المعرفة ، وطلاب العقيدة ، وقد تجمعهما فئة واحدة يقال عنهم جميعا انهم طلاب الحقيقة في عالم العلم وعالم الضمير .

ان العلماء المتجردين للبحث العلمي عندهم يتحررون من الاهـواء النفسية التي تحول بين الباحث وتقرير ما يراه كما رآه . ومنهم من يقرر مذهباً له فلا يفرق بين المشاهدات التي تنقضه او تشكك فيه او تدره معلقاً بين النقص والتأييد فينتهي الى ترجيح مذهب ثم يتبع الترجيح بقوله ان المذهب حتى الان ثابت لولا ما يرد عليه من هذه المشاهدات او تلك في جملة المشاهدات .

وليس بهؤلاء من خفاء فيما يكتبون لانه ينم على مقاصد اصحابه بعد مراجعة يسيرة ، ومنهم من عرفوا بالامانة العلمية فيما كتبوه عن سائر المطالب العلمية غير الاسلام .

أما طلاب العقيدة فهؤلاء هم زمرة من الباحثين داخلهم الشك فسي عقائدهم التي ولدوا عليها وغلب عليهم الايمان بأن الشرق هو مصدر الاديان وأن الباحثين عن العقائد الروحية مرجعهم اليه في الزمن الحديث كما كانوا يرجعون اليه في الزمن القديم .

والعقاد يرى أن أخطر المفرضين في الكتابات الاسلامية طائفتان تملكان من وسائل الدعاية ما ليس لطائفة اخرى من طوائف المفرضين وهما طائفة الصهيونية وطائفة الاستعمار .

والحق ان النتيجة التي نستخرج منها ميزانا لما ينشره الغربيون عن الاسلام والمسلمين في عصرنا - هي تمييز المخلصين منهم وغير المخلصين وحصر البواعث التي تدفع غير المخلصين الى الجهل بالحقيقة وإخفائها اذا عرفوها .

فالمخلصون منهم هم طلاب العلم وطلاب العقيدة وغير المخلصين هم المتعصبون للوطنية الغربية والمتعصبون للدعوة المادية - كما يقرر العقاد - والمتعصبون للدين عن ايمان او عن غش واحتراف وطلاب الغرائب ودعاة الصهيونية والاستعمار .

ثم يبدأ بعرض هذه الكتب التي تتناول الاسلام بالدراسة وهي مغرضة وأولى هذه الكتب كتاب «الاسلام والعصر الحديث» لمؤلفته الدكتورة «الس ليختنستادر» وغيره من الكتب والاقاويل التي وقعت تحت عيني العقاد وأراد ان يعرضها اولاً ثم يناقشها ليفند ما تقوله من مزاعم وأفكار خبيثة وقد اجتمع لديه اكثر من خمسين كتاباً كبيراً ، تناولت بالكتابة الاسلام والامم الاسلامية . لان الاسلام دين ونظام اجتماعي . . وله بهاتين الصفتين علاقة بما ينتشر اليوم من المذاهب العامة في شؤون السياسة والاجتماع .

وقد استطاع العقاد الى جانب عرضه لهذه الكتب أن يفند ما فيها من اباطيل وإفتراءات . . ويرد عليها .

الانسان في القرآن الكريم :

يتساءل العقاد : ما مكان الانسان من الكون كله ؟ . . ما مكانه بين ابناء نوعه البشري ؟ وما مكانه بين كل جماعة من هذا النوع الواحد ، او هذا النوع الذي يتألف من جملة أنواع ينجمها عنوان الانسان ؟ .

وهي اسئلة لا جواب لها في غير (عقيدة دينية) تجمع للانسان صفوة عرفانه بديناه وصفوة ايمانه بغيها المجهول . . تجمع له زبدة الثقة بعقله ، وزبدة الثقة بالحياة ! . . حياته وجياة سائر الاحياء والاكوان . . ويذهب العقاد الى ان هذه العقيدة الدينية توجد كما ينبغي ان توجد، وانما الضلالة فيمن يريد على غير سوائها الذي تستقيم عليه ، ولا تستقيم على سواه .

وهذه العقيدة الدينية لا توجد اليوم لتبدأ غدا ، ولا توجد على الايام للعارفين دون الجاهلين ، وللعاملين دون الخاملين ولن يسعون سعيهم الى العلم والايمان دون من يقعدون في مواطنهم منتظرين ، وقد يقعدون وهم يجهلون انهم قاعدون لا يعلمون ما الخبر وما المنتظر ؟ ان علموا انهم منتظرون .

هذه العقيدة بنية حية ، قوامها دهور واعوام ، ومعايش وآمال ونفوس خلقت ونفوس لم تخلق . . ونفوس يخلق لها تراثها قبل ان يصير اليها ، وسبيلها جميعا ان تهتدي الى قبلة واحدة تنظر اليها فتمضي قدما ، او تفقدها في الافق فهي اشلاء ممزقة كأنها اشلاء الجسم المشدود بين مفارق الطرق .

ان القرن العشرين ، منذ مطلع ، يعرض العقيدة بعد العقيدة على الانسان وعلى الانسانية ، ولكنه لم يعرض حتى اليوم قديما معسادا جديدا مبتدعا هو اوفق من عقيدة القرآن . واوفق ما فيها انها غنيت عن الاختراع والامتحان ، وانها على شرط العقيدة الدينية من بنية حية، شملت ملايين الخلق وثبتت معهم وحدها في كل معترك زبرن ، يسوم خذلتهم كل قوة يعتصم بها الناس .

والعقاد يقول ونحن ندعي في هذه الصفحات ان المصنف بين النصائح لا يستطيع ان ينصح لاهل القرآن بعقيدة في الانسان والانسانية اصح واصلاح من عقيدتهم التي يستوحونها من كتابهم ، وان القرن العشرين سينتهي بما استحدث من مبادئ ومذاهب و«ابديولوجيات» ولا ينتهي ما تعلمه اهل القرآن من القرآن . .

وان اهل هذا الكتاب يتدبرون القول ، فيتبعون احسنه اذا تدبروا ، فلم يأخذوا بعقيدة من هذه العقائد التي يروجها دعائها باسم المادية او القاشية او العقلية ، ويريدون بها ان تكون على الزمن بدلا من العقائد

الإلهية «ومن عقائد الغيب الذي يحسبونه معدوما أو موجودا كمعدوم» .
ثم يعرض العقائد لبعض المذاهب والعقائد التي مرت بالناس حين
استمعوا الى المادية التاريخية فقالت لهم ان الانسان عملة «اقتصادية»
في سوق الصناعة والتجارة ، تملو وتهبط في طبقاتها بمعيار العرض
والطلب وصفقات الرواج والكساد . اما الانسانية فقد انصتت الى المادية
التاريخية ، فقالت لها انها شيء لا وجود له مع طوائفها التي تخلقها
الاسعار والاجور ..» .

وحين استمع الناس الى الفاشية فقالت لهم ان الانسان واحد من
عنصر السيد او عنصر مسود وأن ابناء الانسانية جميعا عبيد للعنصر
السيد والعنصر السيد قبل ذلك عبد للسيد المختار ، بغير اختيار
وحين استمع الناس الى «العقلية» فقال لهم قائل منها ان «انسانيتهم»
شيء لا وجود له ووهم من أوهام الازهان ، وأن الشيء الموجود هنا هو
الفرد الواحد .. وبرهان وجوده حقا ان يفعل ما استطاع من نفع او
اذى ، كلما امن المغبة من سائر الافراد والاحداث .

وغير جديد ما استمعوه من اصل العقائد الالهية عن مكان هذا
الانسان من الارض والسماء ومكانه من اخوته من آدم وحواء .
خلاصة ما تقدم ان الانسان في عقيدة القرآن هو الخليقة المسؤول
بين جميع ما خلق الله .. يدين بعقله فيما رأى وسمع ، ويدين بوجدانه
فيما طواه الغيب ، فلا تدركه الابصار والاسماع .

و«الانسانية» من اسلافها الى أعقابها أسرة واحدة لها نسب واحد
وإله واحد ، أفضلها من عمل حسنا وإتقى سيئا ، وصدق النية فيما
أحسنه وأتقاه .

والانسان في القرآن الكريم يقدمه العقاد في جزئين كبيرين يبدأهما
بعقيدة القرآن فيعيد هذه الكلمات القلائل في صفحات ، ثم يتلوها بعرض
مفيد لتاريخ البحث عن نشأة الانسان في مذاهب الفكر والعلم او مذاهب
الحدس والخيال ، ولا يزيد العقاد في سرد ذلك على الامام بما يصلح ان
يكون محكا للنظر فيما يؤخذ بالبرهان او يؤخذ بالايمان عن حقيقة
الانسان .. هذا في الجزء الاول من الكتاب .

اما في الجزء الثاني وهو الخاص بالانسان في مذاهب العلم والفكر
فيتناول فيه الانسان وتطوره في الغرب والشرق ، والانسان في علوم
الاجناس والحيوان كذلك مستقبلة في علوم الاحياء .

مطلع النور :

مدار بحث كتاب «مطلع النور» هو عن البعثة النبوية – بعثة محمد عليه السلام – وما تقدمها من أحوال العالم ، وأحوال جزيرة العرب ، وأحوال الاسرة الهاشمية ، وأحوال أبويه الشريفين .
ويدور البحث فيها على نوعين من المقدمات :
مقدمات تمهد لنتائجها وتفضي إليها .
ومقدمات تأتي النتائج بعدها كأنها رد فعل لها ، وعلاج لاسبابها وعواقبها ..
مقدمات من قبيل الداء يأتي بعده الموت . فهو نتيجته وعقابه على الشريعة المعهودة في طبائع الاشياء .
ومقدمات من قبيل الداء يأتي بعده الدواء ، فليس هو نتيجة له الا على معنى واحد ، وهو لحاق الدواء بالداء ، وظهور الشفاء بعسد الحاجة اليه ..
مقدمات تتحقق بها قوانين الطبيعة .
ومقدمات تتحقق بها عناية الله .
ولاسيما حين تأتي الحاجة الى الشفاء من غير المريض بل تأتي على الرغم منه وعلى خلاف ما يرجوه ويتغيه .
ويتساءل العقاد : كيف نشأ التوحيد بعد التباس الوحداية بالشرك واختلاط الاديان بين الالهة والاولئان ؟
كيف نشأت ديانة الانسانية بعد ديانات العصبية والاثرة القومية ؟
كيف نشأت نبوة الهداية بعد نبوة الوقاية والقيادة ؟
كيف اصبحت المعجزة تابعة للايمان بعد ان كان الايمان تابعا للمعجزة؟
كيف ظهر الاسلام بعد عبادات لا تمهد له ولا يبقي عليها ؟
مقدمات لم تكن واحدة منها ممهدة لنتائجها ، وان مهدت لها خطوة في الطريق فقد تنكص بها بعد ذلك خطوات وخطوات .
وهذه هي المقدمات التي لا تأتي بعدها النتائج الصالحة الا بعناية من الله واتجاه بقوانين الكون وعوامله الى حيث يشاء ..
فليست الجاهلية مقدمة للاسلام . وليس الفساد في العالم سبب للصالح .
وليست قريش ولا جزيرة العرب ولا دولة القياصرة هي التي بعثت محمدا لينكر العصبية على قريش ويعلم العرب تسفيه التراث الموروث من

الآباء والاجداد ، ويثل العروش التي قام عليها امة وتاله عليها الجبابرة من دون الله .

هؤلاء جميعا كانوا ضحية البعثة المحمدية .
والعقاد يقرر بأن هؤلاء جميعا كانوا مريضها الذي شفي على يديها بغير شعور منه بالمرض وبغير سعي منه الى الشفاء .
وتلك هي المقدمات ونتائجها تتجه بها عناية الله .
رسول يوحى اليه فيصنع الاعاجيب .
ذلك ما يقوله المؤمنون بعناية الله .
فاذا استطاع المنكرون ان يقولوا غير ذلك فليقولوه .
وليفسروه ، فلا تفسير له عندهم الا ان الفساد يصلح الفساد وان الداء يشفي الداء وان الاسباب تمضي في طريقها فتختلف بها الطريق وتذهب الى حيث لا يقضي الذهاب . .
جاء محمد بدين الانسانية في امة العصبية .
جاء ينكر كل إله غير الواحد .الأحد في عالم يؤمن بكل إله غير الواحد الأحد ، او يؤمن به كأنه صنم من الاصنام يتعدد في كل بيعة وكل مقام .
أمحمد وحده يقدر على ذلك ؟

أمحمد يقدر عليه بعناية من الله !
او في القولين الى عقل العاقل ادناهما الى الايمان واناها من الصواب واناها عن الله .

ولولا تدبير من الله لما ادخرت جزيرة العرب لهذه الرسالة لتخرج بالتاريخ الانساني كله الى عالم جديد .
الخلاصة ان كتاب «مطلع النور» صور لنا طوابع البعثة المحمدية ، وما تقدمها من احوال الامة العربية واحوال العالم . كذلك يتضمن قصة النور .

وكيف نشأت في غشاوات الجهالة ، وقصة الايمان وكيف يقضي على عبادة الاوثان . والعقاد في هذا الكتاب لا يؤرخ للدعوة بقدر ما يدافع عنها ، وعن صاحبها . يقدم هذا في بحوث شائعة تفسر ظهور الاسلام وكيف أدى الى اعظم نهضة اجتماعية وسياسية عرفها التاريخ .

حقائق الاسلام

الكتاب يعرض القضية في ايجاز واضح مؤداه ان هنا حقائق الاسلام

وهناك خصوم لا يكتفون بالخصومة بل يؤكدونها بالباطيل وليست حقائق الاسلام الا الجوهر المصفى للدفاع عنه . فاننا لو عرضنا حقيقة ناصحة واضحة فقد عرضنا معها طريقة الدفاع عنها .

فهل للدين حقيقة قائمة ؟ او هل للدين ضرورة لازمة !
 سؤالان متشابهان نجد اجابتهما على صفحات هذا الكتاب الذي يناقش اربع امور جوهرية في الاسلام هي العقائد والمعاملات والحقوق والاخلاق .

فحين يتحدث عن العقائد يبدأ بالعقيدة الإلهية بوضعها رأس العقائد الدينية في جملتها وتفصيلها . وقد قيل ان من عرف عقيدة قوم فسي الإله فقد عرف نصيب دينهم من رفعة الفهم والوجدان ومن صحة المقاييس التي يقاس بها الخير والشر وتقدر بها الحسنات والسيئات فلا يهبط دين وعقيدته في الإله عالية ولا يعلو دين وعقيدته في الإله هابطة .

ثاني هذه العقائد هي النبوة وما نحسب ان النبوة تعظم بكرامة ابداء اكرم لها من التوكيد بعد التوكيد في القرآن الكريم لتمحيص هذه الرسالة السماوية لهداية الضمائر والعقول وجعل النبوة في مكان لائق بها .

ثالث هذه العقائد الانسان الذي ترون من احسن تكوين الى اسفل سافلين ولا يزال في الحالين انسانا مكلفا قابلا للنهوض بنفسه بعد العثرة قابلا للتوبة بعد الخطيئة محاسبا بما جنت يده غير محاسب لما جناه سواه .

والعقيدة الرابعة العبادات فالدين يعرف بعبادته بين اناس كثيرين لا يعرفون بمقائده وربما استدلوا على العقائد بالعبادات لان العبادة فرع من العقيدة يشاهد عيانا في حيز التنفيذ او التطبيق فلماذا يكون الصوم شهرا ! ولا يكون ثلاثة اسابيع او خمسة .

لماذا تكون حصة الزكاة جزءا من عشرة أجزاء ولا تكون جزءا من تسعة .

لماذا تركب وتسجد ولا تصلي قياما او قياما وركوعا بغير سجود .

القسم الثاني من حقائق الاسلام هو في معاملاته .

القسم الثالث هو في الحقوق .

والكتاب في مجمله يقدم حقائق الاسلام وابطال خصومه في العصر الحاضر ولقد وقف الاسلام مرات في مثل هذا المفترق امام خصومه منذ قيام الدعوة المحمدية وصمد لحمالات عنيفة كهذه الحملات التي يشنها عليه خصومه في العصر الحاضر ، ولكنها على اكثرها كانت من قبيل الحملات المادية والحملات الحربية التي شنها عليه منافسوه من ارباب

الدولة والسلطان ، وقل أن وقف الاسلام طويلا امام قوة يحفل بها لانها تتصدى له من الوجة الروحية . اذ كانت القوى الروحية التي تصدت له فيما مضى تنظر الى ماضيها فتلمس فيه الفارق بينها وبينه ولا تأمن عاقبة الجولة في هذا المجال وهي مجردة من عدة الدولة والسلطان وكانت من جانبها مشغولة بخصوصياتها ومنازعاتها بين نحلها ومداهبها ، وتتجرد للحملة عليه الا أن تتأهب للقلبة عليه بقوة السلاح .

أما حملات العصر الحديث فأهونها فيما يرى العقاد حملات الدولة والسلطان ، وهي الحملات التي شنها عليه الاستعمار ثم ظهر منها بعد حين انها لم تقتل فيه قوة المقاومة ولم تمنعه أن يصمد لها في ميدان اليأس والحيلة . فكان صمود الاسلام لمحنة الاستعمار آية من آيات القوة الروحية التي تسعد المعتضمين بها حين تخزلهم. قوة السلاح وقوة السياسة وقوة العلم وقوة المال . ولو لم يكن في هذه العقيدة الخالدة سر أعمق جدا من أسرار العقائد الشائعة لما اعتصم المسلمون منها بيمتصم نافع امام هذه القوى المتضافرة عليها مجتمعات .

الكتاب باختصار يميز بين الحق والباطل فحين يقدم حقيقة الاسلام فهو في واقع الامر يدحض أباطيل خصومه .

التفكير فريضة اسلامية :

يستهل العقاد هذا الكتاب بميزة من مزايا القرآن الكثيرة ميزة واضحة وهي الثنوية بالعقل والتعويل عليه في امر العقيدة وأمر التكليف ، وأنه لا يذكر العقل الا في مقام التعظيم والتنبية الى وجوب العمل به والرجوع اليه وقد خاطبه بكل صوره المدركة للتصورات الانشائية والواضحة حسن المحظورات والمنكرات ، والراشدة المستبصرة والاستدلالية المستخرجة للاحكام وبذلك لا يخاطب القرآن الا العقل بكل صورته وخصائصه ووظائفه . فالتفكير فريضة في الاسلام .

ويدلل العقاد على ان التفكير فريضة اسلامية بالآيات الكريمة ومنها : «كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون» «أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون» .

فالاسلام في خطاب دائم ومتكرر للعقل الوازع الواعي المستنير بما يدل على احترامه للفكر .

والاسلام دين يفرض التفكير ويعترف بالمنطق وهو العلم الذي يهتم بالاصول والقواعد التي يستعان بها على تصحيح النظر والتمييز . وحكم الاسلام في المنطق واضح لا يجوز فيه الخلاف ، لان القرآن الكريم صريح في مطالبة الانسان بالنظر والتمييز ومحاسبته على تعطيل عقله وضلال تفكيره .

والى جانب المنطق كانت الفلسفة ايضا . والفلسفة الاسلامية التي اعترف بها الاسلام كان لها اثر كبير في تقدم العقلية الاوربية للعلمم والعلماء قرآنا وسنة للعلم والعلماء . ووضع هؤلاء العلماء في مكان لائق بهم يؤكد ان الاسلام دين وفكر .

ولو لم يكن الاسلام دين تفكير .. والتفكير فيه فريضة .. لقفل باب الاجتهاد . ولقال انه يكفي الكتاب والسنة مصادر له ولكنه اضاف الاجماع الى الكتاب والسنة . والاجماع يقوم على اجتهاد اولي الامر واهل الذكر والعلماء والمفكرين بما اشتمل عليه من قياس واستحسان او مصالح مرسله .

كذلك التصوف وهو منسوب الى اهل الصفة الذين كانوا على عهد الرسول مظهرا من المظاهر الفكرية في الاسلام ويكفي ان نذكر لفلسفته ونظرياته .

والعقاد كتب فصول هذا الكتاب املا ان يكون بينها جواب هاد لاناس من الناشئين يتساءلون هل يتفق الفكر والدين ؟ وهل يستطيع الانسان العصري ان يقيم عقيدته الاسلامية على اساس من التفكير ؟ وهل يؤمن عقل الانسان بالدين في هذا العصر ؟ ويرى فيه دينا احق بالايمان به من الاسلام ؟

اما ان يؤمن الانسان بالدين في اعماق وجدانه بمعرفة الفكرة فذلك بحث طويل - على حد قول الاستاذ العقاد - لا يستقصي في سطور ولا صفحات ولكنه مع ذلك يتضح جليا من حقيقة ان الانسان جزء من هذا الوجود غير المحدود لا بد له من صلة عميقة تربطه به ابعد غورا من هذه العبارات الحسية التي عقدتها العلوم المتغيرة مع العصور والسنين فكيف تكون هذه الصلة ؟ تكون بالايمان .

وهذه الكتب ايضا :

يضاف الى هذه الكتب جميعا كتابان هامان :

الاول هو «ابو الانبياء ابراهيم الخليل» وفيه يحاول العقاد ان يستشف حياة النبي ابراهيم عليه الصلاة والسلام عن طريق دراسة مقارنة لمراجعتها المختلفة . . ومنها الاسرائيلية والمسيحية والاسلامية الى جانب المراجع التاريخية . ثم يحدثنا فيه عن رسالته ودعوته الى عقيدة التوحيد . . تلك التي صححت نظر الانسان الى الكون والى الحياة او جعلته يعيها وعيا كاملا .

اما الكتاب الثاني فهو عن السيد المسيح عليه السلام . وفيه يبسط في سيرته عليه السلام . وعصره ، ودعوته وادوات هذه الدعوة وشريعته ، شريعة الحب والسلام ، ثم يقوم بدراسة للانجيل مع الاستضاءة بالكهوف الاثرية ، وتحليل رسالته التي قامت على الاخاء والسلام والتعاطف والمحبة .

كذلك كتب العقاد عن فلاسفة المسلمين المتقدمين ، والداعين الى الاصلاح المحدثين . فالف كتابا عن حجة الفلسفة والطب والرياضة والفلك «الشيخ الرئيس ابن سينا» وآخر عن الفيلسوف الطيب الفقيه «ابن رشد» اوضح فيه اصالة الفكر العربي عامة والاسلامي بصفة خاصة .

ومن المفكرين المحدثين الداعين الى الاصلاح كتب العقاد عن عبد الرحمن الكواكبي كتابا بعنوان «الرحالة ك» صور فيه نضال العرب في سبيل النزعة التحررية القومية .

وعن الشيخ محمد عبده كتابا بعنوان «عبقري الاصلاح الامام محمد عبده» رسم فيه عبقرية الإمام في الاصلاح ، وصورة نفسية واضحة الملامح والمعالم من خلال جهاده في القضية الوطنية وحركة الاصلاح الازهرية وخدماته التعليمية والاجتماعية ، وايضا من خلال مذهبته الفلسفي وما قام به من حركة التحديد الديني . وهي صورة اراد بها العقاد ما اراده في الصورة السابقة لعبقرياته من وضع وقدوة حسنة تحت اعين ابناء هذا الجيل ، حتى يقتدوا بصاحبها في الاضطلاع بأمانة العقيدة ، وأمانة الفكر وأمانة الحق وأمانة الاخلاق في كل ما ينتمون ويعملون .



الفصل السادس

الاسلاميات الحكيم

ان كان ما قدمه الاستاذ توفيق
الحكيم في الاسلام قليل بالقياس
الى ما كتبه هو في جوانب اخرى
من التفكير او بالنسبة لما كتبه
غيره الا انه يعتبر اضافة
جديدة في مجال التفكير الاسلامي .
والجديد الذي اضافه هو انه
تناول الاسلام ونبيه الكريم بأسلوب
فني يخاطب العقل والقلب معا .

الملاحظ ان كتابات الاستاذ توفيق الحكيم في الاسلام قليلة بالقياس الى بقية كتاباته في الفكر والادب اذ ان حجم اهتمامه في هذا الجانب بالذات لم يتجاوز حدود كتاب «محمد الرسول البشر» وبحثن كبيرين في الدين . وبالطبع هذا قليل ايضا بالقياس لما قدمه الاربعة الآخرون الذين تضمهم مع الاستاذ الحكيم الصفحات السابقة .
على الرغم من هذا الا ان الراصد لاهتمامات مفكرينا الاسلامية في ثلاثينات هذا القرن لا يستطيع ان يتجاوز كتابات الاستاذ الحكيم في الاسلام على قلتها .

ذلك ان الاستاذ الحكيم ابتدع لنفسه اسلوبا في التناول تفرد به واصبح من حقه على هذا الراصد او المتابع لما كتب عن الاسلام في هذه الفترة بالذات الا يتجاوزه او يتعداه . . وانما يتوقف عنده باحثا ومتأملا .
فان كان الاساتذة الاربعة طه حسين والعقاد واحمد امين وهيكل يتناولون كما رأينا - الاسلام ونبيه الكريم بأسلوب واحد - وان اختلف في الزوايا والاهتمامات . هو أسلوب الدراسة او البحث ومخاطبة العقل مباشرة ، فان الاستاذ الحكيم تناول الاسلام ونبيه بأسلوب جديد ، هو الأسلوب الحوارى القريب من الفن المسرحي الذي يخاطب الوجدان والعقل معا .

نعم ان الاستاذ الحكيم يتناول السيرة النبوية بأسلوب ، فني وهذا هو الجديد الذي اضافه في مجال الكتابة عن الاسلام ونبيه الكريم . هذا

من ناحية .

ومن ناحية اخرى فان هذا التناول بالذات الذي اقدم عليه الاستاذ الحكيم واستحدثه في مجالات الكتابة الاسلامية في ذلك الوقت .. يعتبر نوعا من الرد المفحم المقنع وبنفس طريقة التناول ايضا على ما كتبه بعض دعاة الفكر والحرية وفي مقدمتهم فولتير حين تناول السيرة النبوية بأسلوب حوارى تمثيلي لكنه يتسم بالهجوم على الاسلام وتجريح لشخص الرسول الكريم هجوما وتجريحا يستنكره اي انسان يعرف الانصاف الى قلبه سبيلا ، وليس اي مسلم غيور على دينه او حتى يهمله امر دينه ولست ادري كيف يمكن للمرء ان يقتنع امام هذا المفكر الحر . كما ينعتونه بأنه حقا «مفكر» و«حر» وهو يكتب هذا الكتاب الذي ينحط بالفكر ويعصف بحريته ، كيف يقتنع المرء بأنه حقا امام مفكر حر يتملق وينافق ويستجدي .. ونقرأ معا عبارة من اهداه فولتير هذا المفكر الحر لكتاب «محمد» للبابا «بنوا» الرابع عشر لنرى الى اي مدى كان الفكر الحر النبيل الشامخ بريئا منه . انه يقول للبابا «فلتستغفر قداستك لعبيد خاضع من اشد الناس اعجابا بالفضيلة اذ تجرا فقدم الى رئيس الديانة الحقيقية ما كتبه ضد مؤسس ديانة بربرية والى من - غير وكيل رب السلام والحقيقة أستطيع ان اتوجه بنقدي القاسي لنبي كاذب ؟ فلتاذن لي قداستك في ان اضع عند قدميك الكتاب ومؤلفه وان اجرؤ على سؤالك الحماية والبركة واني مع الإجلال العميق اجثو واقبل قدميك القدسيتين .. » .

على هذه الوقاحة وذاك الابتدال يتصدى بالرد الاستاذ توفيق الحكيم بكتابه «محمد الرسول البشر» بالحجة والمنطق وهي اساليب اسلامية محضه - والاكثر بنفس أسلوب التناول الذي اختاره فولتير وهو الاسلوب الحوارى التمثيلي ومن هنا تبرز أهمية ما كتبه الاستاذ الحكيم . لكن هل تكون تفكير الاستاذ الحكيم الاسلامي من مجرد قراءاته لهذه الكتب الضارة التي كتبها الاجانب من مستشرقين ومبشرين عن الاسلام إبان تواجده في فرنسا او بعد عودته منها .

يحدثنا الاستاذ الحكيم في ذكريات شبابه «زهرة العمر» انه اطّاع الوقوف عند القرآن الكريم ، وقد كثر هذا القول في كتابات كثيرة الامر الذي يجعلنا نتدبره ونأمله .

وبعد التأمل سهل ان نجد خيطا ولو رقيقا يربط بين ما في القرآن الكريم من أمور تشد وتستحوز على نفسية واتجاهات هذا الشاب الذي

عرف عنه ميل شديد «للقصص» فالقرآن الكريم يضم بين دفتيه عديدا من قصص الانبياء والامم السالفة وله نهجه في حكاية القصة بحيث يسبغ عليها اضاءة واشكالا من الحياة الفاعلة وقد سجل القرآن ان من بين اوجه ابداعه انه يقص احسن القصص لكي يكون فيها عظة وعبرة للقارئ والسامعين فاذا كان هذا بعض اهتمام القرآن الكريم فلا شك انه يشد انتباه هذا الشاب ويجعله يتأمل هذه المعاني الشامخة والافكار العظيمة التي جاءت بأسلوب فني رائع .

هذا بالاضافة الى اتجاهات الكتاب والمفكرين في ثلاثينات هذا القرن للدفاع عن الاسلام ونبيه الكريم الذي استهدف لهجمات ضارية من مبشرين ومستشرقين اجانب. الجميع يريدون ان يقفوا مدافعين . . كل بالطريقة التي يستطيع اتقانها ، كما ذكرنا في مدخل هذا الكتاب . ولا شك ان الاستاذ الحكيم كان اكثر الخمسة الذين تعرضنا لهم اتقانا لكتابة الفن الحوارى او المسرحى . اليس هو الذي قال عنه طه حسين غداة عودته من فرنسا بأنه رائد المسرح المصرى الحديث .

ولذلك يمكن التصور ان امكانيات الاستاذ الحكيم كانت معدة للكتابة عن الاسلام وبنفس الاسلوب الذي خرج به علينا من مجرد الرغبة فسي الرد على كتابات ظالمة كان قد قرأها ، ومن تأثره أصلا بما قرأ في الاسلام وكتبه وفي مقدمتها القرآن الكريم .

فاذا كانت هذه هي الاسباب والمبررات التي كانت تدعوه للكتابة عن الاسلام فكيف كان يكتب ؟ بمعنى آخر ما هو المنهج الذي اتبعه فسي تناوله للمادة الاسلامية التي امامه ؟

لقد استلهم الاستاذ الحكيم تراثه العربى الاسلامى محاولا ان يوفق بين مادته القديمة التي قرأها واستوعبها وبين الشكل المعماري السدي اكتسبه من الحضارة الاوروبية ولعل من السمات الفارقة - كما يقول الاستاذ صلاح عبد الصبور في مقاله عن توفيق الحكيم - بالهلال - بين فكرنا التقليدي وبين الفكر الاوروبى . هذه المقدرة المعمارية التي نفتقدها والتي تعد بمثابة الشارة الاولى لكل فكر جدير باسمه .

والاستاذ الحكيم نفسه يحدثنا في ذكريات شبابه «زهرة العمر» عن صراعه للسيطرة على الشكل وغرامه باتقان البناء الفنى ولا شك ان الشكل هو اول ما يملأ قلب الفنان الشرقى حين يطالع الآثار الادبيية الاوروبية فهذا المثقف الشرقى قد نشأ في ظل تراث لا يكاد يعبر الشكل اهتماما ليجد نفسه في مواجهة تراث يتميز بهذه الروح المعمارية وهل

المسرحية الا شكل تصب فيه الافكار والتأملات والاحداث فاذا تقست شكلها كادت تفقد جوهرها . . وهل الفن كله الا اعطاء شكل لاشياء لا شكل لها .

والحق ان هذا كله وضع في كتاب «محمد الرسول البشر» فمادته عبارة عن نصوص كثيرة لا تهتم كثيرا بالشكل . . نصوص منتشرة فسي سيرة ابن هشام وتفسيرها للسهبلي وطبقات ابن سعد والاصابة لابن حجر واسد الغاية لابن الاثير وتيسير الوصول والشمائل للترمذي هي نصوص بها وقائع يأخذها كمادة اقرب الى الخام ليصوغ منها شكلا جديدا لا يتقيد فيه بترتيب او تنسيق زمني بل يتقيد فقط بما يقتضيه العمل الفني الذي بين يديه . . ذلك الذي يقول عنه انه ليس عملا تاريخيا ولا علميا وانما هو عمل فني اولا واخيرا .

وليس عدم التقيد الا بما يقتضيه العمل الفني يجعله يبعد كثيرا عن الاصل او يشط كما يقولون كفن ان بل ان المتابع لكتابات الاستاذ الحكيم في الدين الاسلامي يذهب الى انه كان حريصا الى درجة تشد الانتباه وبالطبع السبب واضح . هو انه يتناول مادة تاريخية وهي نفس الوقت تتصل بالنبي صلى الله عليه وسلم ويتعاليم الدين الاسلامي .

صحيح ان الاستاذ الحكيم فنان له شطحاته وذوقه في تناول العمل الذي امامه . ولكنه قبل كل شيء مسلم . . ثم انه بعد ذلك حين يكتب فانما يكتب عن ايمان . . والا فما معنى تصديه للدفاع عن امر لا يؤمن به . . والجانب الايماني عند الحكيم كثيرا ما نلمسه في كتبه فهو حين يتكلم على لسان «يمليخا» في مسرحية «اهل الكهف» يقول : «لست اذكر شيئا مما قال لكنني لن انسى ما شعرت به اذ ذلك . . احساس لم يعتزني في حياتي من قبل الا مرة اذ كنت اهبط الجبل ساعة غروب فاشرفت على منظر بالخلاء لم ار اجمل منه من ليلتي افكر واستذكر اين رايت هذه الصورة من قبل ؟ افي الطفولة ؟ افي الاحلام ام قبل ان اولد؟ ان هذا الجمال على غرابته ليس مجهولا عندي . وقمت في الفجر فذكرت صورة البارحة وفجأة برقت في رأسي فكرة هذا الجمال ، كان موجودا دائما ، منذ الازل ، منذ وجدت الخليقة ، هذا الاحساس بعينه هو ما شعرت به وانا اصغي الى الراهب ، ان كلامه الذي اسمعه اول مرة ليس مع ذلك جديدا عندي اين سمعته ومتى ؟ افي الطفولة ؟ افي الحلم ؟ ام قبل ان ولدت ؟ وتولدت في نفسي عقيدة ، ان هذا الكلام هو الحق اذ لا اتصور بدء الوجود بدونه ولا انتهائه بدونه» .

هكذا يتحدث الحكيم على لسان أبطال مسرحياته وأعماله الفنية ، ولا غرابة في أن يكون في هذا الحديث إيمان لأنه صدر عن قلب مليء بالإيمان . انه لا يكتب هذه الكلمات او غيرها ليصور بها احدى شخصيات المسرحية فحسب وانما هو يكتب ليعبر عن رأيه نفسه في الإيمان الديني هذا الرأي الذي يعد من أبرز آرائه وأكثرها وضوحا والحاحا في اعماله الفنية .

فاذا كان هذا هو رأي الحكيم في الإيمان مسن خلال مسرحياته او اعماله الفنية فماذا عن رأيه في الإيمان من خلال افكاره وتاملاته

والاجابة على هذا السؤال نجدها ولا شك في صفحات كتبها عن الإيمان في كتابه «تحت شمس الفكر» انه يقول مثلا : «فالعقل لا يدري ما يلائم وظيفته وما يخضع لمقاييسه ، والحقيقة العقلية ليست الحقيقة كلها ، ولكنها الحقيقة التي يستطيع العقل ان يراها من زاويته ، فاذا كانت العقيدة مرجعها القلب فان العقل لن يرى منها الا الشطر الذي يستطيع ان يراه ويظل محجوبا عنه الشطر الواقع في دائرة القلب .

«فوجود الخالق ، الجبار . المنتقم ، الرحمن ، اللطيف . لا شك فيه عند القلب ، أما العقل فان استطاع ان يتصور وجود الخالق فانه يرتاب في صحة تلك الصفات المنسوبة اليه وقد يراها - في منطقها - صفات آدمية إسبغها البشر على خالقهم إجلالا له لانهم وهم بشر لا يملكون غير تلك الصفات ، التي هي في عرفهم مرادف الاكبار والتقدير اما حقيقة الخالق فأمر بعيد عن مقدرة العقل وهل يستطيع الجزء ان يرى الكل ؟

ان رجال الدين يقعون دائما في الخطا اذ يسمون بسمة الظفر كلما قال رجال العلم قولا يتفق مع الدين ويقطبون تقطيب الغضب كلما نقض رجال العلم أسس الدين وما أحراهم في كلتا الحالتين ان يسموا غير مكثرئين بسمة الصفاء واليقين وان يعتقدوا تمام الاعتقاد ان العلم في كلا الحالتين كاذب عندهم وان صدق وان لا شأن للعلم بهم ، وان الحقيقة الدينية بعيدة عن وسائل العالم ودائرة بحثه وان العقل يستطيع ان يهدم الدين كما يشاء دون أن يسمع القلب طرقة واحدة من طرقات معوله...» .

هكذا توفيق الحكيم في كتاباته الفنية او في تأملاته الفكرية ، انسانا قوي الإيمان غيور على الاسلام . بذلك المنهج ومن هذا المنطلق يكتب الاستاذ الحكيم اسلامياته فيقدم لنا «محمد الرسول البشر» وبحثا «في

الدين» و«في الادب والدين» و«مختار تفسير القرطبي الجامع لاحكام
القرآن» .

محمد

الرسول البشر

حين شرع الاستاذ توفيق الحكيم في الكتابة عن الرسول محمد صلى
الله عليه وسلم يبدو انه لم تكن لديه النية لان يقيم الدليل بإتباع منهج
علمي صارم على صحة هذه او تلك من المسائل الدينية فهو حين تناول
هذه السيرة الكريمة يتناولها من وجهة نظر فنان ، وليس كرجل من
رجال الدين . كذلك لم يبد ان الرغبة لم تراوده في ان يكون مسن
المؤرخين ، فكل ما كان يريد هو تبرير واعطاء حق المواطنة لكل
الاصلاحات التي قامت في الماضي من خلال الاسلام ، هذا من ناحية
ومن ناحية اخرى لا ينسى الحاضر الذي سيطرت عليه الحضارة الاوربية
التي لها كبير الاثر على تفكيره . هو يريد ان يجد في النهاية مخرجا لذلك
الوضع البالغ التناقض الذي يتخبط في داخله العالم العربي المعاصر الذي
تدفعه ظروف الحياة الحديثة لتبني الحضارة الغربية ، لكنه في نفس
الوقت شديد الارتباط بالتقاليد ، شديد الولع بالمثل الدينية ، وسواء
قدم هو مثل هؤلاء الكتاب تداعيا حرا لخيالاتهم . كما فعل طه حسين او
تأملا عقليا كما فعل احمد امين وهيكمل والعقاد ، فان الهدف المشترك هو
اقامة جسر بين الماضي والحاضر . فالاستاذ توفيق الحكيم حين يتناول
شخصية الرسول الكريم يعمل على خلق تقاليد متجددة ، او على الاقل
اسلوبا جديدا في تناول ، هو وحده يستطيع ان يمكن للفكر العربي ان
يتحرر من قيوده واساليبه العقيمة وهو يواجه الحضارة الحديثة التي
تفرض نفسها وتبذر الاضطراب في العقول والنفوس الورعة ، والأسى
والخوف من ان تجلب على المؤمنين غضب السماء ، ذلك الذي يستطيع ان
يعبر عنه رجال الدين وعلمائه .

وبهذا التقليد الجديد او الاسلوب المتجدد كان يطمح الاستاذ الحكيم
حين بدأ الكتابة في السيرة النبوية الكريمة ، وحين تناول شخصية
الرسول صلى الله عليه وسلم . . كان يريد حمل رسالة جديدة كانت من
قبله مجهولة . وبحث في هذا المعين الذي لا ينضب من الاحداث

الوثائقية المليئة بالأدلة والتفاصيل عن كل ما يعمق صورة النبي صلى الله عليه وسلم وهو بهذا يقدم سلاحا ذا حدين ، تقديم الصورة الصادقة للرسول الكريم ، التي هي في نفس الوقت دفاع عنه ضد هذه الافتراءات التي صاغها الكتّاب الأجانب من مبشرين ومستشرقين ، وهذا أسلوب جديد ولا شك ، وخاصة حين يتناوله في قالب سرد فني ، وهو عمل كان لا يستطيع ان يقوم به سواه .

ومن هنا يمكن القول اتفاقا مع كتّاب كثيرين ، بأن الاستاذ توفيق الحكيم حين قرر ان يتناول موضوع السيرة تناولها بقلبه لا بعقله ، فاطلع على كل ما أورده كتب السيرة المتقدمة والمتأخرة من اخبار ، سواء كانت هذه الاخبار وقائع يقبلها العقل أم خوارق لا يصدقها غير المؤمن . ولهذا فنحن نرى - في تناوله المسرحي للسيرة - مشاهد متفقا على صحتها الى جانب مشاهد مختلف عليها .

وربما نستطيع ان ندرك شيئا من هذا في تقديمه لهذا العمل حيث قال : «المالوف في كتب السيرة ان يكتبها الكاتب ساردا باسطا محلا معقبا مدافعا مفتندا ، غير اني يوم فكرت في وضع هذا الكتاب قبل نشره عام ١٩٣٦ القيت على نفسي هذا السؤال : الى اي مدى تستطيع تلك الطريقة المالوفة ان تبرز لنا صورة بعيدة الى حد ما عن تدخل الكاتب ؟ صورة ما حدث بالفعل وما قيل بالفعل دون زيادة او اضافة توحى الينا بما يقصده الكاتب او بما يرمي اليه ؟

عندئذ خطر لي - الحديث للاستاذ الحكيم في تقديمه - ان اضع السيرة على هذا النحو الفريب ، فعكفت على الكتب المعتمدة والاحاديث الموثوق بها واستخلصت منها ما حدث بالفعل وما قيل بالفعل وحاولت على قدر الطاقة ان اضع كل ذلك في موضعه كما وقع في الاصل وان اجعل القارئ يتمثل كل ذلك كأنه واقع امامه في الحاضر غير مبيح لاي فاصل حتى الفاصل الزمني ان يقف حائلا بين القارئ وبين الحوادث ، وغير مجيز لنفسي التدخل بأي تعقيب او تعليق ، تاركا الوقائع التاريخية والاقوال الحقيقية ترسم بنفسها الصورة .

كل ما صنعت هو الصب والصبغة في هذا الاطار الفني البسيط شان الصائغ الحذر الذي يريد ان يبرز الجوهرة النفيسة في صفائها الخالص فلا يخفيها بوشي متكلف ولا يفرقها بنقش مصنوع ولا يتدخل الا بما لا بد منه لتثبيت اطرافها في اطار رقيق لا يكاد يرى» .
اذن نحن الان امام عمل فني .. او بتحديد اكثر نحن امام نمط من

السرد الحوارى استمد الاستاذ الحكيم مادته من كتب السيرة المعتمدة مثل سيرة ابن هشام وتاريخ الطبري وكتب طبقات الصحابة مثل «الاصابة» لابن حجر و«أسد الغابة» لابن الاثير ، فالمادة اذن موثقة بمعنى ما . . هو المعنى الذى اطلع عليه علماء المرويات الاسلامية ولكنها بالمعنى العصري مادة غير موثقة ، اذ اختلط فيها كثير من التراكمات الاسطورية وحفلت بتلك المادة التى اطلق عليها اسم الاسرائيليات فامتلات بالخوارق والاساطير . والاستاذ الحكيم مثله فى ذلك مثل الدكتور طه حسين فى كتابه «على هامش السيرة» يقبل هذه المادة الاسطورية كلها ، فهو من بداية المنظر الاول فى كتابه يحدثنا عن ذلك حيث يقول :

«على اطمة بيثرب - الوقت ليل» .

يهودي : (يصرخ بأعلى صوته) يا معشر يهود !

«جماعة من يهود يقبلون ويجمعون اليه» .

الجماعة : ويلك - مالك ؟

اليهودي : (يشير الى السماء) انظروا ! انظروا !

الجماعة : (يتطلعون الى السماء) ماذا ؟

اليهودي : (يشير الى السماء) طلع الليلة نجم احمد !

هكذا يحدثنا الاستاذ الحكيم أن اليهود قد راوا نجما متألقا فسرى السماء يوم ميلاد النبي صلى الله عليه وسلم ، كما يحدثنا انه قد خرج من آمنة نور رأت به قصور الشام ، وأن عبد المطلب رأى فى منامه كأن سلسلة من فضة خرجت من ظهره لها طرف فى السماء وطرف فى الارض وطرف فى الشرق وطرف فى الغرب ، ثم كأنها شجرة على كل ورقة منها نور واذا اهل المشرق والمغرب كأنهم يتعلقون بها ويحمدونها .

ونرى ابليس فى صورة شيخ نجدى يحاور حية تظهر فى الحائط ونسمع من الحية قصة الملكين اللذين شقا صدر محمد وهو طفل ونسمع نبوءة عراف هذيل ونبوءة الراهب بحيري بما سيكون للصبي محمد من شأن .

كذلك نرى الغمامة التى لا تظل الا نبيا ظهرت من جديد . . وهكذا صور كثيرة من الخوارق والاساطير اوردها الاستاذ الحكيم فى هذا العمل الفنى .

ولأن الاستاذ الحكيم اتفق معنا منذ البداية فى تقديمه لهذا العمل انه سيتناوله كفنن فاننا لا نطالبه برفض هذه المادة الاسطورية ، تلك التى شكك فيها الدكتور محمد حسين هيكلى فى كتابه «حياة محمد» وتجاهلها

الاستاذ العقاد في كتابه «عبقريه محمد» لن نطالبه برفض هذه المادة الاسطورية ، فما هو بمؤرخ او عالم . . وانما هو اديب فنان يتخذ مادته من المنابع التي تروق له ، وقد تكون هذه المادة الاسطورية اكثر بعثا على الالهام من وقائع التاريخ او العلم الراجحة عند العقل .

على ان هناك اتجاهها يرى ان عمل الاستاذ الحكيم هذا لم يكن فنا خالصا ، استلهم فيه المؤلف السيرة ليقدم من خلالها فكرة خاصة به ، ويصور شخصياتها من وجهة نظره لتحقيق غرضا دراميا ، وتشرح الفكرة التي انتهى اليها المؤلف من قراءة التاريخ، كما فعل مثلا المؤلفون الاوربيون الذين كتبوا عن الانبياء والرسول : ابراهيم ، موسى ، وسليمان ، والمسيح ، عليهم السلام بل وعن محمد صلى الله عليه وسلم حين كتب عنه «فولتير» فعالجوا هذه الشخصيات بالطريقة التي تتلاءم مع فكرة كل مسرحية .

للانصاف نقول : ان توفيق الحكيم لم ينهج هذا النهج الفني الخالص لاسباب كثيرة ، اولها : ثقافة توفيق الحكيم نفسه ، التي استقاها من القرآن الكريم ، وثباتها كونه مسلما يريد الدفاع عن الاسلام ونبي الاسلام كغيره ، ولكن بأسلوب يتقنه ، وهو السرد الجوارى الفني . وثالثها ، ان لم تكن اهمها ، نظرة التقديس التي ينظر بها المجتمع الذي يعيش فيه الاستاذ الحكيم للنبي صلى الله عليه وسلم ، تمنع تعريض هذه الشخصية العظيمة لاجتهادات الاديب وشطحات الفنان .

ولهذا فالاستاذ الحكيم لا يستخدم في هذا الكتاب فنه الخالص بقدر ما يستخدم حرفيته ولهذا ايضا كانت عبارته فعكفت على الكتب المعتمدة والاحاديث الموثوق بها واستخلصت منها ما حدث بالفعل وما قيل بالفعل وحاولت على قدر الطاقة ان اضع كل ذلك في موضعه كما وقع في الاصل . . » .

ولهذا يمكن القول ايضا ان تناول الاستاذ الحكيم للسيرة النبوية ليست امتدادا لتناول الدكتور طه حسين في كتبه الثلاثة على هامش السيرة فقد ربط البعض بين الاثنين لاهتمامهما بالخوارق والاساطير ولأن ظهور كتاب الاستاذ الحكيم «محمد الرسول البشر» عام ١٩٣٦ كان بعد ظهور «على هامش السيرة» الذي صدر عام ١٩٣٣ .

الا ان الدكتور اسماعيل ادهم والدكتور ابراهيم ناجي يقولان في كتابهما عن «توفيق الحكيم» انه بدأ يفكر في كتابة السيرة النبوية في اسلوب مسرحي عام ١٩٢٧ حين كان بفرنسا غير انه لم يقم بعمل جدى

في هذا السبيل حتى كان عام ١٩٣٤ اذ طلبت اليه مجلة «الرسالة» التي كان يصدرها الاستاذ أحمد حسن الزيات ، أن يكتب فصلا حول السيرة لينشر في عددها الممتاز الذي تصدره في مستهل كل عام هجري عن الهجرة ، فرجع الاستاذ الحكيم الى السيرة في كتبها القديمة وكتب للمجلة فصلا من حياة الرسول صلى الله عليه وسلم في قالب تمثيلي ، فصادف نجاحا عند جمهور مجلة «الرسالة» ، ولم يثر شيئا مما كان الاستاذ الحكيم يخشاه من غضب المتعصبين ، وتشجع فراجع ما أمكن من كتب السيرة والحديث واخذ يكتب سيرة الرسول في أسلوب مسرحي نشر في فبراير عام ١٩٣٦ .

اذن لم يكن تناول الاستاذ الحكيم للسيرة امتدادا لتناول الدكتور طه حسين ، يضاعف من التمسك بهذا الرأي ان الاستاذ الحكيم قد قرأ تمثيلية فولتير عن النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، واستفدته الطريقة التي اتبعها فولتير واهتم بما قرأ لفولتير حتى انه بدأ يقرأ ما كتبه الكتاب والنقاد بعد ذلك تقييما لهذا العمل الذي هاجم النبي والاسلام هجوما ضاريا ، ويذكر انه قرأ للكثيرين من الكتاب في مقدمتهم جان جاك روسو ، حدث هذا اثناء تواجده في باريس وهو ما ذكره بعد ذلك في كتاباته .

ان كانت هذه نظرة من بعيد الى تناول الاستاذ الحكيم للسيرة النبوية بأسلوبه المسرحي او الحوارية ، فما هي النظرة القريبة لهذا العمل العظيم ؟ بمعنى آخر ما هي تفاصيل هذا العمل ؟

المسرحية او هذه السيرة الحوارية تتكون من خمسة فصول يبلغ عدد مناظرها ٩٤ منظرا لكل فصل من الفصول الخمسة عدد من المناظر .
فالفصل الاول يتكون من ثمانية مناظر يبدأ اولها باليهود وهم يطالعون نجم أحمد في السماء ، ثم ولادته والقصص والاساطير التي قيلت حوله صلى الله عليه وسلم ، ثم طفولته وكيف كانت هذه الطفولة ثم شبابه وما اشتهر به من جمال في الخلقة والاخلاق امرا جعل امرأة من اكرم النساء في قريش حسبا ونسبا تفكر فيه وهي السيدة خديجة فترسل اليه تابعتها نفيسة لتعرض عليه يدها ويتم الزواج بين محمد صلى الله عليه وسلم والسيدة خديجة رضي الله عنها وينتهي الفصل الاول عند هذا الحدث .

يليه الفصل الثاني وهو يتكون من ستة وثلاثين منظرا فيه يطالعنا الرسول صلى الله عليه وسلم في مبعثه وفي كفاحه ، وفي هجرته ،

ويبدأ هذا الفصل بمنظر لغار حراء وعلى مقربة منه راعيان يرعيان الغنم ،
ويكون موضع حديثهما محمد الذي يخلو بنفسه في هذا الغار ليتعبد ،
ويختفي الراعيان في الوادي ليظهر الرسول الكريم وهو يسير إلى الغار
ويضع زاده في صمت ، ثم يسجد طويلا .
محمد : (ناظرا إلى السماء) ألم يأن لي أن أرى وجهك الذي أشرقت له
الظلمات !

ويظل على هذه الحال حتى يرى ضوءا غريبا ويسمع صوتا عجيبا ،
ويهبط عليه الوحي ، وتتوالى بعد هذا الاحداث . فالقوم لا يؤمنون بما
يقول ، وهو مصرّ على ما يقول ، ويعرضون عليه كل مغريات الدنيا على
ان يحيد عن موقفه فلا يقبل ، عندئذ لا يكون هناك بديل من التصادم مع
هذا الرجل الذي يحطم أصنامهم ، ويسفه آراءهم ويسخر من معتقداتهم
ولا يطول به المقام في هذا المكان فيهاجر إلى المدينة لتبدأ أحداث جديدة .
والفصل الثالث من عشرين منظرا ويتناول حياة النبي صلى الله عليه
وسلم في المدينة المنورة حتى غزوة الخندق شارحا باسطة هذه الحياة
الجديدة بالنسبة للمهاجرين والانصار .

وها هي المدينة لأول مرة تملأ أصوات المسلمين بالله أكبر الله أكبر ،
وها هو الرسول الكريم مع الصديق ابي بكر وحولهما المسلمين من أنصار
ومهاجرين يقبلون من كل صوب وحذب ليكون هذا الحوار :
الناس : يا رسول الله جئتنا بالهدى اهدنا إلى الله .
محمد : أيها الناس أفتشوا السلام وأطعموا الطعام وصلوا الأرحام وصلوا
والناس نيام وأدخلوا الجنة بسلام .
«ينهض إلى راحلته ومعه ابو بكر» .
المسلمون : إركب امننا مطاعا .

ثم يحيطون بالنبي وقد وضع النبي للناقة زمامها) .
الناس : من نساء وصبيان وإماء يصيحون فرحين «نبي الله جاء نبي
الله جاء» .

وتتوالى الاحداث بعد ذلك ويزداد الصراع بين محمد صلى الله عليه
وسلم وورائه أتباعه الذين يدخلون في دين الله ، وبين أعدائه حتى يكون
يوم الخندق حيث يحاصر العدو المسلمين ، ولكن الله سبحانه وتعالى
ينصر دينه ونبيه على القوم الكافرين .

ثم الفصل الرابع وهو من اثنين وعشرين منظرا . تبدأ المناظر الأربعة
منها بسررد حديث الأفك وكيف ان الناس ظنوا سوءاً بالسيدة عائشة رضي

الله عنها وكيف ان الله سبحانه وتعالى برأها حيث نزلت الآية الكريمة . .
« ان الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شرا لكم بل هو خير
لكم ، لكل امريء منهم ما اكتسب من الاثم والذي تولى كبره منهم له
عذاب اليم» . . وتستمر الحياة بعد ذلك بما فيها من صراعات بين هؤلاء
الذين يرون ان ما يؤمنون به هو الحق ، الى ان يكون يوم فتح مكة الذي
ينتهي به هذا الفصل وبهذه السورة الكريمة حيث يتلوها الرسول صلى
الله عليه وسلم : « اذا جاء نصر الله والفتح ورايت الناس يدخلون فسي
دين الله أفواجا - فسبح بحمد ربك واستغفره انه كان توابا» .

ينتقل بعد ذلك الى الفصل الخامس والآخر وهو من ثمانية مناظر
كلها عن ايام النبي الاخرة حتى يوم وفاته .

« يرى جبريل قد هبط عليه»

جبريل : يا أحمد ان الله ارسلني اليك اكراما لك وتفضيلا لك وخاصة لك
يسألك عما هو اعلم به منك ويقول لك كيف تجددك ؟

محمد : (شاخص العينين يتكلم من قلبه دون ان يبدو لمن حولسه شيء)
أجدني يا جبريل مغموما واجدني يا جبريل مكروبا .

جبريل : (يشير الى ملك خلفه) يا أحمد هذا ملك الموت يستأذن عليك ولم
يستأذن على آدمي من قبلك ولا يستأذن على آدمي بعدك .

محمد : ابدن له .

ملك الموت : يا رسول الله يا أحمد ، ان الله ارسلني اليك وامرني ان
أطيعك في كل ما تأمرني ان امرتني ان اقبض نفسك قبضتها وان

امرتني ان اتركها تركتها .

محمد : وتفعل يا ملك الموت ؟

ملك الموت : بذلك امرت ان اطيعك في كل ما امرتني .

جبريل : يا أحمد ان الله قد اشتاق اليك .

محمد : امض يا ملك الموت لما امرت به .

جبريل : السلام عليك يا رسول الله ، اليوم آخر عهدي بهبوط الارض

« يرتفع الملكان ويتركان محمدا جثة هامدة» .

وتنتهي المسرحية بهذا المنظر الثامن : « النبي مسجى على سريره يدخل

الناس عليه زمرا يصلئون عليه ويخرجون بغير ان يؤمهم إمام ، أبو بكر وعمر
وعلي في الصف الاول امام جثة النبي صلى الله عليه وسلم مطرقين . .

علي : (همساً للجثة والعبرات في عينيه) انت امامنا حيا وميتا .

أبو بكر وعمر : (للجثمان) السلام عليك ايها النبي ورحمة الله وبركاته، اللهم

انا نشهد ان قد بلغ ما انزل اليه ونصح لامته وجاهد في سبيل
الله حتى اعز الله دينه وتمت كلماته فأمن به وحده لا شريك له
فاجعلنا يا إلهنا ممن يتبع القول الذي أنزل اليه ، وثبتنا بعهده
واجمع بيننا وبينه فإنه كان بالمؤمنين رؤؤفا رحيفا لا نبتفسي
بالايمان بدلا ولا نشترى به ثمنا ابدا ..

الناس : (في صوت واحد) آمين .. آمين .

يبقى بعد عرضنا السريع للمسرحية القول بأن الاطار الفني الذي
صب فيه الاستاذ الحكيم سيرة النبي صلى الله عليه وسلم اطار بسيط
باعتراف الكاتب نفسه في مقدمته ، حيث قال : كل ما صنعت هو
الصب والصياغة في هذا الاطار الفني البسيط ..

الحوار اذن في كتاب «محمد الرسول البشر» اطار خارجي ، ومن
هنا فان هذا الكتاب ليس مسرحية بل سردا حواريا اما المضمون الفكري
فيه ، فهو عسير على التلمس فلن نستطيع ان نقول انه محاولة لاسباغ
العنصر الانساني في السيرة النبوية ، بدليل ان المؤلف لا يتوقف عند
موقف دون آخر . فحادث مثل حادث الإفك تبدت فيه انسانية النبي
صلى الله عليه وسلم وشجاعته النفسية ، لا يمثل من الصفحات اكثر من
حوار بين النبي الكريم وبين احد الصحابة في أمر من أمور الحرب ،
ومشهد حزين كموت ابنه ابراهيم لا يكاد يوقف عنده الا ريشما تقسال
الالفاظ التي وردت في كتب السيرة ثم يمضي عنه الاستاذ الحكيم
على عجل .

لكن على اي حال لا يستطيع المرء الا الاعجاب بما كتب الاستاذ توفيق
الحكيم مدافعا عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ومؤكدا بتناوله الفني هذه
القيم الاسلامية .

في الدين

في كتابه «تحت شمس الفكر» خصص الاستاذ توفيق الحكيم قسما
كبيرا تحت عنوان «في الدين» ، تحدث في فصوله الستة عن الدين
الاسلامي ، والحق ان هذا القسم كان يمكن ان يستقل بنفسه ، ليكون
كتابا واحدا بنفس العنوان ، يضمه الاستاذ الحكيم خلاصة رايه بسبب
وعقيدته الاسلامية .

ففي فصل عنوانه «منطقة الايمان» يفرق الاستاذ الحكيم بين الحقيقة العقلية والحقيقة الاحساسية او الدينية . فالحقيقة العقلية او العلمية لا يتجاوز علمها الكائنات التي تمر بالحواس ، ومن يجمّل العقل اكثر من قدرته فهو فإتما يريد منه المستحيل ويشبه طلب كهذا كما نطلب من الكبد مضغ الطعام وعلى هذا فهو يقرر في هذا الفصل بالذات ان حقيقة الله امر بعيد عن مقدرتها العقل وهل يستطيع الجزء ان يرى الكل ؟

ويتساءل الاستاذ الحكيم في هذا الفصل كما يتساءل الناس دائما : ما الدين ؟ اهو شيء مفيد للبشر في امر حياتهم ومعاشهم ؟ أم هو طريق لحل اللغز الاكبر وسبيل للنفوذ الى المجهول الاعظم ؟

ويجيب : ان كل دين من الاديان المعروفة يتكون من هذين الوجهين ، فالدين باعتباره قانونا اجتماعيا ينظم الفرائض ويحفظ التوازن بين الخير والشر امر متعلق بذات الانسان متصل اذن بعقله وعلمه . . على ان عنصر الاخلاق في الاديان ليس كل جوهرها . فان بعض البلاد قد استطاعت ان تجد في الاخلاق غني لها عن «الاديان» انما قوة الدين وحقيقته فسي العقيدة والايمان «بالذات الازلية الايمان بالله» .

هنا لا سبيل الى الدنو عن تلك «الذات» الا عن طريق يقصر عنه العلم الانساني . . بل يقصر عنه كل علم ، لان العلم معناه الاحاطة ، والذات الابدية لا يمكن ان يحيط بها محيط ، لانها غير متناهية الوجود فالاتصال بها عن طريق العلم المحدود مستحيل .

وهنا يقرر الحكيم حقيقة بالغة الاهمية وهي تتركز في قوله : «ها هنا يبدو عمل الدين ضرورة للبشر» . ثم يناشد رجال الدين في ختام فصله الى وجوب التسامح والهدوء كلما قام باحث يتكلم في الدين عن طريق العقل فان الشرق اليوم مقبل على حياة علمية واسعة مهادها المعاهد والجامعات ، ولا بد لنماء ملكة العقل من التفكير .



والفصل الثاني من هذا البحث وهو بعنوان «الدفاع عن الاسلام» فيه يقوم بالدفاع عن نبي الاسلام محمد صلى الله عليه وسلم حيث يذكر قصة فولتير التمثيلية «محمد» التي يهاجم فيها الرسول الكريم كنيبي ، والاسلام كدين ، ويذكر انه علم بان «جان جاك روسو» تناول اعمال فولتير بالنقد ، وانه اطلع على نقده لتمثيلية «محمد» عليه يجد الحق وقد رد الى

نصابه فلم يجد . ان روسو هو الآخر لم يدفع عن محمد صلى الله عليه وسلم ما الصقه فولتير كذبا ، وكأن ما قيل عن النبي لا غبار عليه ، ولا حرج فيه ولم يتعرض للتمثيلية الا من حيث هي فن وأدب .
ويذكر الحكيم صدمته وفجيعة الروعة في ذلك المفكر الكبير فولتير ويرى انه متهم عنده ولن يبرئه أبدا ، ولن يعده أبدا من بين أولئك العظام الذين عاشوا بالفكر وحده وللفكر وحده ، ويرى ان التاريخ العادل سوف يحكم عليه هذا الحكم .

لكن الفجيعة كانت اكبر والدهشة اعظم بالنسبة للاستاذ الحكيم ، ان الشرق والاسلام وقفا من هذا الامر موقف النائم الذي لا يعي ولا يشعر بما يحدث حوله ، فلم يقرأ كتابا من كتاب الاسلام قام في ذلك الوقت يدفع عن دينه هذا الهراء الذي قاله فولتير ، ويقذف في وجه هذا الكاتب بالحقائق الباهرة القاطعة ، فالمسألة ليست مسألة دين فحسب ، انما هي ايضا مسألة جنس وقومية .

فأوربا حين تقول «الاسلام» فانما تعني في غالب الاحيان الشرق ، والدفاع عن الاسلام لم يكن في كل الاحيان دفاعا عن عقيدة او ديانة انما هو دفاع عن حياة تلك الكتلة التي يسميها الغربيون الشرق ، ان الحروب الصليبية مثلا في حقيقتها لم تكن الا حرب الغرب على الشرق ، وان الفتح الاسلامي عندما بلغ فرنسا وهدد اوربا ، لم يكن في الواقع الا حرب الشرق على الغرب .

ويذكر الاستاذ الحكيم بعض الآراء المهاجمة للاسلام ونبيه ، بذكر كتابات الوزير الفرنسي «جابريل هانوتو» وكذلك كتابات «كيمون» .
فمثلا هانوتو يرى خطر الاسلام زاحفا الى الغرب ، والثاني يرى ان الديانة المحمدية جزام فشا بين الناس ، وأن قبر الرسول الكريم ما هو الا عمود من الكهرباء ، يبيث الجنون في رؤوس المسلمين ويلجئهم الى الاثنان بمظاهر الصرع والهستيريا .

ويتضمن هذا الفصل رد للاستاذ الامام الشيخ محمد عبده على «هانوتو» و «كيمون» .

ويذهب الى انه آن للغرب ان يحترم عقائد الترق ، بل لقد آن للغرب ان يدرك ان «محمدا» والاسلام هما في منابع الفكر الحر ، وطفرة من طفرات البشرية المتحررة ، والدليل على ذلك شخصية النبي ذاتها ، وغرضه في الدعوة الى دين جوهره اقناع النفس ، وحين أعلن انه بشر وأن دينه هو دين الفطرة البشرية ، وأنه قاوم السفهاء الذين كانوا يطلبون

الى الانبياء ان يثبتوا نبوتهم بالمعجزات فاتموا في الفكر البشري قبل ان ياتموا في حق الدين .

ان «محمدًا» قد فهم حقيقة النبوة ، ووعى معنى الحقيقة العليا ، وادرك ان اكبر معجزة في هذا الكون هي الا يكون في الكون معجزات .

ان محمداً قد تأمل الطبيعة كثيرا ايام عزلته في «غار حراء» ، وفكر مليا في نظامها العجيب ، فكشف عن بصيرته وبصره فامتلا قلبه بالله الواحد ، كما اقتنع عقله بوجوده ، فجاء دينه ديننا متكاملا صادقا في نظر القلب والعقل معا .

ولئن كان في الارض نبي حرص على ان يجاهر بمحبة العلم ومصادقته؛ ولم يخش دينه العلم ، ولم يضطهد العلماء . فهو محمد الذي قال : «فضل العلم خير من فضل العبادة» : وقال : «اطلب العلم ولو في الصين» . وغيرها من الاحاديث التي تثني على العلم وتحصن عليه . . ذلك ان مصدر اقتناع العلم ومصدر اقتناع محمد واحد : الكون وملاحظة ما فيه من ابداع ينم عن عقل مبدع هائل .

ويختتم الاستاذ الحكيم هذا الفصل بقوله : «اني كلما تأملت شخصية محمد مجردة ، ثبت ايماني بان الخصومة المعروفة بين العلم والدين ليس لها في الحقيقة وجود ، وان الدين الحق لا يتعارض والعلم الحق ، بل ان الدين والعلم شيء واحد كلاهما يطلب نور الله ويريد وجهه وكلاهما يسعى ويؤمن ويلهج بتناسق الوجود ووحدته قوانينه ودلالته وحدة الوجود على وحدة الخالق ولم يظهر نبي حق ، ولا عالم حق وشعر بغير ذلك ، انما الفارق بين رجل العلم ورجل الدين هو في السبيل التي يسلكها كل في الدنو من الله .

ان الطرق والسبل يجب ان تظل مختلفة مميزة لا يختلط بعضها ببعض ، انما المصدر واحد دائما والغاية واحدة .

هكذا كان دفاع الاستاذ الحكيم عن الاسلام ونبيه الكريم خير دفاع .



وفي الفصل الثالث وعنوانه «نجم احمد» يواصل الاستاذ الحكيم حديثه او دفاعه عن الاسلام ونبيه متسائلا ما الاسلام ؟ وكيف ظهر بظهور محمد ؟ ويجب في الصفحات عاقدا مقارنة بين الاسلام وبقية الاديان «المسيحية» و«اليهودية» ويرى ان الاسلام جاء بأسلوب جامع مانع

سهل ممتنع محكم الوضع مصقول التراكيب .

ويحدثنا الحكيم في هذا الفصل عن حكمة الاسلام التي تبدو واضحة ظاهرة بين سائر الاديان . فهو دين بسيط فطري لم تدخله صناعة كل شيء فيه صادق خالص صافي ، ليس فيه انكار لقوانين الطبيعة بل فيه مسايرة حكيمة ومصاحبة رشيدة لكل ما فرضه النظام العلوي على البشر من حيث تركيبهم المادي والمعنوي ، ذلك ان اسلوب محمد صلى الله عليه وسلم في ادراكه «الحق» كان اسلوبا مستقيما . فهو قد ادرك ان معنى الحق انما هو السبب الذي يصدر عنه الناموس الاكبر ، وان روح الوجود و«النظام» ، اذ لا يتصور ان تكون الفوضى من عناصر الخليقة . بل ان الفوضى اذا حلت في نظام الوجود انقلبت نظاما لانه لا وجود بلا نظام بل ان كلمة الفوضى لا محل لها الا في عقول البشر .

كل هذا فهمه «محمد» صلى الله عليه وسلم ، فجاء اسلوب الاسلام في الافصاح عن الحق واضحا جليا ، لا يأمر بالرهبية ، ولا بالفرار من الدنيا ، ولا بتعذيب الجسد من اجل الله لان الله لا يأمر بتحطيم ما بناه . ويوضح الاستاذ الحكيم في فصله هذا غاية الدين عند البشر ، وهي التي تعمل على توفير اسباب الحياة الصحيحة ، والدنيا الصحيحة خير تمهيد لآخرة صحيحة ، فان الاسلام بلا مرء هو دين الصحة في كل شيء ، فهو ذو صوت جهير في الدعوة الى صحة الجسم وصحة العقل وصحة العقيدة .

ولما كانت هذه هي غاية الاسلام اصبح من اليسر ان يغزو النفوس والعقول . . فان الدين «المثالي» هو الدين البسيط ، وهل ابسط من الاسلام شريعة وهي لا تعرف «رجال دين» ؟ ولا تقر وجود اناس يجعلون من هداية الناس حرفة يأكلون منها ويكنزون ؟ ومن «الدين» مهنة تدر الرزق وتعطي متاع الدنيا ؟ ان اولئك الذين يجعلون الدين سلما - لا الدنيا سلما للدين - قد طردهم الاسلام من حظيرته ، وجعل الدين سمحا باسمه باسما ذراعيه لكل الناس لا احتراف فيه ولا احتكار .

وفي الفصل الرابع من هذا البحث وعنوانه «سر العظمة» يواصل الاستاذ الحكيم الحديث عن الدين الاسلامي والرسول صلى الله عليه وسلم ، فيحدد موقع النبي الكريم من العالم في بداية دعوته حين يكون

وحده ، الذي يدين بدين جديد ، بينما الدنيا كلها : اهله وعشيرته وبلده وامتة والفرس والروم والهند والصين وكل شعوب الارض ، لا يسيرون ما يرى ولا يشعرون له بوجود .

رجل ليس لديه قوة او سلاح ، الا مضاء العزيمة وصلابة الايمان ، امام عالم تدعمه قوة العدد والعدة وتؤازره حرارة عقيدة قديمة شب عليها ، وورثها عن اسلافه ؛ واتخذت لها في قرارة نفسه واعماق تاريخه ، جذورا ليس من السهل اقتلاعها على اول قادم .

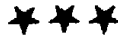
ويرى الاستاذ الحكيم ان هنالك مبارزة بين فرد اعزل وبين عصر بأسره يزمجر غضبا : عصر زاخر بأسلحته ورجاله وعقائده وفقهائه وعلمائه وتقاليده وماضيه وتاريخه ويتساءل قائلا : «هذه المبارزة الهائلة العجيبة من يستطيع ان يقدم عليها غير نبي ؟ ثم كيف استطاع النبي ان يسيروا الناس ما يرى وان يقنعهم بما جاء به ؟

والجواب بسيط : حياة النبي وخلقه .. ان الناس لا تقتنع بالكلام وحده وانما يؤثر فيهم الفعل والمثل . ان الناس يوم ايقنوا ان محمدا صلى الله عليه وسلم لا يسعى الى غنى ولا الى ملك ، وأنه يريد ان يبقى فقيرا ، يشبع يوما ويجوع اياما ، وان تلك المخاطر التي يتعرض لها في كل خطوة ، وان كل ذلك الهوان الذي يناله من سفهاء القوم واکابرهم ، وان كل ذلك الجهاد الذي ملأ به حياته بأكملها : انما هو سبيل العقيدة التي يقول لهم عنها منذ ذلك اليوم الذي اجتمع فيه كبراء امته وعرضوا عليه ثروتهم ، ووعدوه ان ينصبوه ملكا عليهم ، على شرط ان يتركهم على دين آبائهم . فرفض المال والمجد والسلطان وأبى الا شيئا واحدا صغيرا : ان يؤمنوا معه بفكرته . عند ذاك أدرك القوم ان الامر جد لا هزل ، وانهم امام رجل ليس ككل الرجال ، رجل يعيش من اجل فكرة .. يضحى في سبيلها بخير ما في الحياة .

لكن كل هذا لا يكفي ، فالناس قد تقتنع بأمانة النبي ، وقد تستمع الى ما يقول ، ولكنها لا تستطيع بأي حال من الاحوال ان تنبذ في يوم وليلة كل ماضيها لتؤمن بهذا الكلام الجديد . لقد وضعت المسألة اذن وضعا آخر واتخذت الحرب ميدانا جديدا فماذا يصنع النبي ؟ سؤال يطرحه الحكيم في هذا الفصل ويتولى الاجابة عليه قائلا : لا بد له من ان يبدد ضباب الشك المخيم على الازدهان ، حتى يصل اليها نور الدين .. وهنا صفتان لازمتان الصبر والثابرة ، فان العاقبة في الحرب لمن صبر وصابر وثابر وأن امامه لخصم جديدا هو الشك الذي يقوم الان في رؤوس

الناس ، فان كان حقيقة رجلا عظيما فليقتل هذا الشك بمفرده وما هو بشك رجل واحد وانما هو شك امة طامية .

لقد جاهد الرسول الكريم فعلا في كل لحظة من لحظات حياته ، الى ان استطاع ذات يوم ان ينقل العقيدة التي في قلبه حارة قوية الى قلوب الناس جميعا ، وهنا كان النصر الاخير ، وتمت المعجزة وتمكن هذا الرجل الواحد ان يضع العالم في قبضته ، ويخضعه لفكره ويطبعه الى ابد الأبدين ؛ بخاتمه وهذه سر عظمته .



وتحت عنوان «المرأة في شباب النبي» وهو الفصل الخامس من هذا البحث. يناقش الاستاذ الحكيم موقف النبي صلى الله عليه وسلم من المرأة وكأنه يرد على هذه الاتهامات الباطلة التي كان يوجهها اليه دعاء الغرب من المبشرين والمستشرقين في هذا الموضوع بالذات فيقرر منذ البداية ان النبي صلى الله عليه وسلم لم يتحرك قلبه لامرأة قبل خديجة رضي الله عنها كما يروي لنا التاريخ . ويعلل ذلك بأن حياة النبي الكريم حتى الخامسة والعشرين ، كانت حياة عاكف على عمله ، متأملا فسي ملكوت الله فلم يكن للهو والمرأة حتى ذلك الوقت مكان من اهتمامه او تفكيره .

كانت العفة المطلقة اذن هي صفة النبي الكريم الغالية وقتئذ ، وكان الزهد والصبر والتواضع هي مميزاته عن بقية الشبان ومما جعل قومه يسمونه الامين .

ويفسر الاستاذ الحكيم مرحلة الشباب عند النبي صلى الله عليه وسلم ، وكيف كان يقضيها حتى الوقت الذي لقي فيه اول امرأة احبها «خديجة» رضي الله عنها ويؤكد ان شأن النبي في ذلك الوقت هو شأن اولئك الذين انتظرتهم اقدارا عظام ، وتملكتهم منذ شبابهم مثل عليا واحلام عمرت كل اعوام شبابهم ، وحلت فيها محل الله والمرح . ان كل شاب يعيش فهو يعيش دائما مع شبح المجد المنتظر .

وحتى اذا تأملنا قصته مع السيدة خديجة رضي الله عنها ، لتبين لنا انه لم يكن البادية بالحب ، فكل شيء يدل على ان الزواج لم يخطر له على بال ، والزوجة والمرأة آخو ما كان يفكر فيه وقتئذ ، فلقد كان يسير في طريق تأملاته الداخلية واحلامه العليا ، وكأنه لا يمشي على

الأرض إلى أن لحظته خديجة ذات يوم ، ولمست كتفه فافاق قليلا ، ورفع عينيه إليها . ويؤكد الحكيم على صفحات هذا الفصل أنها هي التي كانت ترقبه منذ زمن وأن لشعورها نحوه جذورا ممتدة في أغوار قلبها امتداد عرق الذهب في المنجم العميق .

فاذا أضفنا إلى كل هذا أن محمدا صلى الله عليه وسلم ، كان شابا في الخامسة والعشرين كريم الخلق جميل المنظر ، وأن خديجة رضي الله عنها كانت امرأة في الأربعين أدركنا أن مثلها كان لا بد له أن يحب مثله وليس العكس .

ويتساءل الاستاذ الحكيم وكأنه يرد على الذين يتهمون الرسول الكريم في هذه المسألة بالذات فيقول : وهل يمكن أن نسمي هذا الشعور باسم آخر غير الحب ؟ ذلك الذي يدفع امرأة ذات شرف ثروة أن تبدأ هي الخطوة الأولى نحو فتى فقير يتيم ؟ وهي التي تقدم إليها أكرم رجال قريش نسيا ، وأعظمهم شرفا وأكثرهم مالا ، فلم تلتفت إليهم .

وينتهي الاستاذ الحكيم في هذا الفصل إلى أن منبع الحب اذن ، كان قلب خديجة ، ولقد كان هذا الحب ساميا قويا عظيما فاستطاع أن يفتح قلب محمد صلى الله عليه وسلم ، وأن يملأه كل تلك الأعوام التي شبثها خديجة بل أن هذا الحب لم ينطفئ بموت خديجة رضي الله عنها ، ولقد ظل مكانها من قلبه قائما دائما لم تستطع أي امرأة أن تزاحمها فيه . . وهذا هو حب «محمد» صلى الله عليه وسلم الأول .



ويختتم الاستاذ الحكيم بحثه في الدين بالفصل السادس والآخر ، بالحديث عن جوهر الدين نفسه ، وفي هذا الفصل يشير إلى التهويل في استخدام الالفاظ التي تخرج منعزلة عن النوايا ويحيي مع ذلك كل من يعنيه جوهر الدين ، بل والأكثر يبحث الناس على أن يفخروا بالدين ذلك لأن الدين هو الذي رفع الإنسان فوق مرتبة الكائنات جمعاء .

فالدكاء ليس بالميزة التي اختص بها الإنسان وحده ، والنظام الإداري المحكم أو الاقتصادي الكامل ليس وقفا على المجتمع البشري فان مجتمع النحل أدق منا نظاما في الإدارة ، وهو أيضا أتم منا إحكاما في الاقتصاد . لكن الذي يميزنا نحن معاشر البشر هو الإيمان : فما من مجتمع غير مجتمعنا البشري اهتدى إلى ذلك الإيمان الديني لان حياة الروح لم يبلغ

بعد بابها غير الانسان .

ويناشد القارئ الذي يهدر دينه فكانه قد اهدر آدميته وهل هناك مقابل للآدمية ؟ واذا خلع رداءه الديني فقد خلع رداءه البشري ، وانقلب دابة تسعى الى رزقها في الارض ولا تقوى على التطلع الى السماء .

ويختتم الاستاذ الحكيم هذا الفصل بل والبحث كله بهذه الحقائق فيقول الدين هو الذي يرفع بصرك الى أعلى ايها الانسان .. الى أعلى اقدامك وأرضك وطعامك وشرايك واذا استطعت ان ترفع بصرك الى أعلى من فمك فأنت ارقى من الحيوان واذا ارتفعت الى حيث تدرك وجود الله فأنت سيد الكائنات .

الفرق بين الانسان والحيوان .. هو ان الانسان يعرف معنى الدين، بينما الحيوان لا يعرف ذلك .. ولو عرفت جماعة من الحيوان يوما معنى الدين لاصبحت في الحال بشرا ساجدين .

وما من شيء نفخر به نحن الآدميين ، الا اننا نسجد من اجل فكرة عليا ، ونتحسس من اجل معنى مقدس وتعرف - وهذا هو المهم - وتعرف قلوبنا ما هو الايمان .

ومع ختام هذا الفصل يختتم الاستاذ الحكيم بحثه في الدين على ما رأينا .

الادب والدين

وفي كتابه « فن الادب » خصص الاستاذ الحكيم .. بحثا كبيرا تحت عنوان « الادب والفن » تناول فيه العلاقة بين الادب والدين ، وذهب الى ان الاثنين ينبعان من مصدر واحد ، او على حد تعبيره « الديسنة والادب كلاهما يضيء من مشكاة واحدة » . لكن كيف يكون ذلك ؟

هذا ما تتضمنه فصول البحث الستة ، والتي يبدأ اولها وعنوانه « السماء هي المنبع » بوضع فرض او اعتقاد هو ان رجل الادب او الفن ، ورجل الدين بينهما صلة . ذلك ان الدين والفن كلاهما يضيء من مشكاة واحدة ، هي ذلك القبس العلوي الذي يملأ الانسان بالراحة والصفاء والايمان . وان مصدر الجمال في الفن هو ذلك الشعور بالسمو الذي يقمر نفس الانسان عند اتصاله بالاثر الفني .. من اجل هذا كان لا بد للفن ان يكون مثل الدين قائما على قواعد الاخلاق .

وبالطبع هذا رأي يخص الاستاذ الحكيم لا كسل المشتغلين بشؤون الفن . ذلك لأن الجدل اشتد بين طائفتين . طائفة تقول ان الفن ينبغي ان يكون اخلاقيا ، وطائفة تقول ان الفن يجب ان يكون متحررا حتى من هذه الاخلاق . فالجمال في الفن او الادب ينبع من الاتقان ، وان الاجادة في تصوير الدمامة والرديلة ، لا تقل فضلا عن الاجادة في تصوير الحسن والفضيلة . كما ان الدين ايضا - في تنزيله - يصور لنا رجس المشركين وإثم الكافرين ، وقبح الاشرار والمفسدين كما يبرز لنا فضل المؤمنين واحسان المحسنين ولكن المقصود ليس حرية التصوير فهذه مكفولة في الفن ملحوظة في الدين ، وانما المقصود هو ذلك الاحساس الاخير الذي ينقله الفن والدين الى النفوس .

ويتساءل الاستاذ الحكيم فيقول ان الاحساس الاخير الذي ينقله الدين الى النفوس ، هو احساس اخلاقي فهل هذا هو واجب الفن ايضا ؟ وأكثر من ذلك يتساءل بصورة أخرى ما مهمة الفن الحق اذن ؟ اهي أن يقف في المجتمع واعظا ومرشدا وهاديا الى سواء السبيل ؟ ويجيب على هذه التساؤلات بأنه من النجم عليه ان الوعظ والارشاد ليسا من وظيفة الفن . لان وظيفة الفن هي خلق شيئا حيا نابضا يؤثر في النفس والفكر .

لكن ما نوع هذا التأثير ؟ هنا القضية . الحكيم يجيب بأن نوع التأثير هو الذي يحدد نوع الفن . فاذا طالعت اثرا فنيا : قصيدة او قصة او صورة ، وشعرت بعدئذ انها حركت مشاعرك العليا او تفكيرك المرتفع فانت امام فن رفيع . فاذا لم تحرك الا المبتدل من مشاعرك والتافه من تفكيرك فانت امام فن رخيص . واذا اتفقنا مع الحكيم على نوع التأثير فما مصدره ؟ اهو الاسلوب ام اللب ؟ اهو الشكل ام الموضوع ؟

في نظر الحكيم الاثر الفني الكامل هو ذلك الذي يحدث فينا ذلك الشعور الكامل بالارتفاع ، وقلما يحدث هذا الا عن طريق السمو في اللب والاسلوب ، لان ضعف الشكل وسقم الاسلوب ، يحدثان في النفس شعورا بالقبح والضيق والاشمئزاز ، وهذا يتنافسي الشعور بالجمال والتناسق والانسجام .

شان الفن هنا كشأن الدين ولو علم رجل الفن او الادب خطر مهمته لفكر دهره قبل ان يخط سطره ولكن الوحي يهبط عليه فيسمعفه شأنه في ذلك شأن المصطفين من اهل الدين . . وهل يمكن ان يهبط من اعلى الا

كل مرتفع نبيل ؟
وينتهي الحكيم الى نتيجة هامة وهي : للدين وللغن .. السماء هي
المنبع .

وتحت عنوان «الماء الحي» يقدم لنا الحكيم حوارا بين يسوع عليه السلام وامرأة سامرية ينتهي الى قول يسوع عليه السلام : «كل من يشرب من هذا الماء ينعش ايضا ولكن من يشرب من الماء الذي أعطيه يصير فيه ينبوع ماء ينبع الى حيوات أبدية» .
ثم يتساءل الحكيم : كم من البشر انطلقا فيه ذلك العنقش ونبع فيه ذلك الماء الحي ؟

ويتساءل ايضا اين هذا الماء الحي ؟ وبأي دلو نصل اليه ؟
ويجيب على صفحات هذا الفصل من بحثه هذا ، بأنه موجود ليس في كل النفوس ولكنه ينبع في النفس التي تلقت بركات السماء وقد لا تشعر هي بوجوده وقد لا يشعر بذلك ايضا الناس المحيطون بها لان هذه النعمة اسمى من أن تراها كل العيون .

ويضرب على ذلك امثلة كثيرة ابسطها واقربها الى فهم العامة مثل ذلك النجار ، الذي كان يعمل في حانوته طول النهار ، فاذا جاء المساء ذهب بريح يومه الى داره فتعشى هو واولاده ثم رفع عقيرته بالفناء .. فغنى وانيس وطرب بعض ليله ثم نام بين اسرته نوما هنيئا هادئا لذيذا حتى الصباح ، وكان له جار غني يرى هذه الحال منه ويتعجب ويقول في نفسه كيف يكون لهذا النجار على فقره مثل هذا الصفاء وانا الغني لا انا ولا اهدم ولا يطفىء المال عطشي للشراء ، ثم عزم على ان يدبّر للنجار امرا .. فألقى في داره بكيس مملوء بالذهب ، وجعل يترقب ما يحدث وعندئذ حدث العجب ، فقد انقطع الفناء الذي كان يرتفع من دار النجار وسكت القلب المفرد السعيد ولفظ الدهن المفكر المكدود وذهب الهناء وحل الشقاء بالنجار .. حيث شغل نهاره وليله بأمر ذلك المال الذي هبسط عليه .. كيف ينتفع منه ويستغله وينميه . ومرت الايام والليالي وقد خيم على دار النجار ذلك السحاب الذي يخيم على دار جاره الغني .. سحاب الهم الذي لا يزول . لقد بدأ الجري الدائم خلف السراب لقد غاض النبع من البئر وجاء العنقش الذي لا ينطفىء ابدا .

ويختتم الحكيم هذا الفصل بذلك الدرس البليغ للمسيح عليه السلام،
أملا أن تعيه الدول قبل الافراد . حيث يؤكد أن هذه الحروب التي لا
ينطفئ سعيها - إنما هي علامة عطش ، فمتى تؤمن الدول القوية أن
هذا العطش لا يطفئه الطغيان ولا السيطرة ؟ كل دولة تشرب من بشر
السيطرة تعطش أيضا !؟

ويذكر هذه الدول بأن اجراس الميلاد تدق في اديارها وكنائسها ، فلا
تفتر ولا تظن أن القنابل الذرية تطفئ العطش ، بل ينبغي أن تثق أن
الذي يطفئه آخر الازمان هو ذلك الماء الحي .. الذي تحدث عنه السيد
المسيح عليه السلام .



ولكي يقرب الحكيم أوجه الشبه بين رجل الادب وبين رجل الدين ..
او لكي يقرب الادب من الدين .. يكتب هذا الفصل بعنوان «الحقيقة
الكاملة» في هذا البحث ، الذي يصدره بأسطورة صينية مملوءة بالحكمة .
والتي تقول انه فوق تل من تلال غائبة نائبة ، كان يعيش رجل شيخ مع
ابن له وجواد ، وذات صباح هرب الجواد واختفى ، فأقبل الجيران على
الشيخ يعزونه في نكته بفقد جواده فقال لهم الشيخ: من أدراكم انهما
نكبة ، ولم تمض ايام حتى عاد الجواد مصطحبا عديدا من الخيول البرية،
فعاد الجيران مهنئين له ذلك الحظ السعيد ، فقال لهم ومن أدراكم انه
حظ سعيد ، وامتنى ابن الشيخ احد هذه الخيول البرية ليروضها
فسقط من فوق سهوته الى الارض فكسرت ساقه ، فرجع الجيران
محزونين يواسونه ويعزونه في هذا الحظ العسر ، فقال لهم ومن أدراكم
انه حظ عاثر ، ومضى عام واذا بحرب تقوم جند فيها كل الشبـاب
وارسلوا الى الميدان فلاقى اكثرهم الختف الا ابن هذا الشيخ لان العرج
اعفاه من الذهاب الى الحرب وانتقله من الموت .

ويعلق الاستاذ الحكيم على هذه الاسطورة قائلا ان لكل شيء نهاره
وليله ، يدوران حوله بغير انقطاع ، ولكن الانسان في نظره القصيرة لا
يرى الحادث الا في حلقاته المنفصلة وأجزائه المتقطعة ونتائجه المؤقتة
ومؤثراته المفاجئة ، فعينه لا تستطيع أن تشمل في جملته لان جملته
ممتدة الى الغد وعين الانسان لا ترى الغيب .

ولو استطاع انسان أن يشمل بنظرته الامس واليوم والغد ، وأن يتتبع

حادثا واحدا او رجلا بعينه لرأى العجب . فهذا الغني الذي يملك الملايين سرى أمواله قد بددها وريث ، وهذا الوريث سيكون له اولاد فقراء ، ومن هؤلاء الفقراء واحد ينشئ ثروة .. وهكذا دواليك : يأتي المال من العدم ويذهب المال في العدم ويولد من السعد نحس ومن النحس سعد .. والساقية تدور لا تكف عن الدوران ، وهي لا تقف طول الزمان وليس هناك في حقيقة الامر حظ زاهر ولا عائر وان ما تسميه الحظ ليس الا وقوف نظرنا المحدود على وضع من الاوضاع في وقت من الاوقات . ان الحياة متوازنة هكذا جعلها الخالق عز وجل لكي تكون محتملة فيها الابيض وفيها الاسود فيها الغنى وفيها الفقر فيها السعادة والشقاء . لكن من الذي يستطيع ان يدرك ذلك ؟ او كما يتساءل الحكيم من الذي يملك العين التي ترى الاشياء في جملتها لا في جزء منها وفي تعاقبها لا في وقوفها ؟ ويرى : انه الاديب الصادق هو الذي يملك تلك العين التي ترى الحقيقة كاملة في حياة البشر .. هذه العين تبصر الساقية في دورانها .. مثله في ذلك مثل رجل الدين الحقيقي القريب بقلبه وعقله من الله يستطيع ان يرى الاشياء في جملتها .

وعن العقل البشري يحدثنا الحكيم حديثا يبدأ بأسطورة الفرد الصينية حيث يشبه العقل في ثورته بهذا الفرد وفي هذا الفصل الذي يقدمه لنا تحت عنوان «ثورة العقل» يصف العقل بأنه صحيح بارع نشيط براق ، استطاع بسرعة حركاته ان يوجه أنظارنا اليه وحده وأن يعلق اهتمامنا به وأن يقصر آمالنا عليه بل لقد نجح هذا العقل احيانا ان يوهمنا انه هو وحده مصدر الحركة الكبرى في الوجود ، حتى تملكه الغرور فصاح يقول : انا كل شيء ولا وجود لغير ما اكشف عنه .. ونسي قدرتي أن افعل المستحيل .

فتجلت قدرة الله عز وجل قائلة : ايها العقل في قدرتك ان تثب الى الشجر ولكنك لن تثب الى السحب . في قدرتك ان تفعل اشياء ولكن ليس في قدرتك ان تفعل اشياء اخرى .. بسبب بسيط ولكنه جوهرى هو ان قدرتك هذه لها حدود .. ليست لامتناهية . قال العقل : سائب قريبا الى ما فوق السحب ، لقد عرفت سر الذرة وانا في طريقي الى بلوغ القمر والوثوب الى بقية الكواكب والاحاطة بكل ما في الكون .

ويرى الاستاذ الحكيم ان الانسان مهما قفز ومهما وصل الى اعلى مراتب العلم فانه لن يستطيع ان يبلغ نهاية القدرة الالهية ولن يخرج

عن محيطها .

وها هي القدرة الالهية تخاطب الانسان مشفقة به : لا تجهد قواك عبثا ولا تحاول المستحيل انك لم تنزل في كفي نقطة حائرة نطفة عاجزة لك ان تقفز ما شئت ولكن اياك ان تفتخر بمدى قفزاتك وتتهمهم انك بالغ بها ما لا يمكن ان تبلغ فتعرض نفسك للذل الخيبة ومرارة اليأس وسخرية المقدرين لنشاطك .

الاستاذ الحكيم يريد ان يقول في هذا الفصل ان الانسان مهما وصل عقله ومهما كانت ثورته ، فلن يتجاوز حدود القدرة الإلهية بأي حال من الاحوال فهذه القدرة هي التي غرست فيه قدرته على التفكير وعلى التغيير . وفي فصل بعنوان «معجزة الدين» من هذا البحث يطرح الحكيم سؤال لماذا لا يظهر في هذا العصر انبياء ؟ وهو سؤال يطرحه كثيرون ولا يتلقون عنه جوابا مقنعا ويضيف انه ظهر في هذا العصر من يدعي شفاء الامراض ومن يزعم الاتصال بأرواح الموتى ولكن قلما يظهر من يدعي النبوة .. لماذا ؟ السبب لا شك هو ان المتنبئ يعلم انه سوف يطالب بالاتيان بمعجزة لكن ما هي المعجزة التي تستطيع ان تقنع الناس فسي عصرنا الحاضر ؟

لو ان رجل ما ادعى النبوة قال للناس انظروا ثم مد يده الى القمر فخلعه من موضعه في الفضاء وصره في منديله كانه بطيخة وسار به متنقلا في أرجاء العالم فما الذي يحدث ؟

يحدث ان يهب علماء الارض لفحص هذه الظاهرة .. الفلكيون لهم رأي وعلماء الكيمياء لهم رأي آخر .. وعلماء النفس لهم رأي ثالث .. وهكذا يمضي كل عالم وباحث في كل فرع يفحص ويمحص ويفترض ويستنتج وتكثر المجادلات الفنية وتتلاطم النظريات العلمية ولكن ما من واحد من هؤلاء العلماء يأخذ نبوة الرجل على سبيل الجد او يحاول التسليم بوجود صلة مباشرة بين هذا الرجل والله عز وجل .
لم تعد المعجزة في عصرنا الحاضر دليل على النبوة فنحن فسي عصر المعجزات .

ويقرر الاستاذ الحكيم ان عصرنا الحاضر خليق ان يعفي النبي من المعجزات التي تثبت شخصيته ثم يتساءل فلماذا لا يظهر المتنبئ اذن وقد أزيلت من طريقه العقبة الكبرى ؟

ويجيب : لا يظهر لانه سيطلب بأصعب معجزة وهي : الشريعة .. تلك الشريعة السماوية الانسانية التي تصلح للناس كافة ويكون فيها صلاح

الناس كافة في آخرتهم ودنياهم وفي سمائمهم وأرضهم .. كيف تنزل هذه الشريعة دون ان تكون تكرارا لما سبقها من شرائع ؟
لا بد اذن من شيء جديد ولا بد ان يكون الله قد اراد ذلك فعلا .. كل معجزات الارض قليلة الى جانب المعجزة العظمى وهي الديانة التي يفجرها الله من نوره فيتبعها افواج البشر مبهورين شاعرين انها سكبت فسي سرايينهم ومزجت بدمائهم الى يوم الدين .
ويختتم الاستاذ الحكيم هذا البحث بالفصل السادس وعنوانه «الايمان بالحياة» وفيه يحدثنا عن الايمان بالحياة .. وهو منارة تقع بين جنبي الانسان .. مكانها القلب ذلك القلب المؤمن بالحياة .. الحارس لها ، الدائد عنها دون ان نتدخل في عمله بأذهاننا ، فهو ذلك الجزء الاصيل فينا .. ذلك الجزء الذي وضعه الله عز وجل .
لا يستطيع عقلنا لحسن الحظ ان يصدر امره الى القلب فيوقف نبضاته كما يصدر امره الى الايدي والاقدام فيوقف حركاتها .
لا احد غير الله يستطيع ان يصدر امره الى القلب .

مختار تفسير القرطبي الجامع لاحكام القرآن

ويفاجئنا الاستاذ الحكيم في بداية هذا العام (١٩٧٧) بأضخم كتاب يحمل اسمه وهو كتاب «مختار تفسير القرطبي الجامع لاحكام القرآن» حيث يقدمه ويحققه في أسلوب مركز عصري وهو في تقدمته المختصرة للكتاب يؤكد ، بأن الذي أوحى اليه بضرورة تقديم وتحقيق هذا الكتاب للمكتبة العربية امران :

الامر الاول : ما جاء عن هذا الكتاب في غيره من الكتب وبأنه اقتصر على ما لا بد لكل عالم فقيه او محافظ او محدث او اديب من معرفته وحفظه لكثرة استعماله وجريانه على الألسن وأنه اجتنب عويصي اللغة وغريبها طلبا للاختصار وتسهيلا للحفظ .

الامر الثاني الذي أوحى للاستاذ الحكيم بضرورة هذا الكتاب الضخم الذي يبلغ عدد مجلداته عشرون مجلدا .. هو ما يراه اليسوم في مصر

والبلاد العربية من الاهتمام المخلص بالدين والرغبة الصادقة في الاستزادة من معرفة جوهر الاسلام واحكامه مما يقتضي الرجوع الى المنبع الاصلي للشريعة لمن يريد الاتصال المباشر بالنصوص وتفسيرها في امهات المراجع المعتمدة ولما كانت هذه المراجع من الضخامة بحيث تشق قراءتها على اكثر الناس فقد رأى الاستاذ الحكيم ان يقوم باستخراج مختار في مجلد واحد حرص فيه على الاقتصاد على ما لا بد لكل متدين ومسلم وقارئ للقرآن من معرفته وحفظه .

والاستاذ الحكيم حين يقوم بتقديم وتحقيق هذا الكتاب يسير على نفس المنهج الذي سار عليه منذ اربعين عاما عندما نشر كتابه «محمد الرسول البشر» حيث وضع القارئ وجها لوجه امام منبع الشريعة في القرآن الكريم واحكامه .

ولم يقف حائلا بين القارئ وما يقرأ وانما ترك الوقائع والاحكام ترسم بنفسها الصورة الكاملة التي يقبلها العقل والتي انتجت هذه الحصيلة الدينية والفكرية التي تدعو الى الفخر والعجب وتدلنا على ان الله سبحانه وتعالى عندما دعانا الى النظر والتأمل فيما حولنا من خلقه ، انما اراد لعقلنا البشري ان يتحرك للبحث في حقائق الاشياء . . وهكذا تحرك عقل الاستاذ الحكيم مع هذه العقول التي سبقته في تفسير كلام الله عز وجل . وفكر ورأى في ضوء مناقشاتهم وتحليلاتهم ما اعانه على رؤية الحقائق بنفسه وهذه فضيلة الاتصال المباشر بالمنابع الاصلية ، وخاصة في التفسيات التي تتيح للقارئ الاطلاع على الآراء المختلفة عند مختلف الأئمة والعلماء .

فالاستاذ الحكيم مع حرصه على عدم التدخل في هذا التفسير ، الا انه لم يستطع منع فكره الذي تحرك من ان ترد عليه بعض الخواطر في صدد بعض المسائل القابلة للمناقشة والتحليل دون المساس باللب او الجوهر .

واذا اتفقنا على ان تفسير القرطبي يشتمل على ابواب في كيفية التلاوة للقرآن الكريم ، ومعنى نزول القرآن على سبعة احرف ، وذكر جمع القرآن ، وما جاء في ترتيب سور القرآن ، وذكر معنى السورة والآية الكلمة والحرف ، وسؤال : هل ورد في القرآن كلمات خارجة عن لغات العرب ؟ ومسائل في إعجاز القرآن ، والتنبيه على احاديث وضعت في فضل سور القرآن ، وما جاء من الحجة في الرد على من طعن في القرآن .

وبالإضافة الى هذه الابواب ما يشتمل عليه القرآن من مسائل يطرحها ويضع لها الحلول التي تصلح لكل زمان ومكان ، وهو ما لم يترك فيها القرآن الكريم شاردة ولا واردة الا واحصاها .. حتى غطى حاجة الانسان . وكل هذا قام بتفسيره القرطبي وعرضه اولا ثم ذكر آراء وتفسيرات من سبقه حتى ولو كانت مخالفة لرايه وتفسيره .

والقرطبي يؤكد ذلك من قريب او من بعيد في مقدمته للكتاب الاصيل ، الذي حققه الاستاذ الحكيم ، حيث يقول : «وشرطي في هذا الكتاب اضافة الاقوال الى قائلها والاحاديث الى مصنفها فانه يقال من بركة العلم ان يضاف القول الى قائله ، وكثيرا ما يجيء الحديث في كتب الفقه والتفسير مبهما لا يعرف من أخرجه الا من اطلع على كتب الحديث فيبقى من لا خبرة له بذلك ، حائرا لا يعرف الصحيح من السقيم ..» . وينتهي القرطبي في مقدمته الى انه يذكر الآراء حول المسألة الواحدة حتى اذا كانت مخالفة لما يراه ويذهب اليه عقله فهذا من بركة العلم وكرامته .

والاستاذ الحكيم حين تصدى لتحقيق هذا التفسير وتقديمه فسي قالب يقبله القارئ .. فانه كما قلنا - وقد تحرك عقله مع هذا الحشد من العلماء والمفسرين - لم يستطع منع فكره من مناقشة بعض المسائل وتحليلها فبرز رايه واضحا جليا على امتداد صفحات هذا الكتاب فسي «إعجاز القرآن» و«في التلاوة والتطريب» و«في الجمع بين الدين والدنيا» و«في الإذن بالقتال» و«في الحكم ونظام المجتمع» و«في العقوبات والحدود» و«في لا عنصرية في الاسلام» و«في حقيقة أن الله غني عن العالمين» و«في مسألة العقل أعجب الخلق» و«الله والعلماء» .

وهكذا يلمس القارئ «لمختار تفسير القرطبي الجامع لاحكام القرآن» اضافة جديدة الى ما فيه من تفسير للعلماء والمفسرين السابقين .. قام بها الاستاذ الحكيم في هذه المسائل التي ذكرت .

فالاستاذ الحكيم يقول في صدد ما جاء في الكتاب من دلائل الإعجاز في القرآن الكريم ، انه نزل على صورة لم يعرفها العرب لا في الشعر ولا في النثر وبه كل الجلال فحاروا ، ودهشوا لان المألوف في أعمال البشر العظيمة ان تكون لها بدايات تتطور من عهد الى عهد ، ومن عبقري الى عبقري ، فكل عظماء العلوم والآداب والفنون منذ الخليقة كانت أعمالهم المبتكرة لها بوادر وبدايات تطورت في أشكالها ومضامينها ، حتى بلغت القمم التي وصلت اليها ، أما القرآن الكريم فقد ظهر دفعة واحدة

بشكله ومعانيه ، بما لم تسبقه بوادر وبدايات معروفة عند البشر . فنزوله بهذه الصورة دفعة واحدة بغير تطور سابق ، أمر يشبه نزول شيء سماوي كشهاب منير ، فإذا قيل هو وحى من السماء أنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن ذلك هو الطبيعي الاقرب الى التصديق ، فمن إعجاز القرآن اذن هو هذا النزول في صورته النهائية بغير سابق نمو او تطوير مما ينطبق عليه قوله تعالى : «كن فيكون» .

وفي التلاوة والتطريب للاستاذ الحكيم رأي خلاصته أن يكون للترتيل مكان الى جانب التطريب فمع الترتيل يتجه الذهن الى عمق المعاني ومع التطريب تتجه الاذن الى موسيقى الكلمات . والجمع بين المعنى والمبنى ، فيه اكتمال للدراك واستيعاب لعنصري الوجود : الروح والجسد وهذا جوهر اساسي في الاسلام .

وفي الجمع بين الدين والدنيا اي بين شؤون الروح ودواعي الجسد . . هذا الجمع الذي يميز الانسان . . وللاستاذ الحكيم رأي هو أن الانسان يتغذى روحيا بغذاء نوراني وجسديا بغذاء مادي ولهذا كانت فطرة الانسان هذه هي الانسان جوهر الاسلام ولهذا ايضا كان الاسلام هو ختام الاديان السماوية وكان محمد رسول الله، هو خاتم النبيين، لان ما جاء به وما يمثله في التطور البشري ، لم تعد بعده حاجة الى بعثة اخرى من عند الله .

وفي الاذن بالقتال في الكتاب الاصلي يرى القتال محظورا في اول الرسالة، ثم اذن بقتال الدفاع لا قتال الاعتداء. والاستاذ الحكيم يرى في هذا الصدد ان العقائد والمذاهب لا يمكن ان تبقى طويلا في صورتها المعنوية وحدها ، امام اعتداء المعتدين بالقوة المادية فالروح يمكن ان تصمد للروح، ولكنها امام قوة مادية لا بد لها من درع مادي يحميها ، وحتى ان صمدت فانها تبقى محصورة في نطاق محدود ، ولا تخرج وتنتشر الا بقوة مادية .

في الحكم ونظام المجتمع يرى الاستاذ الحكيم انه لاستتباب النظام في المجتمع ينبغي ان يكون القانون هو صاحب الحق في القصاص — والقانون هنا هو الشريعة الاسلامية — فانه يقضي لا عن هوى او تأثر شخصي او انفعالي ، بل بناء على التروي والفحص والبحث واستنباط القواعد من واقع الحال ، وضرورات الظروف وتغيرات المجتمع .

وفي العقوبات والحدود يرى الاستاذ الحكيم ان الحد الشرعي بالجلد، مضافا اليه المعادل الانتاجي لخير المجتمع ، افضل من الحيس . ذلك ان مصادرة الحرية في عصرنا الحديث ، لم تعد عقوبة رادعة وخاصة بعد

المطالبة بتحسين السجون لتصبح حجراتها مثل حجرات الفنادق .
وحول العنصرية يقرر الاستاذ الحكيم انه لا عنصرية في الاسلام ،
مستشهدا بما جاء على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال
لرجل : انظر في وجوه القوم .. فنظر فقال له النبي «ما رأيت ؟» فقال
الرجل : «رأيت ابيض واسود واحمر ..» فقال رسول الله صلى الله عليه
وسلم : «انك لا تفضلهم الا بالتقوى» .

ويرى الاستاذ الحكيم ان الله غني عن العالمين ذلك انه عندما يقال ان
التقوى والصلاح والصلاة والصيام والزكاة وكل هذه الفضائل ترضي الله ،
فان معنى الرضا هنا ليس لان الله في حاجة الى هذا الارضاء ولكن رضا
الله هو لمصلحة الناس واسباس عبادة الله هو اساس رقي الانسان ، اذ
من خلال هذه العبادة يرتفع البشر من مرتبة الحيوان الى مرتبة ارفع هي
التي اراد لها الخالق ان تكون من نوع ارقى ولن يتيسر هذا الارتقاء الا
بادراك الارقى ، والارقى والاعلى هو الله ..

وعن العقل يرى الحكيم ان الله سبحانه وتعالى كرم الانسان به لادراك
عظمة الكون الذي ابدعه الخالق سبحانه وتعالى .

ان العلماء هم الذين يمثلون قوة هذا العقل ولذلك جعل الله لهم هذه
المرتبة الكبرى التي ذكرها في القرآن الكريم : انما يخشى الله من عباده
العلماء» والخشية كما فسرها المفسرون ترمز الى التقدير والإجلال وسواء
كان التقدير والإجلال من العلماء لله ، ام من الله تعالى للعلماء ، فان
المعنى هو ان هناك اتصالا راقيا بين الخالق والمخلوق ، وهو جوهر العبادة
الراقية للعقل الانساني الراقى بارتفاعه ، الى حيث يدرك قدرة الخالق
وعظمته .

كذلك يرى الاستاذ الحكيم ان القرن القادم وهو الحادي والعشرين
سيكون للدين . ذلك ان العلماء كلما توغلوا في العلم ، اقتربوا من الدين
ومن الخشوع لله ، وابتعدوا عن علماء القرن التاسع عشر ، يوم كان
العلم الوليد في بداياته المغدورة يدفعهم الى الإلحاد فالقليل من العلم كما
يقال يورث الإلحاد والكثير منه يؤدي الى الايمان . فهذا القرن (العشرين)
ينبىء بقرن قادم يصل فيه مستوى العلم الحديث الى درجة من النفوذ
والكشف عن اسرار الكون، تجعل علماءه أقرب الناس الى باب الله والدين .
هذه المسائل وغيرها خطرت على عقل الاستاذ الحكيم اثناء جمعته
لمختار القرطبي وهي من المؤكد بفعل ما اثاره كتاب القرطبي في نفسه من
آراء وافكار .



الفصل السابع

جدید اضافتہ الاسلامیات

والآن لنا أن نتوقف لحظات .. فيها نلتقط أنفاسنا بعد أن فرغنا من قراءة اسلاميات الدكتور طه حسين، والدكتور أحمد أمين والدكتور محمد حسين هيكل ، والاستاذ عباس محمود العقاد ، والاستاذ توفيق الحكيم . وتعرفنا على خصائص كل مفكر ، وملامح منهجه الذي سار عليه في تناول هذه المادة الاسلامية من جديد وقسمات هذه الاسلاميات وكتبها . بعد هذا نتوقف ونستمع الى نفس السؤال الذي كان يلح علينا اثناء القراءة بل وقبلها.. والذي يقول : «وما هو الجديد الذي أضافته هذه الاسلاميات للفكر الاسلامي ؟ هل كانت كتابات الخمسة تحصيل لحاصل وصورة طبق الاصل لما هو موجود في الكتب القديمة؟» .

والاجابة على هذا السؤال تلمحها جملة وتفصيلا فيما كتبه الخمسة. وجملة ذلك من كون ان كل واحد من هؤلاء الخمسة لو لم يكن مقتنعا بأن ما يقدمه يعتبر اضافة للتفكير الاسلامي وليس تحصيلا لحاصل حل لما بدا . وواصل الكتابة في سنوات تعتبر من انضج سنوات عمره وأخصبها انتاجا ..

وتفصيلا وذلك من اعادة النظر الى هذه الاسلاميات لتحديد الفائدة التي عادت على التفكير الاسلامي منها . وهي الاضافة الجديدة لذات التفكير .. وسوف نجد ان هذه الفائدة او الاضافة تتضح في هذه الحالات التالية :

اولا : اسلاميات الدكتور طه حسين والدكتور أحمد أمين والدكتور محمد حسين هيكل والاستاذ محمود العقاد والاستاذ توفيق الحكيم ، عملت على مواصلة واستمرارية كتابة السيرة المحمدية بعد ان انقطع المؤرخون او كادوا.. عن كتابتها نيفا وأربعة قرون حيث كان كتاب «امتاع

الاسماع بما للرسول من خولة وحفدة واتباع» للمسؤرخ المصري الكبير تقي الدين المقرئزي . . في منتصف القرن الخامس عشر الميلادي .
في هذه الفترة - من القرن الخامس عشر حتى القرن العشرين -
تقريباً - لم يظهر كتاب في السيرة النبوية الشريفة باستثناء كتاب واحد
ظهر منذ نيف وستين عاماً تقريباً وهو الذي كتبه رفاعة رافع الطهطاوي
تحت عنوان «نهاية الأيجاز في سيرة ساكن الحجاز» .

وخلو هذه الفترة من إعادة كتابة السيرة المحمدية أمر كان له أثره .
حين سمح بانتشار قصص المتصوفة والدرأويش التي تحول سيرة النبي
الكريم التي بدأت عند ابن هشام سيرة «بشر مثلنا» الى سيرة كائن يسرف
الرواة والمداحين من المتصوفة والدرأويش في وصف جمال خلقته وفحولته
وقدرته على مخاطبة الطير والحيوان والشجر والسحاب والنجوم ،
وتفسير ما وقع له عليه الصلاة والسلام تفسيراً أسطورياً خارقاً . «كان
يجعلوا القمر يهبط من السماء ويستقر فوق قمة الكعبة يوم مولده عليه
السلام ثم يطوف حول هذه الكعبة ليدخل من كم ردائه الايمن ويخرج من
الكم الايسر . . ثم ينقسم - اي القمر - الى نصفين يتجه احدهما الى
اليمن ويتجه الآخر الى اليسار . . ثم يلتقي النصفان في كبد السماء
ليعاود القمر سيره في فلكه . . .» الخ هذه الخرافات .

وهنا كانت كتابة السيرة بأقلام هؤلاء الخمسة . . وبالتحديد ، ما
تضمنته كتب «حياة محمد» للدكتور هيكل و«عبقرية محمد» للعقاد و«على
هامش السيرة» للدكتور طه حسين و«محمد الرسول البشر» للاستاذ
توفيق الحكيم . . بمثابة القضاء على هذه الخرافات . ثم التصحيح لما
جاءت به أوصاف هؤلاء المداحين والدرأويش والمتصوفة التي اضافت الى
حياة صاحب السيرة عليه الصلاة والسلام ما لا يصدق عقل ، ولا حاجة
اليه في ثبوت رسالته . .

نقول كانت هذه الاسلاميات بمثابة أداة التنقية والبلورة التي تستهدف
في النهاية تقديم النبي الكريم في صورة منطقية يقبلها العقل . . وخاصة
هذا العقل الحديث الذي لم يعد يؤمن بالاساطير والخرافات .
ثانياً : وهذه الاسلاميات كانت بمثابة الرد القاطع والكامل . . على
كتابات المتعصبين من الغربيين سواء منها ما ظهر في الاستشراق او مما
ظهر على يد المبشرين . .

فقد لجح هؤلاء الخصوم في الطعن على النبي الكريم وعلى الاسلام
والمسلمين مستفيدين من هذه الخرافات والخوارق التي نسجها العامة ،

بل وما كتبه بعض علماء الدين في القرون المظلمة ممن أخذوا علمهم القليل عن المتأخرين المقلدين .. فقدموا السيرة بصورة ضعيفة مستهدفة للهجوم .. فكان رد اصحاب الاسلاميات ودفاعهم على اباطيل الخصوم واتخذ هذا الرد اساليب عدة .. فكانت مباشرة حيث كما فعل العقاد في كتابه «ما يقال عن الاسلام» وفيه رد - كما رأينا - على عشرات الكتب التي كتبت في الاسلام، وكان رده مدعما بالحجة والمنطق والدليل. وغير مباشرة حين قدمت حقيقة الاسلام وما يدعو اليه كما فعل طه حسين وأحمد أمين في تناول الحياة الادبية والعقلية في الاسلام . وكما صنع الدكتور هيكل فيما كتب ، والاستاذ العقاد في عبقرياته وشخصياته وبحوثه ودراساته والاستاذ الحكيم في تأملاته . حيث عمل كل منهم في ميدانه جاهدا ليقدم حقيقة هذا الدين المقتدى عليه .

ثالثا : كذلك فان استخدام اصحاب الاسلاميات للمنهج العلمي الحديث في كتاباتهم الاسلامية فيه نفع وفائدة للمسلمين .

فهذا المنهج الذي يقتضي من الباحث ان يبدأ بالملاحظة والتجربة ثم بالموازنة والترتيب ثم الاستنباط القائم على هذه المقدمات العلمية لتكون نتيجة بحثه ايا كانت نتيجة علمية ما لم يثبت ان الخطأ قد تسرب الى ناحية من نواحيها وان ظلت هذه النتيجة خاضعة للبحث والتحصيص من ذوي التخصص فيها والاهتمام بها .

استخدام هذا المنهج فيه نفع وذلك حين اصبحت العقلية الحديثة تتقبله ، وترفض سواه . فالمسلم الذي لا يجد الاسلام مكتوبنا بهذا الاسلوب من التفكير لا شك انه سيبحث عنه في كتابات اخرى لفير المسلمين وهنا سهل ضرب الاسلام في صورة الهجوم على رسوله والتطاول عليه والافتراء ، يخرج هذا بصورة مبسطة قريبة من عقل القارئ الحديث .

وفضلا عن ان هذا المنهج العلمي قريب من روح الاسلام كما عرفنا فهو طريقة القرآن في البحث ، وهو طريقة السلف من فلاسفة المسلمين . وفي مقلدتهم الامام ابو حامد الغزالي .

هذا بالنسبة لنفع المسلمين وفائدتهم . وأما لغير المسلمين من هؤلاء المستشرقين والمبشرين المتعصبين فاستخدام المسلمين للمنهج العلمي فيه سد الطريق امام دعائه من الاجانب . فحين يجد هؤلاء الاجانب ان المسلمين وهم احرص على دينهم من غيرهم - قد سارعوا وتناولوا الاسلاميات بالمنهج العلمي .. الذي يتفق مع العقلية الحديثة فلا مجال

اذن امامهم لاستخدامه ، ولا يجدون امامهم غير الكف عن الكتابة فسي
الاسلام وتركها لمن يعنيهم امرها وهم اصحابها .

رابعا : والاسلاميات ان لم تكن هي تاريخ للحضارة الاسلامية بكل ما
تحمل هذه الكلمة من معاني فهي على الاقل تسهم في تقديم صورة دقيقة
لهذه الحضارة الاسلامية بكل مقوماتها .

والحق انه قبل كتابة هؤلاء الاربعة في الاسلام كان البحث عن
الحضارة الاسلامية غير متيسر . فالعرب كما نعلم لم يعرفوا هذا النوع
من التاريخ . . مثل غيرهم من امم الحضارات القديمة . . كاليونان
والرومان والفرس . . ممن حرصوا على الاهتمام بتاريخ حضاراتهم .

لان العرب لم يعرفوا او على الاقل لم يهتموا بهذا النوع من التفكير
فانه يصعب على الباحث الذي ينهض لتصوير الحضارة الاسلامية فسي
مختلف عصورها . . مع بيان العناصر المكونة لها . والظروف التي ادت
الى ظهورها . . كالعوامل الجغرافية والسياسية والاجتماعية والادبية
والاقتصادية لن يجد هذا الباحث شيئا من هذا قديما . .

ولكن بعد ان قدم هؤلاء الخمسة الاسلام في صورة حديثة . . فجددوا
بذلك روح الحضارة الاسلامية ، وحددوا معناها . فعندما يتفق الدكتور
طه حسين مع كل من الدكتور احمد امين والاستاذ عبد الحميد العبادي
على كتابة الحياة الاسلامية من جوانبها الادبية والعقلية والسياسية فان
ذلك ولا شك يعني الاهتمام لعناصر الحضارة الاسلامية وتوضيحها .

وعندما يكتب الدكتور محمد حسين هيكل عن حياة صاحب الرسالة
ويعقبه بالكتابة عن الخلفاء الثلاثة «أبو بكر» و«عمر» و«عثمان» ثم عن
المكان الذي نزل فيه الوحي ، وبعد ذلك عن الامبراطورية الاسلامية . .
فانه يقدم صورة للمجتمع الاسلامي . . وهو تناول حضاري .

وحين يضع العقاد امامه الاسلام تاريخه ورجاله ويقسمه في التناول
الى عبقریات وشخصيات ودراسات وابحاث فانه ولا شك يقدم مقومات
وعناصر لهذه الحضارة الاسلامية محددة واضحة .

خامسا : وهذه الاسلاميات بأسلوبها الجديد استطاعت ان تكون خير
دعاية للاسلام في عالمنا الجديد فكثيرا ما نسمع ان احدى الجامعات في
الخارج تدرس اسلاميات الدكتور هيكل او ان احدى الهيئات العلمية
قامت بترجمة اسلاميات طه حسين او العقاد واحمد امين والحكيم . .
فان ذلك يعني اول ما يعني دعاية طيبة للاسلام . . دعاية تخطت الحدود .
وهي في نفس الوقت الذي تقدم فيه حقيقة الاسلام فهي تصحح ما يكون

قد دسه الاستعمار والصهيونية على الاسلام والانان اخطر المغرضين قديما وحديثا . والعقاد له في هذا الجانب بالذات وجهة نظر مفيدة مؤداها ان الدعاية الصهيونية بوجهها العلني والمقنع هي من اخطر ما يواجه الاسلام . . خاصة وان كان هؤلاء الصهاينة يملكون من وسائل هذه الدعاية والكثير منهم يملكون دور النشر ، ويملكون الاذاعات ، ويملكون اسهما وافرة في شركات السينما وينتسب اليهم عدد كبير من الممثلين والممثلات ونقاد المسرح ، والى جانب هذه الوسائل الفنية والمالية وسائلهم وراء الستار وامامه بين السياسة والنواب والمرشحين لمراكز الرعامة والمتنازعين على الاصوات في مواسم الانتخابات ، واستخدامهم لوسائل الجمال في هذه المعارك . وما اليها بأقل من استخدامهم لوسائل المال .

كذلك يشير العقاد الى الاستعمار وبانه قوة تضارع الدعاية الصهيونية الخفية ان لم تزد عليها في بعض الاحوال اذ هي قوة الدولة وقوة المال وسائر القوى المسخرة للسياسة والتبشير مجتمعات . وكلها تحاول تشويه الاسلام .

هذا خلاصة ما ذكره العقاد في تقديمه لكتاب «ما يقال عن الاسلام» فيما يختص باعتداء الصهيونية والاستعمار على الاسلام . ومن هنا نرى ان العقاد وبقية اصحاب الاسلاميات كانوا يكتبون وفي ذهنهم شبح الدعاية الاستعمارية والصهيونية التي تفتري على الاسلام . . لذلك كانت كتاباتهم تخاطب العقل قبل العاطفة وتقنع المسلم وغير المسلم لتكون خير دعاية للاسلام بنبيه ورجاله في العالم الخارجي .

سادسا : ولعل اعظم فائدة اسدتها الاسلاميات للاسلام والتفكير الاسلامي ان اتاحت السبيل للنشء أن يطلعوا عليها . وذلك بعد ان قررت بعضا منها وزارة التربية والتعليم في مدارسها . فأكثر عبقریات الاستاذ العقاد قد قررت ، وكذلك على هامش السيرة للدكتور طه حسين . هذه الفائدة لا تخفى علينا في مجال حصر ما اضافوه للاسلام . خاصة وان كان جني ثماراتها في ابنائنا . وهم احوج الناس الى التعرف على الاسلام بصورته المثلى ليشبوا على هدي من هذا الدين الحنيف اقوياء بإيمانهم وتمسكهم بالدين .

وهو في مقدمة ما ترجوه الدعوة الاسلامية أن ينتشر الاسلام بين اصحابه .

اقول لولا وجود هذه الاسلاميات بصورتها المقنعة المبسطة لما تيسر للقائمين على التربية والتعليم أن يقرروها ضمن مناهجهم . وإلا هل كان

من الممكن مثلا ان يقرروا سيرة ابن هشام او «امتاع الاسماع بما للرسول من خولة وحفدة وأتباع» للمقريري او «نهاية الايجاز في سيرة ساكن الحجاز» للطهطاوي وغيرها من الكتب التي لا ننكر فضلها ولكن ربما تكون مستغلقة على فهم الابناء في بداية تكوينهم الثقافي .
وعلى هذا فيمكن القول بأن الاسلاميات استطاعت ان تضيف جديدا الى التفكير الاسلامي وانها لم تكن بحال من الاحوال تحصيل لحاصل في كتب قديمة .

وبعد

فهذه «إسلاميات الدكتور طه حسين ، والدكتور أحمد أمين ،
والدكتور محمد حسين هيكل ، والاستاذ عباس محمود العقاد ، والاستاذ
توفيق الحكيم» .
تري هل هذه الاسلاميات التي اتفق فيها اصحابها زهرة عمرهم ..
قد انتهت عند آخر سطور هذا الكتاب ؟
وهل نحسب ان هذه الصفحات تزعم لنفسها انها قد اوفت على الغاية
وشارفت على الغرض ؟
وهل هذه الصفحات استطاعت ان تغطي ما اثارته هذه الاسلاميات
من نظريات ومناقشات وتساؤلات وآراء وأفكار ؟
لا .. فإسلاميات هؤلاء العمالقة الخمسة عزيزة كالضوء المنتشر ،
ممتلئة كالسحاب الثقال ، عظيمة عظيمة من كتبت عنهم في الاسلام ؟
وهذا الجهد المتواضع الذي أسعفه توفيق من الله وعونه ليس سوى
«إشارة» الى هذه الاسلاميات الحافلة بالنظريات والمناقشات والتساؤلات
والآراء والافكار .

سامح كريم

مصادر

الدكتور طه حسين	إسلاميات
الدكتور أحمد أمين	إسلاميات
الدكتور محمد حسين هيكل	إسلاميات
عباسي محمود العقاد	إسلاميات
توفيق الحكيم	إسلاميات
علي أبو بكر محمد	تصوير طه حسين والعقاد وهيكل لأبي بكر وعمر
الدكتور طه حسين	الأيام
عباسي محمود العقاد	أنا
د. محمد حسين هيكل	مذكرات في السياسة
الدكتور أحمد أمين	حياتي
سامي الكيلاني	مع طه حسين
كمال ثابت	أثر الثقافة الفرنسية في فكر طه حسين
د. شوقي ضيف	مع العقاد
د. طه عمران وادي	هيكل حياته وتراثه
الدكتور زكي المحاسني	محاضرات عن أحمد أمين
تلاميذ العقاد	العقاد دراسة وتحية
محمود تيمور	الشخصيات العشرون
أحمد عبد المعطي حجازي	محمد وهؤلاء
تأليف مارسيل كولومب	تطور مصر
ترجمة زهر الشايب	
توفيق الحكيم	مختار تفسير القرطبي



- | | |
|---------------------|------------------------------|
| د. حسين فوزي النجار | • • حياة محمد لهيكل (مقالة) |
| للدكتور شوقي ضيف | • • ضحى الاسلام (مقالة) |
| محمد كرد علي | • • • • رأيت وسمعت |
| عن طه حسين | • • • عدد الهلال الخاص |
| عن العقاد | • • • عدد الهلال الخاص |
| عن الحكيم | • • • عدد الهلال الخاص |
| | • • الموسوعة العربية الميسرة |
| | • • دائرة المعارف الاسلامية |

الفهرس

٩ تقديم
١٣ كلمة :
١٦ مقدمة الطبعة الثانية
١٩ الفصل الأول : الإسلاميات .. معناها وأسبابها
٤٣ الفصل الثاني : إسلاميات طه حسين
٦١ الفصل الثالث : إسلاميات .. أحمد أمين
٨١ الفصل الرابع : إسلاميات هيكل
١١١ الفصل الخامس : إسلاميات العقاد
١٦١ الفصل السادس : إسلاميات الحكيم
١٩٥ الفصل السابع : جديد أضافته الإسلاميات
٢٠٣ وبعد
٢٠٥ مصادر



مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٣٠٩٨ / ١٩٩٨

I.S.B.N 977 - 01 - 5933 - 6



ومازال نهر العطاء يتدفق، تتفجر منه ينابيع المعرفة والحكمة من خلال إبداعات رواد النهضة الفكرية المصرية وتواصلهم جيلاً بعد جيل - ومازلنا نتشبت بنور المعرفة حقاً لكل إنسان ومازلت أحلم بكتاب لكل مواطن ومكتبة في كل بيت.

شبت التجربة المصرية «القراءة للجميع» عن الطوق ودخلت «مكتبة الأسرة» عامها الخامس يشع نورها ليضيء النفوس ويثرى الوجدان بكتاب في متناول الجميع ويشهد العالم للتجربة المصرية بالتألق والجدية وتعتمدها هيئة اليونسكو تجربة رائدة تحتذى في كل العالم الثالث، ومازلت أحلم بالمزيد من لآلئ الإبداع الفكري والأدبي والعلمي تترى وجدان أهلى وعشيرتى أبناء وطنى مصر المحروسة، مصر الفن التاريخ، مصر العلم والفكر والحضارة.

Bibliotheca Alexandrina



0333908

سوزان



مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

مائة وخمسون قرشاً

مكتبة الأسرة
مهرجان القراءة للجميع
١٩٩٨



Thanks to
assayyad@maktoob.com

To: www.al-mostafa.com